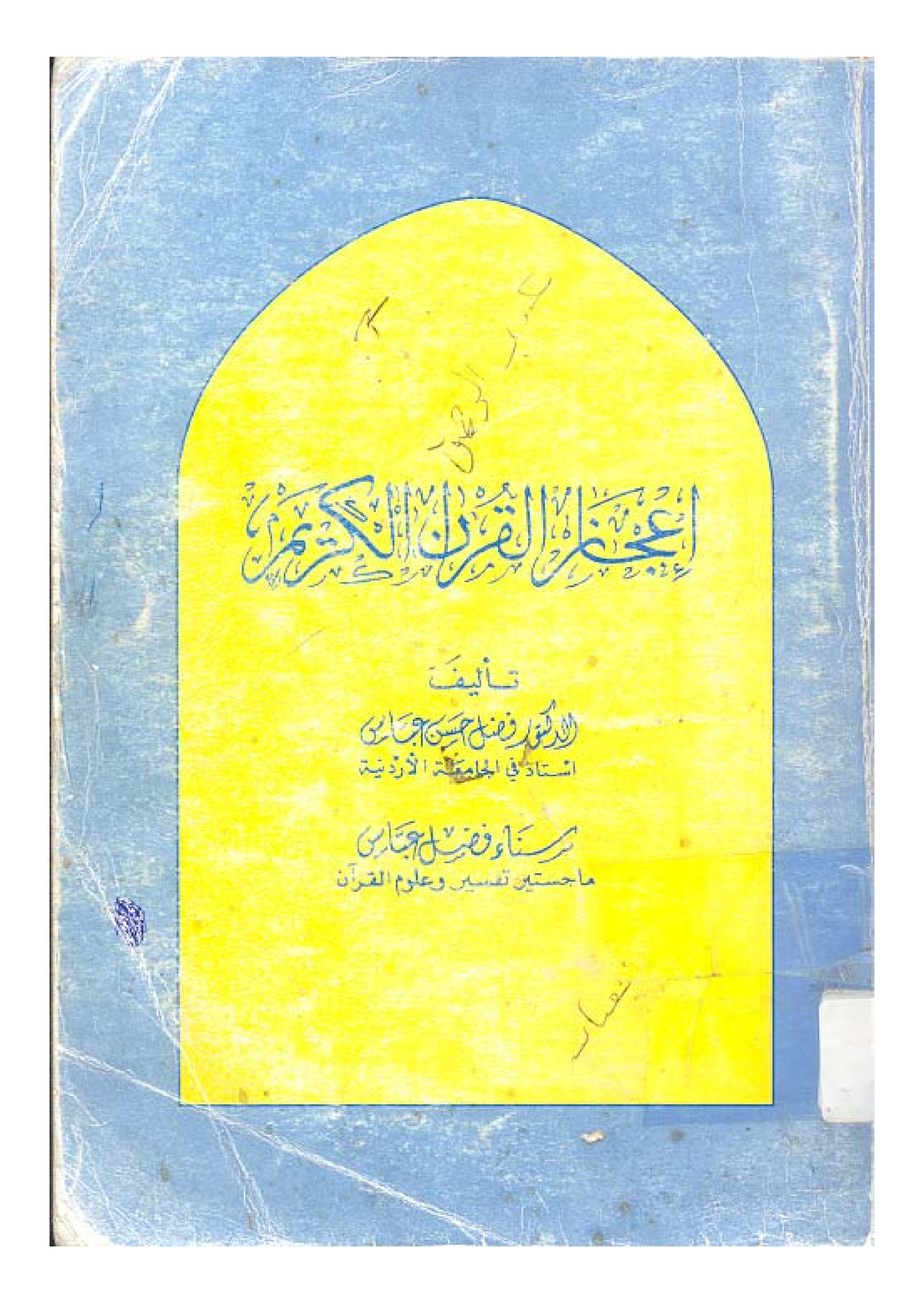


إعجاز القرآن الكريم
تأليف
الدكتور فضل حسن عباس
استاذ في الجامعة الأردنية
سناء فضل عباس
ماجستير تفسير وعلوم القرآن

تمهيد

إن هذا الكتاب قد استوعبت فيه خطة وزارة التعليم العالي المقررة على طلاب كلية المجتمع في مادة الإعجاز.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة :

{ الحمد لله رب العالمين ، مالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين ، إهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين آمين } .

{ الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض } الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيماً } ، { الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة ، وهو الحكيم الخبير } ، { الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع ويزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ، ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم } .

وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد رسول الله الرحمة المهداة والنعمة المسداة وعلى آله وصحبه الطيبين الأبرار ومن تبعهم بإحسان ... اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، أبداً أفضل صلاة صليتها على أحد من خلقك ، صلاة وسلاماً تامين دائمين متلازمين إلى الدين ... اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم ، في العالمين إنك حميد مجيد وسلم تسليما كثيراً يارب العالمين ... أما بعد ...

فأن من نعم الله علينا أن وفقنا لإخراج هذا الكتاب إعجاز القرآن الحكيم ، راجين أن يجد فيه طلاب الحق بعامة ، وطلاب كليات المجتمع ، والمعاهد والجامعات بخاصة بغيتهم وغنيتهم ، ولقد توخينا فيه - ما استطعنا - حسن العرض ، ويسر

الأسلوب ، وجدة المادة ، وسهولة العبارة ... لم نأل جهداً في إخراجه بالصبغة العلمية التي تليق بمثل هذا الموضوع ، وموضوع الإعجاز من أعظم الموضوعات شأناً وأجلها خطراً .

ولقد حرصنا فيه كل الحرص مع ما تقدم على أمانة النقل حيث أجتهدنا أن ننسب كل قول إلى قائله أياً كان ، وإن فاتنا شيء من هذا - ونرجو أن لا يكون - فإنه من السهو الذي نرجو الله أن يغفره .

أما ما ذكرناه دون أن ننسبه لأحد فهو مما فتح الله لنا فيه أبواباً من الفهم ، راجين أن يوفقنا الله لشكر نعمه ، وننبه كذلك على أن ما ناقشنا فيه بعض الكاتبين الفضلاء ، لم نقصد فيه سوى غاية نبيلة هي أمانة العلم ، نرجو أن يجد فيها القاريء الكريم ما يقنع ويمتع .

ومن نعم الله نرجو الله أن يوفقنا لشكرها ، أنني كتبت هذا الكتاب أنا وابنتي سناء ، وقد زاولت دراسة هذه المادة في كليات في أكثر من كلية من كليات المجتمع ، فصولاً عديدة ، واعترف هنا أنني عولت عليها في كتابة كل ما أخرجت للمكتبة . ربي أوزعني أن أشكر نعمتك التي انعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين ، واجعلنا اللهم من الذين تتقبل عنهم أحسن ما عملوا ، وتتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة ، وعد الصدق الذي كانوا يوعدون .

وقد جاء الكتاب في تمهيد وبابين :

التمهيد : وفيه أمور عامة حاجة الناس إلى الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وتعريف المعجزة في اللغة والاصطلاح ، وشروط المعجزة ، والمقصود من إعجاز القرآن ، والتحدي ومراحله .

الباب الأول : تاريخ الإعجاز وفيه فصلان :

الفصل الأول : جهود الأقدمين والأدوار التي مرت بها كتابة الإعجاز .

الفصل الثاني : دراسات المحدثين في الإعجاز .

الباب الثاني : وجوه الإعجاز وهو في ستة فصول :

الفصل الأول : الإعجاز البياني

الفصل الثاني : الإعجاز العلمي

الفصل الثالث : الإعجاز التشريعي

الفصل الرابع : الإخبار عن الأمور الغيبية

الفصل الخامس : الإعجاز النفسي والروحي

الفصل السادس : ما يسمى بالإعجاز العددي

والله نسأل أن ينفع به ويأجرنا عليه ، إنه سميع قريب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

د. فضل حسن عباس

سناء فضل عباس

غرة ربيع الأول ١٤١٢هـ

١٦ أيلول ١٩٩١م

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيـــد

حاجة الناس إلى الرسل وتأييدهم بالمعجزات

من نعم الله تبارك وتعالى أنه لم يخلق الناس ويدعهم وشؤونهم ، إنما تكفل لهم سبحانه بما يصلح شؤونهم ، ويكفل لهم السعادة في دنياهم وآخرتهم : ذلكم لأن الإنسان مهما أوتي من علم ، وأودع الله فيه من عقل : فإن ذلك لا يغنيه عن الهداية الربانية : لذا كان من رحمة الله وحكمته أن يرسل الرسل مبشرين ومنذرين يدعون الناس إلى الإيمان بالله الواحد ويبينون لهم ما يصلحهم ، ويحجزونهم عما فيه الشر والأذى .

ولما كان الناس حريصين على ما ألفوه ، شديدي التعلق بما عرفوه، يأسرهم التقليد ، ويستهويهم الهوى، وتستعبدهم الشهوة ، كان أكثرهم لا يستجيبون إلى الرسل؛ يكذبونهم في دعواهم قال سبحانه { ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ، جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم ، وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به ، وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب ، قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض ، يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين ، قالت لهم رسلهم ان نحن إلا بشر مثلكم ، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وما كان لنا ان نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون } [إبراهيم:٩-١٢]

ومن هنا كان من رحمة الله سبحانه أن يؤيد هؤلاء الرسل عليهم الصلاة

والسلام بالمعجزات ، تصدقهم في دعوى النبوة ، حتى لا تبقى شبهة تحيك في نفس { ليهلك من هلك عن بينةٍ ، ويحيى من حي عن بينة } [الأنفال : ٤٢].

هذا الذي أيد الله به أنبياءه عليهم الصلاة والسلام هو المعجزة ، فما هي المعجزة ؟ وما شروطها ؟ وما الفرق بينها وبين ما يشتبه بها ؟ وما أصل اشتقاقها اللغوي ؟.

المعجـــزة

أصل مادة معجزة العجز ، يقول الراغب الأصفهاني - رحمه الله - " عجز : عجزُ الإنسان مؤخره ، وبه شُبه مؤخر غيره ، قال (كأنهم أعجاز نخل منقعر) [القمر : ٢٠) والعجز أصله التأخر عن الشيء وحصوله عند عجز الأمر ، أي مؤخره ، كما ذكر في الدبر ، وصار في التعارف اسماً للقصور عن فعل الشيء ، وهو ضد القدرة، قال (أعجزت أن أكون) [المائدة : ٣١] وأعجزت فلاناً وعجَّزته وعاجزته جعلته عاجزاً ، ... والعجوز سميت لعجزها في كثير من الأمور، قال (إلا عجوزاً في الغابرين) [الشعراء :١٧١] وقال (أألد وأنا عجوز) [1] [هود:٧٢]

والراغب إمام ألمعي ، وكتابه المفردات من خير المعاجم القرآنية حقيقة ، ونتمنى أن يقيِّض الله من ينسج على منواله .

وذكر ابن فارس [2] أن العين والجيم والزاي تدل على أصلين : أحدهما الضعف والآخر مؤخر الشيء، وجاء في بعض المعاجم أن معنى العجز الضعف .

وأمام هذه الآراء الثلاثة ، نرى أن أولاها قول الراغب الأصفهاني ، فأصل

---

(١) المفردات ص ٣٢٣ .

(٢) معجم مقاييس اللغة (٤/ ٢٣٢) .

العجز في اللغة مؤخر الإنسان ، واستعير لغيره ، وهناك صلة وثيقة بين هذا المعنى وبين القصور عن الشيء ، فإن التأخر والقصور متلازمان ، لأن من تأخر عن غيره إنما يرجع ذلك إلى تقصيره ، ولسنا مع ابن فارس - إذن - بأن هذه المادة تدل على أصلين اثنين ، بل تدل على أصل واحد ، وهو مؤخر الشيء ، والتقصير إنما هو ناتج عن هذا المعنى .

والمتدبر لآي القرآن الكريم يدرك هذه القضية ، واللغويون والمفسرون مجمعون على أن ليس للعجز إلا هذا المعنى " .

* هذا وإن أمانة العلم وجدية البحث تقتضي منا أن ننبه على ما ورد في كتاب جديد لمؤلف نحبه ونشكر له جهوده الطيبة ، وهو الدكتور صلاح الخالدي لصلته بهذا الموضوع ، يقول :-

" وعند إمعان النظر في أصلي كلمة « العجز » وتعريفاتها واستعمالاتها واشتقاقاتها ، نجد أنها تحمل معنيين متضادين ، العجز والقدرة ، .... فأعجاز النخل : أواخرها ، وهي أقوى جزء فيها ، لأنها تحمل كل ما فوقها ، وأعجاز الليل: أواخره ، وهي اللحظات التي تسبق الفجر ، وهي أشد أجزاء الليل ظلاماً وحلوكة وسواداً ، وأعجاز الإبل أقوى ما فيها لأنها تحمل عليها الأحمال والأثقال ، وعجز البيت أقوى من صدره ؛ لأن فيه القافية التي تربطه مع باقي أبيات القصيدة .

وعندما يتحدى المتحدي الآخرين ، فإنه لا يتحدى إلا الأقوياء ، ومن يظنون أن بمقدورهم غلبته وتعجيزه ، إذ أنه لو تحدى الضعفاء فلا فضل له ولا فخر في غلبته لهم ، بل ربما كان هذا مأخذاً يؤخذ عليه " [1] .

---

(1) البيان في إعجاز القرآن / د. صلاح الخالدي ص ٢٠ ، ٢١ .

ثم حاول الكاتب تطبيق هذا الذي قاله على آي القرآن الكريم والأحاديث النبوية « .... والمعجزة هي اسم الفاعل المؤنث من ذلك الفعل ، فالتاء فيها هي تاء التأنيث ، وليست هاء المبالغة ، كما قال بعض العلماء ، لأنك تقول مؤمن ومؤمنة ، ومبصر ومبصرة ، كما تقول : معجز ومعجزة ، والله أعلم » (١) . وعند قوله سبحانه { قالت يا ويلتا أألد وأنا عجوز } [هود : ٧٢) وهي امرأة إبراهيم أبينا عليه الصلاة والسلام ، يقول : إن هذه الكلمة يتمثل فيها الضعف والقوة معاً ، وكذلك عند قوله سبحانه عن امرأة لوط عليه الصلاة والسلام { فنجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزاً في الغابرين } ، يقول :-

« فامرأة إبراهيم عليه السلام ، عجوز ، عاجزة عن الحمل والإنجاب ، ولكنّ الله منحها القوة بحيث قدرت على الحمل والإنجاب ، فتحولت بإذن الله من عجوز عاجزة إلى عجوز قوية ، لقد تمثلت فيها قوة العاجز »

أما امرأة لوط - عليه السلام - فعلى العكس من امرأة إبراهيم - عليه السلام - حيث كان بمقدورها أن تكون قوية ، وأن تلحق بالركب المؤمن الناجي ، لكنها عجزت عن ذلك وضعفت ، فبقيت مع القوم الهالكين ، لقد أعجزها كفرها عن النجاة ، لقد تمثل فيها عجز القوي »

إن امرأة إبراهيم - عليه السلام - عجوز ، نموذج لقوة العاجز ، وإن امرأة لوط - عليه السلام - عجوز نموذج لعجز القوي (١)»

ويقول عند قوله تعالى { تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر } [القمر: ٢٠]وقوله تعالى { كأنهم أعجاز نخل خاوية } [الحاقة : ٧] ، وقد جاءت

---

(١) ص ٢٣ .

(٢) البيان في إعجاز القرآن ص ٢٩ .

أعجاز النخل مذكرة في سورة القمر ، ووصف بها وصف مذكر (كأنهم أعجاز نخل منقعر) ، وكان منظوراً فيها إلى مجموع النخل ، وجموع التكسير يجوز تذكيرها وتأنيثها ، تقول : جاء الرجال ، وجاءت الرجال .

بينما جاءت أعجاز النخل مؤنثة في سورة الحاقة ، ووصف بها وصف مؤنث (كأنهم أعجاز نخل خاوية) حيث كان منظوراً فيها إلى أفراد النخل ، أي منظوراً فيها إلى كل نخلة على حدة ، والنخلة مؤنثة .

ويتمثل في « أعجاز النخل ، معنى الإعجاز ، وهو عجز القوي ، أو اجتماع الضعف مع القوة ، فعجز النخلة هو أقوى شيء فيها ، لأنه يحمل ما فوقه من جسمها ، ولكن هذا العجز القوي يضعف ويعجز عن الثبات والصمود أمام العواصف الشديدة ، ولذلك ينقعر ويسقط بما يحمل ، ويكون خاوياً ملقى على الأرض [(١)] .

ومن الأحاديث : ١) عن أبي الدرداء عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال :أيعجز أحدكم أن يقرأ في ليلة ثلث القرآن ؟ قالوا : وكيف يقرأ ثلث القرآن قال يقرأ « قل هو الله أحد » فإنها تعدل ثلث القرآن » [(٢)] .

فالمسلم قادر على أن يفعل ذلك ، فلماذا يتعاجز عنه ؟

٢) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : أيعجز أحدكم أن يكسب في اليوم ألف حسنة ؟ قالوا ومن يطيق ذلك ، قال : يسبح مائة تسبيحة ، فيكتب له ألف حسنة ، وتمحى عنه ألف سيئة » [(٣)] .

---

(١) ص ٤٠ .

(٢) أخرجه الإمام مسلم في كتاب الصلاة باب فضل قراءة (قل هو الله أحد) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٧٤/١) .

فهم قادرون على كسب ألف حسنة في اليوم ، ولكنهم ظنوا أنهم عاجزون عن ذلك ولا يطيقونه ، والرسول عليه الصلاة والسلام أنكر عليهم تعاجزهم وبين لهم قدرتهم على ذلك .

٣) عن عقبة بن عامر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : قال ربكم أتعجز يا ابن آدم أن تصلى أول النهار أربع ركعات أكفك بهن آخر يومك »[١]

فكل مسلم في مقدوره واستطاعته صلاة أربع ركعات ، وغير مقبول منه أدعاؤه عجزه عنها [٢].

وما ذكره الكاتب الفاضل يوجد عليه أكثر من ملحظ علمي، وإليكم بيان ذلك :

أولاً : قول الكاتب إن كلمة العجز تحمل معنيين متضادين هما العجز والقدرة، قول فيه غرابة عن أوضاع اللغة ، فهو فضلاً عن أنه لم يقل به أحد من العلماء من قبل ، فإنه مناف لدقة اللغة ، وإحكامها وموضوعيتها ، فإن من دقة العربية أن لا يكون فيها هذا التمويه ، والذي يفهم من كلام الكاتب أن كلمة العجز من الاضداد وهو قسم من المشترك ، وهذا ليس بمقبول ، فإن كون الكلمة من الاضداد ،معناه أن تدل الكلمة على معنيين متضادين كل على حدة ، فكلمة (أسروا)في قوله تعالى " وأسروا النجوى " [الأنبياء : ٣]من الأضداد ؛ لأنها يمكن أن تفسر بالإظهار ، ويمكن أن تفسر بالخفاء ، فهي صالحة لأن تفسر بكل من المعنيين على حدة ، وكلمة (عسعس) في قوله سبحانه « والليل إذا عسعس» [التكوير : ١٧] من الاضداد ، فيمكن أن تفسر بالإقبال أو الإدبار ، وهذا باب واسع وله كتب خاصة به يطلع عليها من شاء .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٠١/٤) .

(٢) ص ٢٢ .

أما كلمة (العجز) فلا يمكن أن نفسرها بالعجز تارة وبالقدرة تارة أخرى ، وإذا لم تكن من الأضداد فلا يمكن أن تدل على معنيين متضادين ، فإن هذا يتنافى مع دقة اللغة وأصالتها ، وهذا ما قرره أئمة التفسير والبيان، ويكفي أن نذكر هنا كلمة الزمخشري – رحمة الله عليه – " إن اللفظ الواحد لا يصح استعماله في حالة واحدة على معنيين مختلفين " [(١)] .

وما استدل به الكاتب لما ذهب إليه لا يخلو من مناقشة ، فـ (أعجاز النخل) التي ذكرت في الكتاب الكريم لم تذكر في معرض القوة ، ولم يقل أحد إن عجز البيت أقوى من صدره لوجود القافية فيه ، بل ربما كانت هذه الصفة أولى بها صدر البيت ، وكون القرآن يتحدى الأقوياء ليس فيه دليل على ما ذهب إليه الكاتب كذلك ، لأننا نعلم بداهة أن كلمة الإعجاز الاصطلاحية لم تكن مستعملة في عصر النبوة ، وكون العجز مؤخر الشيء فهو أقوى ما فيه ، غير مقبول كذلك ، لأننا لا يمكن أن نخلط بين الوضع اللغوي للكلمة ، وما يترتب على هذا الوضع من صفات عارضة .

إن أعجاز النخل إنما لوحظ فيها معنى مؤخر الشيء بقطع النظر عن قوتها أو ضعفها ولا صلة لاقتلاع الريح لها بالوضع اللغوي ، فهي أعجاز اقتلعها الريح أم لم يقتلعها ، وإن أعجاز الليل روعي فيها هذا المعنى كذلك وهو التأخر ، بقطع النظر عن كونها مدلهمة أو مقمرة ، أو صيفاً أو شتاءً ، وإن عجز البيت لوحظ فيه هذا المعنى كذلك بقطع النظر عن كونه ركيكاً أو جيداً .

ثم إن محاولة الكاتب تطبيق هذا على الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية

---

(١) الكشاف (١٤٩/٣) .

كقوله عن امرأة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام « فتحولت فيها بإذن الله من عجوز عاجزة إلى عجوز قوية ، لقد تمثلت فيها قوة العاجز » وعن امرأة سيدنا لوط عليه الصلاة والسلام « لقد أعجزها كفرها عن النجاة ، لقد تمثل فيها عجز القوي » ، أقول إن مثل هذه المحاولة كان جديراً أن نبعدها وأن نبتعد بها عن تأويل آي القرآن الكريم، فالعجوز كما قال الراغب – إنما سميت كذلك لعجزها عن كثير من الأمور ، أما كونها أكرمها الله تعالى بمعجزة خارقة للعادة « قالت يا ويلتا أألد وأنا عجوز وهذابعلي شيخاً ، إن هذا لشيء عجيب » [هود : ٧٢]، أقول أما كونها قد أكرمها الله بهذا ، فليس له علاقة بالوضع اللغوي ، وإلا يمكننا أن نقول إن الشيخ في قوله تعالى « وهذا بعلي شيخاً » يدل على الضعف والقوة كذلك ، وكون امرأة لوط عليه الصلاة والسلام اختارت الكفر ، لا دخل له في المعنى اللغوي كذلك .

* وأما الأحاديث النبوية الشريفة فليس فيها ما يشير إلى هذين المعنيين المتضادين من قريب أو بعيد ، بل إن المتدبر لها وللسياق الذي جاءت فيه ، يدرك بداهة أن لا إشارة فيها ألبتة إلى معنى القوة ، فقراءة (قل هو الله أحد) [الاخلاص : ١] والتسبيح مائة مرة ، وصلاة أربع ركعات كلها ليست من الأمور التي تحتاج إلى قوة مادية أو علمية ، بل هي مما يتساوى فيه الناس جميعاً ، وليس بعض الناس فيها أقوى من بعض .

* إن كلمة الإعجاز لا تدل إلا على مؤخر الشيء ، وعلى التقصير عن بلوغ المراد ، ولا يمكن أن تحمل في طياتها معنى القدرة ، ولا ينبغي أن نخلط بين الوضع اللغوي للكلمة ، وبين ما يكون لها من صفات خلقية أو خُلقية .

وقد يكون للكلمة ظلال كثيرة ، ولوازم متعددة ،فليس من الصواب أن نخلط بين الوضع اللغوي ، وبين مالها من ظلال أو لوازم ، ومن هنا بيّن العلماء أن

للدلالات أقساماً متعددة ، فهناك دلالة المطابقة ، وهي دلالة اللفظ على المعنى الذي وضع له ، وهناك دلالة الإلتزام ، وهي دلالة الشيء على بعض لوازمه ، وهذه بالطبع ليست دلالة لغوية .

ثانياً : عند قوله تعالى (كأنهم أعجاز نخل خاوية) وقوله (أعجاز نخل منقعر) يذكر أن النخل ذكر لأنه نظر فيه إلى مجموع النخل ، وفي (نخل خاوية) أنث الوصف لأنه نظر فيه إلى أفراد النخل ، ويحسن أن نتحدث هنا عن قضيتين اثنتين : الأولى تتصل بالنحو ، والثانية تتصل بالصورة البيانية .

* القضية الأولى : أما ما يتصل بالنحو ، فإن النخل يذكر ويؤنث ، يقال : هذا نخل ، وهذه نخل ، فلوحظ وصف التذكير في سورة القمر ، ووصف التأنيث في سورة الحاقة [1] ، والآيتان في ذلك سواء ، فلم ينظر إلى المجموع في سورة القمر ، ولا إلى الإفراد في سورة الحاقة ، فاللفظ واحد في السورتين .

أما مراعاة أحد الجانبين في سورة والآخر في سورة أخرى ، فهو ما توضحه القضية الثانية وهي الصورة البيانية .

* القضية الثانية : ولأول وهلة يظن أن التشبيه واحد في الآيتين ، ولكن الرماني – رحمه الله – أدرك بيقظة فكره ، وشفافية إحساسه فرقاً بين التشبيهين ، فعند حديثه عن التشبيه البليغ ، ذكر له طرقاً أربعاً :

١- إخراج ما لا تقع الحاسة عليه إلى ما تقع عليه ومنه قوله { والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة } [النور : ٣٩] .

٢- إخراج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة فيها كقوله { وله الجوار

---

(١) الجمان في تشبيهات القرآن ص ٣١٠ .

المنشآت في البحر كالأعلام } [الرحمن : ٢٤] .

٣- إخراج مالم تجر به عادة إلى ما قد جرت به العادة ، كقوله تعالى { كأنهم أعجاز نخل منقعر } [القمر : ٢] .

٤- إخراج ما لايعلم بالبديهة إلى ما يعلم ومنه قوله تعالى { كأنهم أعجاز نخل خاوية } [الحاقة : ٧].

ويتبادر لأول وهلة أن التشبيهين - « كأنهم أعجاز نخل منقعر » و « نخل خاوية » - من واد واحد ، لاتحاد المشبه والمشبه به ، ولكن الرماني كان دراكاً للمحة، غواصاً على معرفة ما بين المعاني من فروق ، فلم يجعل الآيتين الكريمتين من واد واحد ، بل جعل لكل من الآيتين الكريمتين وادياً خاصاً بها ، ومسلكاً مستقلاً ، فقوله سبحانه « تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر » جعله من باب مالم تجر به عادة ، وقوله سبحانه « كأنهم أعجاز نخل خاوية » [الحاقة : ٧] من باب ما لم يعلم بالبديهة ، وهو لعمر الحق ملحظ يدل على ذكاء وفطنة ، وأحوذية ودقة ، ذلكم أن تشبيه الناس ، وقد اقتلعت الريح رؤوسهم عن أجسادهم ، ليس من الأمور المعروفة عند الناس ، فاختار له القرآن الكريم مشبها به ألفوه كثيراً في بيئتهم الطبيعية ، ولا زال الناس يعرفونه ويألفونه حتى اليوم ، فكم من ريح اقتلعت الأشجار من جذورها وهذا منظر ليس غريباً عن الإنسان في كل زمان ومكان .

أما الآية الأخرى وهي قوله سبحانه « كأنهم أعجاز نخل خاوية » فإن المراد منها خلو هذه الأعجاز من الحركة والحياة ، فلا خضرة ولا نمو ، وهذا أمر مركوز في فطر الناس ، وهو من الأمور المدركة ضرورة وبداهة ، وهذا هو الفرق بين الآيتين

الكريمتين اللتين تبدوان لأول وهلة كأنهما متحدثان » (1) .

إذن فقوله سبحانه " نخل منقعر " و " نخل خاوية " لم ينظر في أحد الوصفين إلى الإفراد ، والآخر إلى الجمع ، بل نظر إلى الجمع فيهما معاً ، واختير لكل سورة من السورتين الكريمتين - القمر والحاقة - الصورة التي تناسب موضوعها ، فسورة الحاقة تتحدث عن يوم القيامة بعد أن تنتهي الحياة والحركة ، وهذا السياق يتسق مع قوله سبحانه " خاوية " ، أما سورة القمر فلها سياق آخر ، السياق الذي يتلاءم مع انشقاق القمر ، والنحس المستمر ، ويبقى في الآيتين كلام كثير يتصل بهذين التشبيهين ، نرجو أن يتسنى لنا بيانه في موضع آخر .

* ثالثاً : يقول الكاتب إن التاء في (معجزة) للتأنيث وليست للمبالغة كما يقول بعض العلماء ، ومثّل لذلك بـ مؤمن ومؤمنة ومبصر ومبصرة .

والحق أن جمهور العلماء مجمعون على أن التاء ليست للتأنيث ، ولكن بعضهم جعلها للمبالغة ، وبعضهم جعلها للنقل ، قال العلامة سعد الدين التفتازاني في شرح المقاصد : والتاء فيها - المعجزة - للنقل ، كما في الحقيقة ، أو للمبالغة كما في علاّمة » وقال الفيروزآبادي في القاموس المحيط « والتاء فيها للمبالغة » ومن المفيد أن نشرح ذلك .

التاء التي تلحق الأسماء ، قد تكون للتأنيث كما في مؤمن ومؤمنة ، ومبصر ومبصرة ، ومسلم ومسلمة ، فإن كلاً من هذه الأوصاف إما مذكر وإما مؤنث ، فالمسلم وصف للذكر ، والمسلمة وصف للأنثى ، وهكذا مؤمن ومبصر ومحسن ، وهكذا تأتي التاء لتميز الأنثى من الذكر .

---

(1) انظر بحثنا (رسالة الرماني : النكت في إعجاز القرآن ، تحليل ونقد) المنشور في مجلة دراسات المجلد السادس عشر ، العدد العاشر سنة ١٩٨٩م .

وقد تكون التاء للمبالغة ، كما في علّامة ونسّابة ، يقال رجل علّامة ونسّابة، إذا كان كثير العلم ، ومُشْتَهَراً بمعرفة الأنساب .

وقد تكون للنقل ، كما في حقيقة وذبيحة ، ونطيحة ، وكافة ، أي النقل من الوصفية إلى الإسمية ، فلفظ حقيقه أصله وصف ، ولكن جاءت التاء لتنقله إلى الإسمية كأنما تنوسي الوصف فيه ، وهكذا ذبيحة ونطيحة ، ألا ترى أننا نقول هذا اللفظ حقيقة ، وهذا الكبش ذبيحة .

ولا يجوز أن تكون التاء هنا للتأنيث ، لأنها لو كانت للتأنيث لم يجز أن يوصف بها المذكر ، فإنا نعلم بداهة أن الصفة تتبع الموصوف في أربعة من عشرة : منها التذكير والتأنيث ، فلا يجوز أن يقال " رجل مؤمنة وأمرأة مؤمن " وإنما يقال " رجل مؤمن وامرأة مؤمنة ، قال تعالى « ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم، ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم » [البقرة : ٢٢١] .

إذا عرفنا هذا - ونرجو أن نكون قد استوعبناه - أدركنا أن التاء في معجزة، لا يجوز أن تكون للتأنيث ؛ لأن تاء التأنيث تفرق بين المذكر والمؤنث ، وليست كذلك المعجزة ، فإنه يمكن أن يوصف بها القرآن ، فنقول (القرآن هو الكلام المعجز) ، كما نقول (القرآن معجزة النبي صلى الله عليه وسلم).

وعلى هذا فالتاء للنقل كما في كلمة (حقيقة) نقول : هذا اللفظ حقيقة في الاستعمال ، أو المبالغة كما في علامة ، وهذا ما ذكره ا السعد وصاحب القاموس وغيرهما [1].

(١) القاموس المحيط للفيروز آبادي / ص ٦٦٣ .

المعجزة إصطلاحاً :

المعجزة في الاصطلاح هي ما يدل على تصديق الله تعالى للمدعي في دعواه الرسالة ، أو هي تأييد الله مدعي النبوة بما يؤيد دعواه ليصدقه المرسل إليهم.

شروط المعجزة :

ومن هذا التعريف نستنتج أن للمعجزة شروطاً لابد أن تتحقق .

* الأول : أن تكون المعجزة فعلاً لله تبارك وتعالى ؛ ذلكم لأن المعجزة تصديق للرسول الذي أرسله الله ، فلا بد أن تكون المعجزة آية من الله ، وهذه الآية قد تكون قولاً كالقرآن الكريم ، وقد تكون فعلاً كفلق البحر لسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ، وقد تكون تركاً كعدم إحراق النار لسيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

* الثاني : أن يكون هذا الأمر خارقاً للعادة ، بيان ذلك :- أن الحياة كما نعلم ارتبطت فيها الحوادث بأسبابها ، وهذا ما اعتاده الناس وألفوه ، والمعجزة لابد أن تكون خارجة عن هذا المألوف ، وهذا شأن معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فلم يألف الناس أن تتحول العصا إلى حية ، أو أن النار لا تحرق ، أو أن البلغاء يعجزون عن أن يأتوا بمثل كلام بليغ .

* الثالث : أن تكون معارضتها غير ممكنة ، بمعنى أن الناس لا يقدرون أن يأتوا بمثلها ، إذ لو أمكن الإتيان بمثلها لم تصلح أن تكون معجزة .

* الرابع : أن تكون هذه المعجزة ظهرت على يد من ادعى النبوة ، فلو أتى غير من ادعى النبوة بما هو خارق للعادة ، فإن ما أتى به لا يسمى معجزة ، ومن هنا يجب أن نتجنب هذا الخطأ الشائع بين الناس وهو إطلاق المعجزات على ما يفعله بعض الناس في أيامنا هذه ، فالمعجزات إنما هي للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ،

ولا يصح أن نصف أي عمل جاء به غيرهم بأنه معجزة .

* الخامس : أن يكون موافقاً لما ادعاه النبي ، فلو قال معجزتي إحياء الموتى، ولكن الذي حصل على يديه نطق الحجر مثلاً لم تكن هذه معجزة .

* السادس : أن لا يكون هذا الأمر مكذبا لصاحبه ، فلو قال مثلاً معجزتي نطق الجبل ، ونطق الجبل فقال : أنت كاذب ، لا تكون هذه معجزة .

* السابع : أن تكون المعجزة بعد ادعاء النبوة ، اما إذا كانت قبل دعوى النبوة فلا تكون معجزة وإنما يسمى ذلك إرهاصا ، ومثال ذلك كلام سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام في المهد (١) .

هذه هي شروط المعجزة التي ذكرها العلماء رحمهم الله ، ومن هذه الشروط ندرك أن المعجزة تفترق كثيراً عن كل ما يراه الناس غريباً عما ألفوه وعرفوه كالكرامة والسحر والمخترعات الغريبة .

الفرق بين المعجزة والكرامة :

فالفرق بين المعجزة والكرامة ، أن الكرامة فعل لله سبحانه يكرم الله به من يشاء من عباده الصالحين ، وذلك مثل ما أكرم الله به مريم رضي الله عنها ، قال تعالى { كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً ، قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله } [آل عمران : ٣٧] ، ومن هذا القبيل ما أكرم الله به الفتية الذين آمنوا بربهم وهم أهل الكهف . على أن من أظهر الله الكرامة على يديه ينبغي أن لا تزهو نفسه بها ، ولا تكون سبباً لفتنته ، ولا يحب نشرها وإذاعتها بين الناس ؛ لأن هذا لا يتفق مع الصلاح والورع والتقوى .

---

(١) القول السديد في علم التوحيد (٣/٣) الأستاذ محمود أبو دقيقه .

الفرق بين المعجزة والسحر :

وتفترق المعجزة عن السحر :

١- أن المعجزة تظهر على يد نبي ، والنبي من صفوة خلق الله ، أما السحر فهو من ساحر ، والساحر من أخبث الناس نفساً .

٢- أن المعجزة فعل لله ، لا يستطيعه أحد من الناس ، أما السحر فهو من فعل الساحر وهو أمر يمكن تعلمه .

٣- إن المعجزة فيها خير الناس وصلاحهم ، أما السحر فليس فيه إلا الأذى والشر والشحناء ، هذا إذا قلنا إنّ للسحر حقيقة .

وبعد هذا يمكنكم أن تفرقوا بين المعجزات وبين المخترعات الحديثة ، لأن هذه خاضعة لقواعد يمكن أن تتعلم .

توخي الحكمة في المعجزة :

إن من حكمة الله سبحانه أن تكون هذه المعجزة منسجمة مع أحوال الناس الذين ظهرت فيهم ، ذلك لأن الناس يختلفون باختلاف أزمنتهم وأمكنتهم ، فإذا كانت غاية المعجزة أن يرى الناس فيها صدق الرسول ، وقيام الدليل على صحة دعواه ، كان لابد أن تكون هذه المعجزة جارية مع تفكيرهم ، ومع طبيعة بيئتهم . فمعجزة صالح عليه الصلاة والسلام كانت الناقة ، ذلك لأن ثمود وهي إحدى القبائل كانوا يعنون بشأن الإبل ويعيشون في مكان هم في أمس الحاجة فيه إلى الماء ، فكانت معجزته عليه الصلاة والسلام الناقة آية ، لها شرب ولهم شرب يوم معلوم .

* كذلك معجزة موسى عليه الصلاة والسلام العصا الجافة التي ألقاها باسم الله، فإذا هي حية تسعى ، وهي تشبه السحر ، والأمة التي تحداها تفوقت في

ومعجزة عيسى عليه الصلاة والسلام منسجمة مع البيئة ؛ ذلك لأن العهد الذي أرسل فيه عليه الصلاة و السلام كان عهداً قد طغت عليه المادة وبخاصة على بني إسرائيل ، حيث قطعوا كل صلة بينهم وبين شريعة موسى ، فكانت معجزته -إذن- تقويضاً للمادة رأساً على عقب ، وصفعة للماديين ، وليس الأمر كما قيل من أن القوم قد برعوا في الطب فكانت معجزته عليه الصلاة والسلام مما برعوا فيه؛ ذلك أنه لم يثبت أن القوم برعوا في الطب أولاً ، وأما ثانياً فلأن معجزاته عليه الصلاة والسلام ليست مما للطب فيه حيلة ومعرفة ، فإحياء الموتى أمر ليس للطب فيه مجال، كذلك إبراء الأكمه والأبرص ؛ لأن الأكمه من ولد ممسوح مكان العينين ، وهذا من الأمور التي لا يستطيعها الطب أبداً ، ولا يزال الطب عاجزاً عن مداواة البرص ، وكذلك إخباره عليه الصلاة والسلام عما يأكلونه ويدخرونه في بيوتهم بعيد عن مجال الطب .

إذن هذه المعجزات نجدها جميعها معجزات مادية ، كما نجدها معجزات غير دائمة ، بل تنتهي بإنتهاء النبي الذي جاء بها ، بل ربما تنتهي في حياته ، ونجدها من جهة ثالثة ملتئمة متناسبة مع العصر .

أما معجزة النبي – صلى الله عليه وسلم – فقد كانت بدعاً من المعجزات السابقة ، فهي معجزة بعيدة عن أن تشوبها شوائب المادة ، بل هي معجزة عقلية إنسانية ، ثم هي بعد ذلك ليست محددة بزمان معين ؛ وإنما هي باقية على مدى الدهر « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » [الحجر : ٩] وهي من جهة ثالثة تتفق مع حال أولئك الذين أرسل فيهم النبي عليه وآله الصلاة والسلام ، حيث كانوا أئمة القول ، وفرسان حلبة الكلام شعره ونثره .

بقاء معجزة النبي صلى الله عليه وسلم :-

أرسل الله نبيه عليه الصلاة والسلام إلى الناس كافة ، قال سبحانه { وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً } [سبأ:٢٨] وقال { قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً } [الأعراف:١٥٨] ويقول النبي عليه وآله الصلاة والسلام " كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى كل أحمر وأسود .... وختم بي النبيون " .

ولما كانت رسالته عليه وآله الصلاة والسلام عامة للناس جميعاً ،كانت باقية كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، قال تعالى (وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) [الأنعام : ١٩] ومن هنا فلابد أن تكون معجزة النبي عليه وآله الصلاة والسلام تختلف عن غيرها من المعجزات ؛ لذا كانت المعجزات السابقة تختلف عن الكتب التي يوحيها الله إلى الأنبياء ، فكتاب موسى عليه الصلاة والسلام التوراة ، أما معجزته فاليد والعصا وغيرها ، وكتاب عيسى عليه الصلاة والسلام الإنجيل ، أما معجزته فكما حدثنا القرآن الكريم كانت إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص .

أما القرآن الكريم ، فكان الكتاب والمعجزة في آن واحد ، فهو يقوم مقام آيات كثيرة ، وهذا معنى قوله تعالى « وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين ، أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » [العنكبوت : ٥١] إنه رحمة في هدايته ، وذكرى في إعجازه .

ومع أن النبي عليه الصلاة والسلام ، أكرمه الله بكثير من المعجزات الحسية، كنبع الماء من أصابعه الشريفة ، وتسبيح الحصى في يديه ، وحنين الجذع إليه ،

وغير هذه مما صح في كتب السنة ، فإن المعجزة الباقية ، كانت هذا الكتاب الكريم ، المعجزة الباقية على مدى الدهر .

أخرج الإمام مسلم رضي الله عنه عن النبي عليه وآله السلام " ما من نبي من الأنبياء إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحى الله إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة " (١) .

عموم رسالة النبي صلى الله عليه وسلم ودوامها يتطلبان أن تكون المعجزة باقية ، تخاطب أسمى ما في الإنسان قلبه وعقله ، وقد جاء القرن الكريم ليكون تربية للنوع الإنساني في مجالات حياته كلها ، من هنا كان رحمة ، كما جاء يتحدى الخلق جميعاً على أن يأتوا بمثله ، ومن هنا كان ذكرى ، وإن كل الفلسفات وجميع القوانين التي كانت قبل هذا القرآن لشاهد صدق على سمو القرآن الكريم وعظمته ورفعة شأنه .

هذه هي الأسباب التي من أجلها كانت معجزة النبي عليه وآله الصلاة والسلام معجزة عقلية خالدة ، تامة الهداية ، لا تقتصر على مجال دون آخر ، واضحة ليس فيها غموض ، عامة لا تقتصر على مكان دون آخر ، أو شعب دون شعب ، باقية لا تخص زمنا دون آخر ، فهي لا تخص أمة دون أمة ، ولا زماناً دون زمان ، ولا مكاناً دون مكان .

على أن بعض الكاتبين علل بقاء معجزة النبي صلى الله عليه وسلم دون غيرها من المعجزات تعليلاً غريباً ، حيث ذكر أن معجزة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانت فعلاً من أفعال الله ، والفعل له بداية ونهاية ، ولكن القران الكريم

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في كتاب الإيمان ، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى ...

كان صفة من صفات الله ، والصفة باقية ببقاء الموصوف ، وهذه حذلقة بعيدة عن منطق العلم ، ونعجب من الشيخ الشعراوي [(١)] كيف يصدر عنه هذا القول .

وعلل بعضهم كون معجزة النبي صلى الله عليه وسلم عقلية بـ " أن الناس في عصر البعثة قد اتجهوا إلى التجريد العقلي ، والتعامل مع الأمور المعنوية العقلية ، حيث ظهر الفلاسفة العقلانيون التجريديون مثل سقراط وأرسطو وفيثاغورس ، وكان العرب أيضاً متأثرين بذلك التوجه ، يميلون إلى التجريد العقلي " [(٢)] .

وهذا قول لابد له من إعادة النظر؛ لأن هناك أموراً خطيرة تترتب عليه ، ففيثاغورس كان في القرن السادس قبل الميلاد ، وسقراط كان في القرن الرابع ، وارسطو كان في القرن الثالث قبل الميلاد ، وعلى هذا فهم أقرب إلى سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام ، فلا يجوز - إذن - أن نعلل معجزة القرآن بظهور هؤلاء الفلاسفة ؛ لبعد ما بينهم وبين ظهور النبي صلى الله عليه وسلم .

الله أعلم حيث يجعل رسالته ، وربك يخلق ما يشاء ويختار ، فالله تبارك وتعالى هو الذي اختار الزمان والمكان لرسالة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ، لتكون عامة خالدة .

---

(١) معجزة القرآن للشعراوي ، ص ١٩ .

(٢) البيان في إعجاز القرآن ، ص ٦٠ .

إعجاز القرآن

إن معنى إعجاز القرآن عجز الناس عن أن يأتوا بمثله ، فكلمة إعجاز مصدر وإضافتها إلى القرآن من إضافة المصدر لفاعله فكأن التقدير أعجز القرآن الناس أن يأتوا بمثله ، ومعنى ذلك أن هذا القرآن الكريم دلّ بما فيه من بيانٍ على أنه من عند الله ، وثبت عجز الناس عن أن يأتوا بمثله .

متى ظهرت كلمة إعجاز :-

من المفيد أن ننبه هنا على أن هذا المصطلح لم يكن معروفاً في عهد النبوة والصحابة والتابعين ، إنما عُرف فيما بعد ، دليل ذلك كتاب الله تبارك وتعالى ، فالكلمة التي كانت تقوم مقام المعجزة هي الآية ، وهذا ما ورد كثيراً في كتاب الله تبارك وتعالى ، قال تعالى { وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ، وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً } [الاسراء : ٥٩] وقال تعالى { ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات } [الاسراء : ١٠١] ، وقال {و قالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين، أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يُتلى عليهم إنّ في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون } [العنكبوت : ٥٠ ، ٥١] .

فالآية والآيات هي التي عبر عنها بالمعجزات فيما بعد ، ولكن متى ظهر هذا المصطلح ؟

يغلب على ظننا أن مصطلح الإعجاز والمعجزة لم يظهر قبل القرن الثاني الهجري ، ولقد نشأ في بيئة المتكلمين الذين كانوا يدافعون عن القرآن الكريم ، ويردون أباطيل الملاحدة والزنادقة وأهل الزيغ ، والأهواء ، وهو مصطلح له ما يؤيده من اللغة .

وجـــــوه الإعجـــــاز

وإذا كان المسلمون والمنصفون من غيرهم مجمعين على أن القرآن الكريم كتاب معجز ، وهو المعجزة العظمى لسيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أقول إذا كان هؤلاء وأولئك متفقين على هذا ، ومتفقين كذلك على أن بيان القرآن وبلاغته ونظمه من أعظم ومن أهم وجوه إعجازه ، فلقد اختلفوا فيما وراء ذلك ؟

رأى بعضهم أن القرآن معجز ببيانه فحسب ، وذهب أكثر العلماء ، إلى أن وجوه الإعجاز كثيرة ومتعددة فهناك الإعجاز البياني ، وهناك الإعجاز التشريعي والخلقي ، وهناك الإعجاز العلمي إلى غير ما هنالك من وجوه ، سنحدثك عنها فيها بعد إن شاء الله .

والقائلون بتعدد هذه الوجوه مجمعون على أن الإعجاز البياني هو أعظم هذه الوجوه وأهمها وأعمها : ذلك لأنه لا تخلو منه آية من كتاب الله تعالى ، أما الوجوه الأخرى فليست كذلك ، فهي مفرقة فيه .

وقبل أن نصدر حكماً ، وننتصر لأحد هذين الرأيين ، يجمل بنا أن نتحدث عن التحدي ومراحله : لأن لها أثراً كبيراً في ترجيح أحد هذين الرأيين .

التحدي :

امتاز العرب بسلامة السليقة ، وسرعة البديهة ، فقد عرفوا كثيراً من أصول النقل الأدبي معرفة ناجمة عن ذوق ، وقد يكون ذوقاً معللاً في كثير من الأحيان ؛ لذلك لما سمعوا القرآن الكريم يتلى عليهم - وقد بلغت اللغة عند نزوله أشدها - استولى على مسامعهم ، وسار حديث نواديهم ومجامعهم ، تهتز له ألبابهم وأفئدتهم وكان حرياً بهم وقد تذوقوا حلاوته أن يؤمنوا به كتاباً منزلاً ، وبالذي جاء به نبياً مرسلاً ، ولكنهم كانوا أشدّ عناداً ، فتحداهم القرآن ، وأرخى لهم العنان في

التحدي، ولكنهم وقفوا أمام القرآن موقف العاجز فلم يستطيعوا معارضته ، مع أن الأسباب الباعثة على المعارضة كانت موفورة متضافرة ، وأي شيء أقوى في استثارة حمية خصمك من ذلك التقريع البليغ المتكرر الذي توجهه إليه ، معلنا فيه عجزه عن مضاهاة عملك ؟ إن هذا التحدي وحده كاف في إثارة حفيظة الجبان وإشعال همته للدفاع عن نفسه بما تبلغه طاقته ، فكيف لو كان الذي تتحداه مجبولاً على الأنفة والحمية ؟ وكيف لو كان العمل الذي تتحداه به هو صناعته التي بها يفاخر ، والتي هو فيها المدرب الماهر ؟ وكيف لو كنت مع ذلك ترميه بسفاهة الرأي وضلال الطريق ؟ وكيف لو كنت تبتغي من وراء هذه الحرب الجدلية هدم عقائده ، ومحو عوائده ، وقطع الصلة بين ماضيه ومستقبله [1] ؟ .

ولذا كان هذا القرآن الكريم شغلهم الشاغل ، فلجأوا إلى وسائل كثيرة لمقاومته باللطف أو بالعنف ، فأغروا النبي – صلى الله عليه وسلم – بالمال ليكف عن دعوته ، وتواصوا على مقاطعته وحبسه ، ومنعوا صوت القرآن أن يخرج من دور المسلمين خشية أن يسمعه أحد من أبنائهم ، وألقوا فيه الشبهات والمطاعن فقالوا كاهن أو مجنون أو ساحر ليصدوا عنه الآخرين ، وكل هذا " لأنهم أحسوا في قرآنه قوة غلابة وتياراً جارفاً يريد أن يبسط سلطانه حيث يصل ، وإنهم لم يجدوا سبيلاً لمقاومته من طريق المعارضة الكلامية ، فكان الطريق الوحيد لمقاومته الحيلولة بين هذا القرآن وبين الناس ، فخاضوا مع النبي – صلى الله عليه وسلم- الحروب الطويلة وضحوا في سبيل ذلك بالغالي والنفيس ، وهذه أحوالهم كلها تدل على عجزهم .

---

(١) النبأ العظيم (ص ٧٩).

ومما يدل على عجزهم كذلك أقوالهم ، وهي كثيرة منها : أن الوليد بن المغيرة جاء إلى الرسول -صلى الله عليه وسلم- فلما قرأ عليه القرآن كأنه رق له ، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال له : يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه ؟ فإنك أتيت محمداً لتتعرض لما قِبَله ، قال الوليد : لقد علمت قريش أني من أكثرها مالاً ، قال : فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له وكاره ، قال وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم مني بالشعر ولا برجزه ، ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، والله مايشبه الذي يقوله شيئاً من هذا ، ووالله إن لقوله لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمنير أعلاه ، مشرق أسفله ، وأنه ليعلو ولا يُعلى ، وإنه ليحطم ما تحته " .

ومنها قول أنيس أخي أبي ذر -رضي الله عنه- حينما سمع القرآن الكريم والله لقد وضعت قوله على أقراء الشعر فلم يلتئم على لسان أحد ، ولقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون [1] .

مراحل التحدي :

إن تحدي القرآن كان في أكثر من آية ، وفي أكثر من وقت واحد ، وفي أكثر من مكان كذلك ، لقد تعددت آيات التحدي ، وتعددت مراحله كذلك :

أولاً : تحدوا أن يأتوا بمثل القرآن من غير تعيين قدر معين ، قال تعالى {فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين } [الطور : ٣٤] .

ثانياً : ولما عجزوا أن يأتوا بمثله، أرخى لهم العنان مرة أخرى ، قال تعالى {أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم يستجيبوا لكم ، فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا

---

(١) النبأ العظيم ص ٨٦ .

إله إلا هو فهل أنتم مسلمون } [هود : ١٣ ، ١٤] .

ثالثاً : فلما عجزوا ولم يستطيعوا ، أرخى لهم العنان ، وخفف عليهم المؤنة فاكتفى منهم بسورة واحدة ، قال تعالى { أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين } [يونس : ٣٨] .

رابعاً : ولكن القوم لم يراوحوا مكانهم ، فتحداهم وكانت المرة الأخيرة أن يأتوا بسورة تشبه القرآن ، ولو من وجه من الوجوه ، فقال سبحانه { وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين } [البقرة : ٢٣ ، ٢٤] .

دراسة هذه المراحل :

وإذا أردنا دراسة هذه المراحل لنرى ما بينها من وجوه الإتفاق والإختلاف ، فاننا نجد ما يلي :-

أولاً : إن هذه المراحل كلها جاءت تعلن التحدي بكل قوة وثقة .

ثانياً : إن المراحل الثلاث الأولى كلها مكية التنزل ؛ فإن الآية الأولى من سورة الطور ، والثانية من سورة هود ، والثالثة من سورة يونس عليهما الصلاة والسلام ، وهذه السور مكية اتفاقاً . أما الآية الرابعة فهي مدنية إتفاقاً وهي من سورة البقرة.

ثالثاً : إن المراحل الثلاث الأولى خوطب بها العرب ، لأنهم هم المتحدون في هذه السور الثلاث ، أما المرحلة الرابعة ، فقد خوطب بها الناس جميعاً ، يدل لذلك سياق الآيات الكريمة ، وهي قوله { يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من

السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ، وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ..}[البقرة :٢١- ٢٣].

رابعاً : ان المراحل الثلاث الأولى مختلفة من حيث الأسلوب عن المرحلة الرابعة ، وإليكم بيان ذلك :

* المرحلة الأولى « فليأتوا بحديث مثله » والثانية « قل فأتوا بعشر سور مثله» والثالثة « فأتوا بسورة مثله » ، أما المرحلة الرابعة فجاء الأسلوب فيها «فأتوا بسورة من مثله » فكلمة (من) لم تذكر إلا في المرحلة الرابعة .

* هناك اختلاف -إذن- بين المراحل الثلاث والمرحلة الرابعة من حيث التنزل ، ومن حيث السياق ، ومن حيث الأسلوب ، ولهذه الفروق دلالاتها في تعيين أو ترجيح أحد القولين السابقين في بيان وجوه الإعجاز .

فإذا كان التحدي في المراحل الثلاث المخاطب به العرب ، والعرب كان البيان بضاعتهم والبلاغة سجيتهم ، فإن المرحلة الرابعة المخاطب بها الناس جميعاً عربهم وعجمهم ، وإذا كانت المراحل الثلاث الأولى خالية من كلمة (من) ، فلقد جاءت المرحلة الرابعة مشتملة على هذا الحرف الدال على التبعيض ومعنى هذا أن المرحلة الأخيرة ، كان التحدي فيها للناس جميعاً ، ولا يعقل أن يتحدى الناس جميعاً بالبيان وحده ، إنما هو تحدٍ عام عموم المخاطبين به .

* وبعد هذه الدراسة لمراحل التحدي نقرر مطمئنين أن وجوه الإعجاز متعددة ، وأن القرآن الكريم معجز من حيث بيانه ، ومن حيث تشريعه ، ومن حيث ما فيه من حقائق علمية وكونية ، ومن حيث ما فيه من أخبار الأمم السابقة ، ومن أخبار الغيب المستقبل ، ومن حيث تأثيره في النفوس ، من هذه الحيثيات وغيرها مما ستعلم نبأه بعد حين إن شاء الله . فلا تعجل ، فقبل أن نحدثك عن هذه الوجوه ، سنسير معاً في رحلة تاريخية ، نتعرف من خلالها على جهود السابقين من

العلماء، وما نظمته أفكارهم ، وسطرته أقلامهم قديماً وحديثاً .وهذا هو الباب الأول.

وسنجعله في فصلين : الأول : ونتحدث فيه عن جهود الأقدمين .

الثاني : ونتحدث فيه عن جهود المحدثين من العلماء

الباب الأول
تاريخ الإعجاز

الفصل الأول

رد جهـود الأقدمين :

ونتحدث فيه عن الأدوار التي مرت فيها كتابه الإعجاز

١- دور الإشارات : النظام ، الجاحظ ، ابن قتيبة ، الواسطي .

٢- دور الرسائل وفيه :

رسالة الرماني .

رسالة الخطابي .

٣- دور الكتب وفيه :

إعجاز القرآن للباقلاني .

إعجاز القرآن لعبد الجبار الهمذاني .

دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ونظرية النظم

الزمخشري وتحليل سورة الكوثر .

الباب الأول

تاريخ الإعجاز

الفصل الأول

جهود الأقدمين

كانت الكتابة في الإعجاز حصيلة جهود متعاونة متعددة ، أسهم فيها علماء اللغة والنحو والبيان والكلام والأصول ، كل هؤلاء وغيرهم بذلوا مشكورين ، وكانت لهم لبنات في بناء صرح الإعجاز الشامخ ، فالخليل بن أحمد ، وسيبويه ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى ، وأبو زكريا يحيى الفراء ، والشافعي ، والأصمعي والجاحظ وابن المعتز وابن قتيبة ، وكثير غيرهم كانت لهم لفتات طيبة ، ولمحات مفيدة ، وشذرات جيدة في إرساء قواعد هذا العلم وتشييد بنيانه ، وتوطيد أركانه

ويمكننا أن نقرر هنا أن الكتابة في إعجاز القرآن مرت بادوار ثلاثة :

الأول : اللمحات والإشارات .

الثاني : مرحلة الرسائل .

الثالث : مرحلة الكتب .

الدور الأول : دور الإشارات :

من أقدم الكتب التي ألفت عن القرآن الكريم ، تلك التي كانت تتحدث عن معاني القرآن ، وبين أيدينا كثير من هذه الكتب ومن أوائلها كتابان اثنان أحدهما مجاز القرآن لأبي عبيدة ، والثاني معاني القرآن للفراء ، ونرجح أن هذين الكتابين كتبا في القرن الثاني للهجرة ؛ لأن مؤلفيهما توفيا في أول القرن الثالث ، وفي هذين الكتابين نجد البذور الأولى التي تحدثت عن اسلوب القرآن ونظمه وبخاصة

الأول منهما ، أعني مجاز القرآن ، فهناك حديث عن التشبيه ، والكناية ، والاشارة، والتأكيد إلى غير ذلك مما كان الأساس الذي بنى عليه العلماء اللاحقون كثيراً من قضايا الإعجاز .

ومن الخير أن نقرر هنا أن قضية الإعجاز لم تقرر تقريراً مباشراً ، في هذين الكتابين ،بل كان فيها اشارات ولمحات لم تذكر فيها كلمة الإعجاز ، وجاء القرن الثالث فوجدنا فيه ظهور هذه الكلمة - أعني لفظة الإعجاز- وكثيراً من الإشارات واللمحات في قضايا الإعجاز .

كانت هذه الإشارات عند النظام المعتزلي ، وتلميذه الجاحظ ، وهما إمامان من أعظم وأشهر أئمة الإعتزال ، كما وجدناها عند إمام من أئمة أهل السنة ، وهو ابن قتيبة .

النظـــــام :

أما النظام فلقد تحدث عن القرآن ، من حيث هو دليل على صدق النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكنه يدلّ على صدق النبوة من حيث أخبار الغيب التي تضمنها ، لا من حيث نظمه وأسلوبه ودقة ألفاظه وجودة معانيه ، وهذا ما جعل العلماء يردون عليه فيما بعد .

ولقد عرف ما ذهب إليه النظام فيما بعد بالقول بالصرفة ، ومعناها أن الله صرف العرب عن أن يأتوا بمثل القرآن ، وان كان ذلك مقدوراً لهم ، لأنهم كانوا بلغاء بطبيعتهم ، فصحاء بسليقتهم ، فالنظام يرى أن القرآن دليل على النبوة ، لأنه من عند الله ،لكن وجه الدلالة ما فيه من أخبار الغيب ، كقوله تعالى { بسم الله الرحمن الرحيم ألم غلبت الروم } [الروم : ١] وقوله { وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم } [الأنفال : ٧] وقوله { وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا

الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم } [النور : ٥٥] .

وليس غرضنا الآن أن نناقش القول بالصرفة ، ولكن الذي نقرره هنا أن القول بالصرفة كان بعيداً عن البيئة الإسلامية قبل النظام ، وإن كان قد عرف من قبل عند بعض الأمم الشرقية كالهنود ، مما يجعلنا نرجح مطمئنين أن القول بالصرفة كان محاكاة لأولئك ؛ ولذا لم يعرف قبل النظام .

وبعض الكاتبين المحدثين يحاول أن يعتذر عن النظام ، مفسراً الصرفة بغير التفسير الذي أشتهر عند العلماء ، فهو يرى أن الصرفة التي قال بها النظام لا تعني قدرة العرب على الإتيان بالقرآن ، وإنما تعني إنصرافهم عن ذلك حينما نظروا في القرآن ، ونظروا في أنفسهم وامكاناتهم ، فوجدوا أنهم لا يمكنهم معارضته ، فانصرفوا عن ذلك ، فهو انصراف لا صرفة [(١)] .

ومع تقديرنا لهذا التعليل ، وما بذله الكاتب في إثباته ، إلا أننا لا نوافقه عليه ، ذلك لأن الجاحظ نفسه، وهو من تلاميذ النظام الذين كانوا يجلونه كل الإجلال ، قد ردّ عليه في كتابه نظم القرآن ، والجاحظ أقدر على فهم أستاذه ممن جاءوا بعده .

ومهما يكن من أمر فلقد كان للنظام كلمات في الإعجاز ، بقطع النظر عن الوجه المعجز للكتاب الكريم .

الجاحظ :-

لا يكاد يخلو كتاب من كتب الجاحظ على كثرتها من حديث عن القرآن الكريم ، فتارة يحدثنا عن صحة أخباره ، وتارة عن جودة سبكه وبديع نظمه ،

(١) انظر إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة / د. منير سلطان .

وثالثة عن قوة حججه ، وأخرى عن دحض الشبهات التي يوجهها الملاحدة والحاقدون، وهو مع ذلك كله شديد الإعجاب بالعربية ، لغة القرآن ، قويّ العارضة في ملاحقة الشعوبيين ، والجاحظ في ذلك كله إمام لسن ، يصدر عن سعةٍ في الإطلاع ، بتفكير سويّ ، وغوص عن المعاني ؛ ولذلك كله لابد أن تكون هناك إشارات وشذرات يعرض فيها لقضية الإعجاز ، ولكن هذه الشذرات مبثوثة في ثنايا كتبه ، فقد حدثنا عن حجج القرآن ، وحجج النبوة ، كما حدثنا عن الرد على النصارى وغيرهم ، في رسائله الكثيرة المتعددة .

أما عن بلاغة القرآن ونظمه ، فنجد ذلك في كتبه البيان والتبيين ، وكتاب الحيوان ، ويذكر أنه قد ألف كتاباً في نظم القرآن ، تحدث فيه عن مفردات القرآن ، وبعض أساليب البيان التي اصطلح عليها فيما بعد بعلم البلاغة ، و هذا الكتاب قد حرمنا منه ولم تسعد به المكتبة الإسلامية . وكل ما وصلنا منه شذرات وبعض عبارات ، ذكرها هو في كتبه المتفرقة .

ونستطيع أن نلخص نظرية الإعجاز عند الجاحظ بما يلي :-

(١) القرآن بليغ من حيث ألفاظه المختارة المنتقاه ، ومن حيث نظمه ورصفه ، التي تقوم على إبداع في الإيجاز والتشبيه والمجاز .

(٢) القران معجز من حيث الصرفة ، ولكنها تختلف كثيراً عن تلك التي ذكرها أستاذه النظام من قبل ؛ ولذا فهو يرد عليه في كتابه نظم القرآن ، فأساس نظرية الإعجاز ، وعمود القول فيه بلاغته أولاً ، أما القول بالصرفة فانما تأتي في المرتبة الثانية ، فهو دليل يضاف إلى دليل عجز العرب عن محاكاة القرآن في أسلوبه ونظمه.

لقد وضع الجاحظ بحقٍ بذوراً لنظرية الإعجاز التي تطورت فيما بعد ، وإن كانت هذه البذور جاءت موزعة في مواضع من كتبه ومؤلفاته .

ابن قتيبة :

وابن قتيبة إمام من أئمة أهل السنة ، عرض في كتبه لكثير من أساليب القرآن ، كما ردّ على الملاحدة والشعوبيين ، ومن كتبه الخاصة بالقرآن الكريم " تأويل مشكل القرآن " و " غريب القرآن " ونجده يتحدث عن التشبيه والاستعارة والمجاز كما يتحدث عن قضيتي التكرار والزيادة ، ويظهر على كتبه الطابع اللغوي، كما تظهر فيها بعض الإشارات البيانية ، وبخاصة وهو يرد على اللغويين الذين أنكروا المجاز ، وعلى المعتزلة الذي أفرطوا في التأويل ، وليس له بحث مستقل في إعجاز القرآن .

الواسطي :

يجمع المؤلفون على أن الواسطي ألف كتاباً في إعجاز القرآن ، ويقال إن عبد القاهر - رحمه الله - قد وضع لهذا الكتاب شرحين ، ولكن مع كل أسف لم يصلنا الكتاب ، كما لم يصلنا شيء مما وضعه عبد القاهر من شروح ، ولذلك فنحن لا نملك الحديث عنه ، بل ربما كان في النفس شيء مما نسب لعبد القاهر من وضع شرحين لهذا الكتاب وقد وصلنا كتابان في الإعجاز لعبد القاهر هما دلائل الإعجاز والرسالة الشافية وليس فيهما اشارة ما لشرح إعجاز الواسطي فكيف اختفى الشرحان معاً ؟

ذلك هو الدور الأول ، والطور المتقدم من الأدوار الثلاثة التي مر بها الإعجاز، والتي أشرنا إليها من قبل ، طور الكلمات والاشارات .

الدور الثاني : دور الرسائل :

أما الطور الثاني فهو طور الرسائل ، ولحسن الحظ فلقد وصلت إلينا رسالتان لإمامين متعاصرين من علماء القرن الرابع ، أحدهما من أئمة أهل السنة ، وهو أبو

سليمان الخطابي ، والآخر من أئمة المعتزلة ، وهو أبو عيسى الرماني وهاتان الرسالتان كانتا الأساس لما كتب في الإعجاز فيما بعد ، وسنتحدث عن هاتين الرسالتين كلٍ على حدة .

النكت في إعجاز القرآن للرماني :-

الإمام علي بن عيسى الرماني أبو الحسن ، إمام من أئمة المعتزلة ، لم تقتصر إمامته على نوع خاص من أنواع المعرفة ، بل كان أحوذياً جمع إلى العلوم العقلية كثيراً من العلوم النقلية ، فهو إمام في النحو واللغة والتفسير ، توفي عام (٣٨٦هـ) .

وما كتبه [١] الرماني [٢] كان إجابة لبعض طلبة العلم - كما يظهر من مقدمته الموجزة- ولقد ألتزم الرماني القول الموجز في هذه الرسالة وهجم على الموضوع دون مقدمات .

وجوه الإعجاز عند الرماني :

بين الرماني أن إعجاز القرآن إنما يظهر من وجوه سبعة [٣] :

---

(١) يرى الأستاذ محمود شاكر أن الكتابات الموجزة التي يطلق عليها الأن كلمة رسالة ، كانت تعرف عند أئمتنا بالأجزاء ، أما الرسالة فهي ما يرسل من موضع إلى موضع كرسالة الشافعي ، فالنكت في إعجاز القرآن حري أن يسمى جزءاً ، وهذا ملحظ مشكور للأستاذ محمود شاكر .

(٢) أبو الحسن علي بن عيسى الرماني ت (٣٨٦ هج)- النكت في إعجاز القرآن - ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز ، تحقيق محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام -دار المعارف بمصر .

(٣) الرسالة ، ص ٧٥ .

١- ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة .

٢- التحدي للكافة .

٣- الصرفة .

٤- البلاغة .

٥- الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة .

٦- نقض العادة .

٧- قياسه بكل معجزة .

وقد أطنب في الحديث عن البلاغة حيث استوعبت أكثر صفحات الرسالة ، أما الوجوه الستة الباقية، فقد كان حديثه عنها مقتضباً موجزاً ، فرسالة الرماني تقع في نحو أربعين صفحة ، أخذت البلاغة منها نحو خمس وثلاثين ، بينما لم تأخذ الوجوه الأخرى إلا أربع صفحات فقط .

شرح موجز لوجوه الإعجاز :

أولاً :أما ترك المعارضة[1] مع توفر الدواعي وشدة الحاجة فمعناه أن العرب تركوا معارضة القرآن مع أن دواعيهم كانت متوفرة ، وكانت حاجتهم لهذه المعارضة شديدة قوية ، بيان ذلك :-

أن العرب كان لهم حظ وافر ونصيب واف من القول ، ولقد كانت البلاغة طبعاً فيهم والفصاحة سليقة لهم ، وأعطوا من ذلك ما لم تعطه أمه من الأمم ، هذا معنى قول الرماني مع توفر الدواعي .

أما شدة الحاجة ، فلأن القرآن سفه أحلامهم وقوض عباداتهم وكثيراً من

(١) الرسالة ، ص ١٠٩ .

عاداتهم ولم يبق لهم منفذاً يخرجون منه ومع ذلك فلم يعارضوه ، ولو أن أنساناً كان شديد العطش والماء قريب منه وهلك دون أن يشرب الماء فما ذلك إلا لعجزه .

ثانياً : وأما التحدي للكافة فلأن القرآن الكريم قد تحداهم في غير موضع ولكنهم جبنوا عن منازلته وقعدوا عن مصاولته ومجاولته .

وهذان الوجهان بعد التحقيق يرجعان إلى بلاغة الكتاب العزيز ، فإن تحديه لهم ، وتركهم امعارضته ، دليل على أنه في أعلى درجات البلاغة .

ثالثاً : وأما الصرفة فمعناها أن هممهم إنصرفت عن معارضة القرآن ، ونلاحظ أن الرماني لا يتفق مع النظام الذي جعل الصرفة وجهاً من وجوه الإعجاز دون البلاغة إنما يتفق مع الجاحظ يقول الرماني " وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز التي تظهر منها للعقول [1] " .

رابعاً : وأما الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة فإنه وجه من وجوه الإعجاز ، لأن ما أخبر عنه وقع وتحقق ، وهذا دليل على أنه من عند علاّم الغيوب، ويذكر الرماني بعض ما جاء في كتاب الله من ذلك " وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم " "لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام " " غلبت الروم في أدنى الأرض " " سيهزم الجمع ويولون الدبر " إلى غير ذلك مما أخبر عنه القرآن الكريم ، وتحققت هذه الأخبار ، ولم يتخلف منها خبر واحد .

خامساً : وأما نقض العادة [2] فيعني به الرماني ، مجيء القرآن على وضع لم يألفه العرب من قبل، فلقد عرف العرب الشعر والرجز والسجع ، والكلام المرسل غير المسجوع ولا المقفى، ولكن الشكل الذي جاء عليه القرآن يختلف عن ذلك كله.

---

(١) الرسالة ، ص ١١٠ .

(٢) الرسالة ، ص ١١٠ .

نقض العادة -إذن- قضية تتعلق بالشكل والقالب ، فمعاني القرآن وضعت في قوالب من اللفظ والنظم ، لم يألفها العرب ولم يعرفوها من قبل لأنها ليست شعراً ولا نثراً ، وهذا يرجع إلى بلاغة القرآن أيضاً كالوجهين الأولين .

سادساً: وأما قياسه بكل معجزة [1] فيشير به الرماني إلى أن معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كفلق البحر ، وقلب العصا حية ، وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، كانت من الأمور الخارقة للعادة المعجزة للناس وكذلك شأن القرآن الكريم .

هذه الأوجه الستة كما يراها الرماني .

سابعاً : أما الوجه السابع وهو الحديث عن البلاغة ، فقد أفاض الحديث فيه - رحمه الله- ، فذكر أن الكلام البديع تختلف مراتبه ، فمنه ما هو في أعلى طبقة وهو القرآن الكريم ، ومنه ما يكون في الطبقة الوسطى وهو كلام البلغاء شعراً ونثراً ومنه دون ذلك .

ويعرف البلاغة بأنها وصول المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ .

ثم ذكر أقسام البلاغة ، وهي عنده عشرة أقسام : الإيجاز ، و التشبيه ، والاستعارة ، و التلاؤم ، والفواصل ، و التجانس ، و التصريف ، والتضمين ، والمبالغة ، والبيان .

وما ذكره الرماني من أقسام البلاغة كان الأساس الذي اعتمد عليه علماء البلاغة فيما بعد .

---

(١) الرسالة ، ١١٠ .

ثانياً : بيان إعجاز القرآن للخطابي [1] :

أولاً : بدأ الخطابي رسالته (بيان إعجاز القرآن) بإثبات عجز العرب عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، وبين أن تلك قضية من مسلمات التاريخ ، فالقرآن تحدى العرب أن يأتوا بسورة من مثله وهم أهل الفصاحة والبلاغة ، وأصحاب الرياسة في الكلام والقول ، وأصحاب القصائد والخطب ، ولكنهم تركوا ذلك كله وهو الأيسر لهم والأسهل عليهم ، وعمدوا إلى ما هو أشق وأصعب عليهم ، وهو المنازلة والمحاربة ، فلقد تركوا رصف الحروف إلى مقارعة السيوف ، وليس ذلك إلا لعجزهم وقصور قرائحهم ، فما مثلهم إلا كمثل من كان شديد الظمأ والماء بجانبه ، ولكنه هلك من شدة العطش ، ومن هذا حاله لا يكون كذلك إلا لعدم قدرته على تناول الماء .

تلك هي القضية الأولى التي عرض لها الخطابي [2] .

ثانياً : وجوه إعجاز القرآن :

أما القضية الثانية التي عرض لها ، فهي بيان وجه إعجاز القرآن ، فلقد أشار إلى الوجوه التي كانت مشتهرة في زمنه ، وعلق على كل بما يناسبه ويلائمه [3] .

---

(١) حمد بن محمد بن إبراهيم البستي الخطابي أبو سليمان ، ولد عام ٣١٩ هـ وتوفي عام ٣٨٨ هـ ، فقيه محدث ، له مؤلفات كثيرة منها معالم السنن ، وبيان إعجاز القرآن ، واصلاح خطأ المحدثين .

(٢) الخطابي - بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٢١ ، تحقيق : محمد خلف الله ، ومحمد زغلول سلام - دار المعرفة بمصر ، الطبعة الثانية - ١٣٨٧ هـ .

(٣) الخطابي - ثلاث رسائل ص ٢٢ .

١- ومن هذه الأوجه القول بالصرفة : لقد عرض الخطابي لهذا القول ، وناقش القائلين به ، ومن أدلتهم التي ذكرها الخطابي : أن عجز العرب عن القرآن شبيه بقوم قال لهم نبيهم : معجزتي على صدق دعواي أن تعجزوا عن تحريك أيديكم ورؤوسكم وأنتم أصحاء ، وحاول القوم عبثاً أن يستطيعوا ذلك ، فهؤلاء قوم أصحاء سلبوا القدرة على تحريك جوارحهم ، وكذلك العرب سلبوا القدرة على أن يأتوا بمثل القرآن .

ويرد الخطابي هذا القول قائلاً : " إن كل ما يفيده هذا الدليل الذي جاءوا به أنه يدل على صدق قائله ، ولكن شتان بين هذا وبين القرآن الكريم ، كيف والله يقول { قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا} [الاسراء : ٨٨] .وهذه الآية الكريمة تثبت أن القوم قد أرخي لهم العنان ، ووسع عليهم في المعارضة ، ومنحوا القدرة على التعاون فيما بينهم ، فشتان بينهم وبين من سلبوا القدرة على الحركة في حال صحتهم وسلامتهم.

٢- الإخبار بالغيب : وبعد أن ردّ الخطابي كون القول بالصرفة وجهاً من وجوه إعجاز القرآن عرض لقول آخر ، وهو أن القرآن معجز بما فيه من أخبار الغيب، وهذا الوجه وإن كان صحيحاً يدل على صدق النبي - صلى الله عليه وسلم- فإنه ليس عاماً في القرآن كله ، لأن أخبار الغيب إنما توجد في بعض سور القرآن الكريم ، والقرآن حينما تحداهم ، تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله ، سواء كانت تلك السورة مشتملة على أنباء الغيب أم لم تكن كذلك ، وعلى هذا لا يصلح هذا الوجه أن يكون عاماً ، ولا بد للباحث عن الإعجاز من وجه عام ينتظم القرآن

الكريم كله[1] .

٣- وهناك وجه ثالث عرض له الخطابي ، وهو أن القرآن معجز ببلاغته ولكن أصحاب هذا القول لم يحددوا معالم هذه البلاغة ولم يضعوا لها قواعدها وضابطها ، بل اكتفوا بالقول إننا حينما نسمع القرآن نحس في أنفسنا أن له بلاغة لا توجد في غيره . وكثير من الناس يتذوق الكلام فيميز بين البليغ والأبلغ ، ويستدلون لذلك بما كان من ذي الرمة حين نحله جرير بعض أبيات ضمنها قصيدته ، فلما سمعها الفرزدق أنكرها عليه وقال له : مضيفها أشد لحيين منك .

وإذن فأصحاب هذا القول يرجعون البلاغة إلى الذوق وحده ، دون أن تكون له قواعد وضوابط وأسس ، والخطابي يرد هذا القول كذلك ، فالذوق وإن كان له شأنه وخطره ، فإنه لا يصلح وحده لنبني عليه قضية الإعجاز ، بل ما هو أقل منها شأناً والحق أن الخطابي كان يصدر عن بصيرة ومعرفة وذوق ، ذلك أن الذوق وحده ليس الناس فيه سواء ، ولذا فلا بد من قواعد للنقد ، يرجع إليها العلماء فيما يقبلون أو يرفضون[2] .

ثالثاً : الوجه المختار في إعجاز القرآن :-

ولكن إذا كانت هذه الأوجه جميعها قد ردها الخطابي ، فما هو القول عنده في إعجاز القرآن ، تلكم هي القضية الثالثة في رسالته ، يرى الخطابي أن ما للقرآن من أثر وبهجة ورونق ، ومن عذوبة يجدها السامع في حسه ، وتهش لها نفسه ، فيكون له من الصنيع فيها ما لا يوجد لغيره من الكلام ، لابد له من سبب

---

(١) الخطابي : ثلاث رسائل ، ص ٢٣ .

(٢) الخطابي : ثلاث رسائل ، ص ٢٤ .

يبحث عنه الباحثون ، وعلة امتاز بها القرآن عن غيره ، يقول الخطابي : بأنه استقرى جميع الأوصاف والأسباب الخارجة عن القرآن ، فلم يجد سبباً صالحاً من أجله تبوأ القرآن هذه الرتبة العليا ، لذا لابد أن يكون السبب كامناً في القرآن نفسه ، مستمداً منه وهو يرجع إلى أجناس الكلام ، وأجناس الكلام - كما يراها الخطابي - لا تخرج عن واحد من ثلاثة [1] :-

١- البليغ الرصين الجزل .

٢- الفصيح القريب السهل .

٣- الجائز الطلق الرسل .

فالمخاطبون ليسوا سواء ، فمنهم الحضري الذي هذب لسانه ، ومنهم سكان البادية الذين أكسبتهم البداوة قوة ورصانة ، وإذا كان المخاطبون كذلك ، فإن الموضوعات التي يقصد إليها المتكلم ليست سواء كذلك ، فالحديث عن الوصف والنسيب يختلف عن الحديث عن الهجاء ، وهذا يختلف عن الفخر ، وأسلوب الرثاء يختلف عن أسلوب الهجاء ، كما أن أسلوب التقريع والتبكيت يختلف عن أسلوب التحبب والمؤانسة ، وأسلوب التخويف يختلف عن أسلوب الترجي ، لذلك لابد أن يوضع كل أسلوب في القالب الذي يناسبه ويلائمه .

وعلى هذا فأسلوب التقريع لابد له من كلمات قوية ، كأنما هي الرعد القاصف، كلمات تقرع القلوب ، وترتجف لها النفوس ، وترتج من سماعها الأفئدة.

أما أسلوب التأنيس والإطماع ، فلا بد له من الكلمات الرقيقة التي تتدفق علوية وحيوية وهناك مرتبة وسط بين هاتين ، فالنوع الأول هو البليغ الرصين الجزل

---

(١) الخطابي : ثلاث رسائل ، ص ٢٦ .

كما يسميه الخطابي ، والجزالة هي القوة ، وأصله من قولهم " حطب جزل " إذا كان قوياً لا تأكله النار بسهولة ويسر ، والنوع الثاني هو الفصيح القريب السهل -كما سماه الخطابي- والنوع الثالث هو الجائز الطلق الرسل ، وهو وسط بين القسمين ، ولما كانت الفخامة ناشئة عن القوة ، وكانت العذوبة ناشئة عن السهولة كانا كالمتضادين ، لأن الفخم القوي لا يتفق مع السهل السلس ، وما أشبههما برجلين أحدهما شديد صُلب ، قوي العريكة ، والآخر سهل موطأ الأكناف [(١)] .

وبلاغة القرآن - كما يقول الخطابي [(٢)] - اشتملت على هذه الأنواع الثلاثة، وهذا صحيح فأنت حينما تقرأ في كتاب الله وهو يحدثك عن يوم القيامة ، وعما يكون للمكذبين ، فإنك تجد الكلمات الجزلة القوية ، ونمثل لك بسورة الحاقة ، وحينما تقرأ ما أعد للمؤمنين تجد الكلمات السلسة العذبة ، استمع إلى سورة الإنسان ، وفيما بين هذا وذاك تجد الوسط .

وربما تقرأ الآيات من كتاب الله تعالى فتجدها اشتملت على الأجناس الثلاثة معاً ، وليس بعض هذه الثلاثة أبلغ من بعض ، بل إن كل واحد في مكانه وسياقه هو آية الحسن ، هذا ما يفهم من كلام الخطابي .

ويبين الخطابي الأصل الذي من أجله تعذر على العرب أن يأتوا بمثل القرآن ، وهو أنهم لم يحيطوا بجميع ألفاظ اللغة ، مفردات وتراكيب هذا أولاً .

أما ثانياً : فإن أفهامهم لا تدرك جميع المعاني التي تحمل عليها تلك الألفاظ.

وأما ثالثاً : فليس لهم معرفة تامة بجميع أنواع النظم ، وهو أي النظم

---

(١) كناية عن يسر معاملته .

(٢) الخطابي : ثلاث رسائل ، ص ٢٧ .

-ترتيب الكلمات في الوضع بحيث تكون كل لفظة في محلها اللائق لها الخاص بها- ، وهذه الأمور الثلاثة - أعني اللفظ والمعنى والنظم - هي التي يقوم بها الكلام ، ويصير بها مستأهلاً للبحث حقيقاً بالعناية ، هكذا يرى الخطابي أن الكلام لابد له من عناصر ثلاثة :-

١- لفظ حامل .

٢- معنى به قائم .

٣- رباط لهما ناظم .

الكلام عند الخطابي إذن ، ليس لفظاً ومعنى فحسب ، وإنما لابد لهما من نظم.

وبهذا يكون الخطابي من أوائل الذين أشاروا وألمحوا إلى قضية النظم بمعناها الدقيق، وهو يرد بذلك على أنصار اللفظ ، وأنصار المعنى معاً ، ويقيننا أن هذا الأصل الذي ذكره الخطابي قد بنى عليه من جاء بعده كالقاضي عبد الجبار ، وعبد القاهر .

رابعاً : يبين الخطابي أن عمود البلاغة وأساسها أن يوضع للمعنى اللفظ الخاص به ، الذي يدل عليه دلالة تامة ، لذا وجدناه يفرق بين الكلمات التي يظن كثير من الناس أنها سواء كالحمد والشكر والعلم والمعرفة ، وقعد وجلس وغيرها .

خامساً : يرد الخطابي بعض الشبهات ويجيب عن بعض الاعتراضات التي وجهت إلى ألفاظ القرآن ونظمه ، ومن هذه الاعتراضات أن ألفاظ القرآن الكريم ليست أفصح الألفاظ ، فإن هناك ألفاظاً ردها أهل المعرفة باللغة ، ومن ذلك قوله تعالى «فأكله الذئب» [يوسف : ١٧] ، فكلمة أكل كما يقولون ليست فصيحة والأفصح أن يقال افترس ، لأن الافتراس خاص بالسباع والأكل عام فيها وفي غيرها .

ويرد الخطابي هذا القول ، فيبين أن الفرس أصله دق العنق ، ومعناه القتل فحسب ، أما الأكل فهو الإتيان على جميع أجزاء الفريسة وأعضائها ، ولو أن إخوة

يوسف قالوا لأبيهم افترسه ، لطالبهم ببقية أجزائه .

سادساً : يتوسع الخطابي بذكر المعارضات ، ويذكر أن ما روي من معارضات للقرآن كما كان من مسيلمة الكذاب، لا تصلح ، لأن للمعارضة شروطها وأسسها كما يعرفها علماء اللغة .

سابعاً : ويذكر الخطابي وجهاً آخر من وجوه إعجاز القرآن غفل عنه كثير من الناس ولا يكاد يعرفه إلا الشاذ منهم ، وذلك هو صنيعه في القلوب وتأثيره في النفوس، وهو ما عرف بعد بالإعجاز الروحي ، وأطلق عليه بعضهم الإعجاز النفسي .

الدور الثالث : دور الكتب

١- كتاب إعجاز القرآن للباقلاني [1]:

الباقلاني إمام من أئمة المتكلمين ، وشيخ من شيوخ الأشاعرة ، ولقد جمع إلى هذا كثيراً من جوانب المعرفة ، وكتابه يدل بحق على علو كعب الرجل ، ورسوخ قدمه ، وطول باعه ، وسعة اطلاعه ، ففضلاً عن أنه إمام من أئمة علم الكلام ، فهو كذلك إمام من أئمة اللغة أدباً وشعراً وبلاغة ونقداً .

كتب الباقلاني إعجاز القرآن ، وغيره من الكتب الكثيرة ، مدافعاً عن حرمة الدين ، ذابا عن الكتاب والسنة ، راداً كل ما يجده مما يلقيه خصوم الإسلام من شبهات ومما يوحون به من شكوك ، ومما ينفثونه من ترهات وأباطيل ، ومن كتبه ذات الشأن والقيمة غير كتاب إعجاز القرآن ، التمهيد ، والانتصار ، ولقد كان الرجل مع سعة علمه لسناً ، قوي العارضة في الحجاج ، يدل على ذلك سيرته مع

---

(١) محمد بن الطيب بن محمد ، أبو بكر ، قاض من كبار علماء الكلام ، انتهت إليه الرياسة في مذهب الأشاعرة ، ولد عام ٣٣٨ هـ وتوفي عام ٤٠٣ هـ .

خصومه .

ولن نعدو الحقيقة إذا قلنا إنه لم يشتهر كتاب في الإعجاز كإعجاز القرآن للباقلاني ، فلقد ظل هذا الكتاب على مدى القرون السالفة المرجع الوحيد لهذه المادة، بل إن كثيراً من المختصين بالدراسات القرآنية لم يعرفوا غير هذا الكتاب .

اشتمل كتاب الباقلاني على موضوعات متعددة ، بعضها جوهري في قضية الإعجاز وذلك كوجوه إعجاز القرآن ، وكونه معجزة النبي -صلى الله عليه وسلم- والتحدي به ، وبعضها بعيد عن قضية الإعجاز لا يتصل بها إلا من سبب بعيد كحديثه عن نقد الشعر وتحليله لكثير من القصائد الشعرية [(١)] ، وموازنته بين أسلوب القرآن الكريم ، وبعض خطب للنبي -صلى الله عليه وسلم- وللصحابة ولغيرهم رضوان الله عليهم .

وبعضها وسط بين هذا وذاك يتصل بموضوع الإعجاز ، وذلك كحديثه عن السجع ونفيه من كتاب الله تبارك وتعالى ، كما أن حديثه عن الإعجاز نجده تارة ذا طابع أدبي بياني ، وتارة أخرى ذا صبغة كلامية تتصل بنظريات المتكلمين وأساليبهم .

وجوه إعجاز القرآن عند الباقلاني :-

يذكر الباقلاني بأن وجوه الإعجاز كما قال به أصحابه - يعني الأشاعرة - تظهر من جهات ثلاث :-

١- أخبار الغيب التي أخبر عنها القرآن قبل أن تحدث .

---

(١) كمعلقة امرئ القيس ، وقصيدة البحتري : أهلاً بذلكم الخيال المقبل " .

٢- الأخبار عن الأمم الماضية مع أمية الرسول -صلى الله عليه وسلم - .

٣- نظمه البديع [١] .

ويفصل الباقلاني فيما بعد هذه الوجوه ، فالإخبار بالغيب جاء في آيات كثيرة ومواضع متعددة .

وأما أنباء الأمم السابقة ، مع أمية النبي -صلى الله عليه وسلم - فإنه يدل على الإعجاز ، لأن هذه الأخبار الصادقة لا تكون إلا ممن عرف التاريخ واستوعب أنباء الأمم ، والنبي -صلى الله عليه وسلم - باتفاق لم يكن شأنه كذلك .

و الباقلاني كان أكثر تفصيلاً في الوجه الثالث ، بل إن كتابه يكاد يكون مبنياً على هذا الوجه ، وهو كون القرآن بديع النظم عجيب التأليف ، متناه في البلاغة ، ولقد ذكر معاني عشرة يشرح بها هذا الوجه .

* فأولها : ما يرجع إلى جملة القرآن بيان ذلك إن كلام العرب يدور بين الشعر والرجز والسجع والنثر المرسل ،و بين كلام " موزون مقفى " وكلام موزون غير مقفى " وكلام غير موزون ، وحينما تنظر في القرآن الكريم ، نجده جاء علي طريقة مغايرة لكل ما عرفه القوم ، والباقلاني يعني بهذا الشكل والقالب ، فالقالب الذي صبت فيه معاني القرآن ، والشكل الذي ركبت فيه كلماته ، وجه من وجوه الإعجاز ، وهذا ما عبر عنه الرماني من قبل بنقض العادة ، ولذا كانت النتائج التي توصل إليها الرجلان نتائج واحدة ، فكل منهما ينكر السجع في كتاب الله ، لأن السجع مما عرفته العرب ، ولذا عقد الباقلاني فصلاً لنفي السجع ، وآخر لنفي الشعر عن كتاب الله تعالى .

---

(١) إعجاز القرآن ، ص ١٣ .

* ثانياً : إنه ليس للعرب كلام مشتمل على مثل هذه الفصاحة والبراعة ، وهذا المعنى يرجع إلى القضية البلاغية في القرآن من حيث أسلوبه وألفاظه وكونه نسقاً واحداً. فالباقلاني يرى أن القرآن نسق واحد في البلاغة ، ليس بين آياته تفاوت واختلاف ، وهذا هو ما ذهب إليه أكثر العلماء ، فالقرآن على طوله متساوٍ في الفصاحة والبلاغة ، وهذا ما لا نجده في كلام الفصحاء والبلغاء ، فإذا أخذنا ديوان شعر لأكثر الشعراء إتقاناً ، فسوف نجد قصائده متفاوته من حيث بلاغتها ، فقد يجود الشاعر في قصيدتين أو ثلاث ، وكذلك إذا أخذنا القصيدة الواحدة فلن نجد أبياتها سواء ، وإنما نجد بيتاً أو أثنين أو ثلاثة هي في القصيدة واسطة عقدها ودرة حلقتها ، وقل ذلك في النثر ، لكن القرآن أوله وآخره سواء في بديع النظم وعلو الأسلوب .

* ثالثاً : عجيب نظمه لا يتفاوت ولا يتباين : موضوعات القرآن جميعها على ما بينها من اختلاف لا نستطيع القول إن بعضها أفصح من بعض ، فكما أن آيات القرآن لا تتفاوت فكذلك موضوعاته ، وهذا أمر لم يعرفه العرب ، فالشاعر لا يستطيع أن يجود في موضوعات متعددة ، قد يجود أحدهم في المدح وآخر في الهجاء وثالث في الفخر كما رأينا ذلك عند الفرزدق وجرير ، وقد يجود شاعر في الهجاء وآخر في الغزل والنسيب ، وثالث في الحكمة وقد يجود أحدهم إذا خاف ورهب ، وآخر إذا انتشى وطرب ، وثالث إذا أعْطِيَ ورغب ، ومن هنا قالوا أشعر الناس أمرؤ القيس إذا ركب ، والنابغة إذا رهب ، وزهير إذا رغب .

والقرآن الكريم ليس كذلك فرغم كثرة موضوعاته فهي في رفعة شأنها سواء من جهة ، ومن جهة أخرى فرغم الأحوال المتعددة التي كان عليها سيدنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم - وهو ينزل عليه الوحي ، فإن ذلك لم يغير من أسلوب القرآن شيئاً .

وهذا الوجه الثالث يختلف بالطبع عن سابقه ، فقوام هذا الوجه أن القرآن الكريم على تعدد موضوعاته إلا أنه في أعلى درجات البلاغة ، والذي عرف عن الشعراء والكتاب غير ذلك ، فكما أن الشعراء يجود كل في موضوع ، فإن الذين يتعاطون النثر كذلك يجود أحدهم في الخطبة وثان في القصة وثالث في المقال ، أما الوجه الثاني فقوامه أن القرآن على طوله هو في الصنعة البلاغية سواء ، ولا كذلك الشعر والنثر .

الرابع : كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتاً بيناً في الفصل والوصل والعلو والنزول، أما القرآن الكريم فمع كثرة موضوعاته التي هي نسق واحد فإن هناك وجه آخر يدل على إعجازه وهو ما فيه من جودة وإحكام الرصف ،ذلك أن أي بليغ حين يتكلم في موضوع ويريد الإنتقال إلى غيره نشعر أن هناك عجزاً في الإنتقال فمن تكلم في الشعر عن الغزل مثلاً يصعب عليه الإنتقال إلي المدح ، وقليل هم الذين لا يشعروننا بالنقلة والتكلف ، ولهذا عيب على البحتري مع جودة شعره - ورقة طبعه- عدم تجويده في الإنتقال من النسيب إلى المديح .

ولكن القرآن يجمع بين المختلف فيجعله مؤتلفاً وينقلنا من الموضوع الواحد إلى الآخر دون الشعور بهذا الإنتقال ، خذ سورة العلق فإنه لا يخطر في بالك عند قراءتها أنها نزلت مفرقة وذلك لما تجده بين آياتها من إحكام السبك وجودة الرصف والربط ، مع أن الآيات الخمس الأولى هي التي نزلت أولاً ، ونزل القسم الآخر بعد سنين ، كذلك سورة البقرة التي نزلت في عشر سنين ومع ذلك نجدها من أول آية إلى آخر آية مترابطة متناسقة .

الخامس : أن نظم القرآن وقع موقعاً من البلاغة يخرج عن عادة الجن ، فهم يعجزون عن الإتيان بمثله كعجزنا { قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل

هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً } [الإسراء : ٨٨] (١)

السادس : كلام العرب فيه من فنون القول والاطناب والاستعارة والتشبيه وغيرها من الأساليب المتعددة كالتبكيت والوعظ والوعد والوعيد ، وحينما ننظر في القرآن نجد فيه هذه الأساليب ، لكن على وجه لم يستطعه العرب ، فالقرآن تارة يعبر بالإيجاز وتارة بالاطناب ، وتارة بالاستعارة وأخرى بالحقيقة ، ولكن لكل أسلوب ما يناسبه ويتلاءم معه .

السابع : وهو يتعلق بمعاني القرآن ، فالمعاني التي جاء بها القرآن لا يستطيع أحد من الناس الاتيان بها ، ويعني الباقلاني بالمعاني هنا الموضوعات التي عرض لها القرآن الكريم ، وهي الموضوعات الفكرية سواء كانت تلك الموضوعات تشريعية أم عقدية ، وسواء كانت حجاجاً ورد شبهات أم حديثاً عن مبدأ خلقي وقضية تربوية وهذه المعاني القرآنية مبتكرة لأن كثيراً من موضوعات القرآن كانت بكراً لم تكن مما عرفه الناس من قبل ، لا في الكتب السماوية ولا في نظريات الفلاسفة ، ولا في التشريعات القانونية .

يقول الباقلاني " واختيار اللفظ لمعنى متداول معروف بين الناس أمر سهل ميسر ، لكن الأمر الذي فيه صعوبة ودقة وعسر على كثير من الناس هو اختيار الألفاظ لمعان جديدة غير معروفة ولا مألوفة ، وكذلك كان القرآن الكريم فمعانيه

---

(١) الباقلاني - إعجاز القرآن - ص ٤١ .

جديدة اختيرت لها ألفاظ بارعة [1] .

وهي لفتة من الباقلاني تستحق التقدير ، فاللفظ والمعنى في كتاب الله كلاهما فيه جدة وليس ذلك بمتيسر للكثير من الناس ، فالبراعة في اللفظ من شأن الأدباء ، والجدة في المعنى من شأن رجال التشريع والفلسفة والأخلاق .

* الثامن : الناظر في كلام الناس لا يجده سواء ، فربما وجدنا في الجملة أو الفقرة أو الأبيات من الشعر كلمة رائعة رائقة تتوجه إليها الأنظار والآذان ، وتجتلب الأذهان أكثر من غيرها ، هذه الكلمة إنما هي درة العقد في الجملة أو الفقرة أو القصيدة لكن القرآن الكريم ليس كذلك ، بل كل كلمة منه إذا وضعت مع غيرها تجدها درة عقد وحلاوة شهد .

يقول الباقلاني : لذلك إذا وضعت الكلمة القرآنية في كلام كانت هذه الكلمة منادية على نفسها بالروعة ممتازة على غيرها [2] .

* التاسع : هذه الأحرف المقطعة في فواتح السور التي نجدها في ثمان وعشرين سورة ومجموع هذه الحروف أربعة عشر حرفاً ، وهي نصف الحروف الهجائية ولكن لكل حرف صفات خاصة به ، وصفات الحروف كثيرة ، ذكر علماء التجويد منها سبع عشرة صفة ، فإذا نظرت إلى الحروف المفتتحة بها السور القرآنية وجدت أنها اشتملت على جميع الصفات .

---

(١) الباقلاني / إعجاز القرآن ، ص ٤٢ .

(٢) الباقلاني / إعجاز القرآن ، ص ٤٣ .

خذ الحروف المهموسة مثلاً وهي مجتمعة في قولهم (فحثه شخص سكت) نجد أنه قد ذكر نصف هذه الأحرف في فواتح السور وهي الحاء والسين والصاد والكاف والهاء ، وضد الهمس الجهر وستجد حروفها كذلك ذكرت في فواتح السور ، وكذلك الشدة والرخاوة والذلاقة والقلقلة ، فليست هناك مجموعة ذات صفة واحدة إلا وذكر نصفها في فواتح السور ، فاكتفى بما ذكر عن غيره ، وهذا ترتيب بديع يدل على الإحكام .

* العاشر : أن القرآن مع ماله من بلاغة إلا أنه سهل ميسر ، قريب ليس بالغريب الصعب ، وليس فيه كلام وحشي مستكره ، وليس فيه ما يصعب على النطق أو ما تنفر منه النفس وتمجه ، فالقرآن كله سهل ممتنع ، سبيله ميسر ، وصعبه مفسر ، وهكذا القرآن نقرؤه ولا نشعر أنه بحاجة إلى تفسير .

٢- القاضي عبد الجبار الهمذاني [1] :-

وهو من أئمة المعتزلة بخاصة ، والمسلمين بعامة ، تأثر القاضي بشيوخ الاعتزال وبخاصة الجبائيين أبا علي وأبا هاشم ، وإن لم يتلق عنهما مباشرة ، وهو كثيراً ما ينقل عنهما وعن غيرهما كأبي الهذيل العلاف والذي يهمنا من آثاره الكثيرة القيمة حديثه عن إعجاز القرآن في سفره الضخم " المغنى في أبواب التوحيد والعدل " فأنت حينما تتصفح الجزء السادس عشر من هذا الكتاب ، وهو مجلد يشتمل على مئات الصفحات تجد أن جلّه في الحديث عن الإعجاز .

عرض القاضي عبد الجبار في هذا الجزء لقضايا متعددة ، فقد تحدث عن الخبر وما يتصل به ، ثم تحدث عن الرسالة والرسول ، وعن التواتر الذي ثبت به القرآن .

١- وقد بين لنا المراد من كلمة (الإعجاز) حين قال : ومعنى قولنا في القرآن إنه معجز أنه يتعذر على المتقدمين في الفصاحة فعل مثله في القدر الذي قد اختص به [2] .

٢- ويتحدث عن الفصاحة ، فيبين أن الكلام يكون بجزالة لفظه وحسن معناه ، ولابد من اعتبار هذين الأمرين ، لأنه لو كان جزل اللفظ ركيك المعنى لم يعد فصيحاً ، والفصاحة لا تظهر في الكلمات المفردة ، وإنما بضم هذه الكلمات بعضها إلى بعض ، ويذكر جهات ثلاث لا رابع لها ، تظهر بها فصاحة الكلام :

---

(١) عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمذاني الأسد آبادي ، أبو الحسين ، قاض ، اصولي ، كان شيخ المعتزلة في عصره ويلقب قاضي القاضي ، توفي عام ٤١٥ هـ ، له من الكتب تنزيه القرآن عن المطاعن ، الأماني .

(٢) ص ٢٢٦ .

الجهة الأولى : اختيار الكلمة نفسها .

الجهة الثانية : حركة هذه الكلمة من حيث الإعراب .

الجهة الثالثة : موقع هذه الكلمة تقديماً أو تأخيراً ، وتعريفاً أو تنكيراً ، إلى غير ما هنالك من أساليب (١) .

أما الجهة الأولى : فلأن الكلمة التي تصلح في موضع يمكن أن لا تصلح في موضع آخر ، وأما الجهة الثانية : فلأن إعراب الكلمة يلقي ضوءاً على المعنى المراد منها ، ذلك لأن الإعراب فرع المعنى . وأما الجهة الثالثة ، وهي موقع الكلمة : فلأن هذا الموقع يتغير به المعنى ويتبدل .

ولنمثل لك الآن بعض الأمثلة التي توضح كلام القاضي عبد الجبار :-

قال الله تعالى { بسم الله الرحمن الرحيم ، ألم ذلك الكتاب لا ريبَ فيه } [البقرة : ١] فقوله سبحانه { لا ريب فيه } تظهر فيه الجهات الثلاث التي تحدث عنها القاضي عبد الجبار ، أما الجهة الأولى فهي اختيار كلمة ريب ، دون غيرها من الكلمات كالشك والمرية ، وأما الجهة الثانية فمجيء كلمة ريب مبنية على الفتح ، وهي اسم (لا) النافية للجنس ، ولم تجيء مرفوعة ، فلم يقل « لا ريبٌ فيه » وأما الجهة الثالثة ، فهي تقديم كلمة « ريب » على الجار والمجرور « فيه » ولا شك أن لكل واحدة من هذه الجهات الثلاثة حكمةً بيانية .

فاختيار كلمة « ريب » لأنها تعطي ما لا تعطيه كلمة « شك » ، فإن الشك تردد النفس بين شيئين ، ولكن الريب شك مع تهمة وقلق واضطراب ، ومجيئها مبنية على الفتح يدل على نفي الريب نفياً تاماً ، وقد قرروا أنك إذا قلت « لا رجل في

---

(١) ص ١٩٩ .

البيت » بالبناء على الفتح ، فإنه نفي لوجود جنس الرجال في البيت ، ولذا لا يجوز أن تقول « لا رجل في البيت بل رجلان » ولكنك إذا قلت « لا رجلٌ في البيت » بالضم ، فهو نفي للوحدة ، ولذا يمكنك أن تقول « بل رجلان » .

وأما الجهة الثالثة فلأن تقديم كلمة (ريب) يعطي معنىً غير المعنى الذي تأخر فيه ، فمعنى لا ريب فيه ، نفي الريب عن القرآن دون التعرض لغيره من الكتب ، ولكن لو قال « لا فيه ريب » لكان المعنى إثبات الريب في غيره من الكتب ، ألا ترى إلى قوله سبحانه في وصف خمر الجنة « لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون» في أن المراد ليس نفي الغول عن خمر الجنة فحسب ، وإنما المراد مع ذلك إثباته في خمر الدنيا .

وأرجو أن يكون في هذا المثال توضيح لما قصده القاضي عبد الجبار ، ومنه ندرك أن الفصاحة التي أشار إليها القاضي ، ليست هي الفصاحة التي استقر عليها علماء البلاغة المتأخرون ، وهي التي تكون وصفاً للكلمة أو الكلام ، وذلك بخلوه من العيوب كالغرابة والثقل ومخالفة قواعد اللغة . إنما الفصاحة التي عناها القاضي تشمل في مفهومنا نظم الكلمات بعضها مع بعض ، وهي ملحوظة قيمة وخطوة ذات شأن خطاها في إبراز نظرية النظم .

(٣) ويرى الشيخ أنَّ الإعجاز ليس في نظم الكلام ، وهو يعني بالنظم ورود الكلام على طريقة مخصوصة ، أي القالب الشكلي الذي جاء عليه القرآن الكريم وليس النظم الذي تحدث عنه الخطابي ، والذي سنتحدث عنه عند الجرجاني [(١)]

---

(١) المغنى ج ١٦/١٩٨.

وقد تحدثنا عن هذا من قبل ، فهذا الذي سماه الرماني نقض العادة ، وجعله الباقلاني الوجه الأول من الوجوه العشرة التي ذكرها لبلاغة القرآن ، يقول عبد الجبار أن ذلك ليس وجهاً مستقلاً من وجوه الإعجاز ، لأنه لو كان كل قالب جديد معجزاً ، لكان ينبغي أن يكون أول ما قيل من الشعر معجزاً ، لأنه لم يعرف من قبل .

(٤) ويعرض للقول بالصرفة ، ويذهب إلى أنها لا تصلح أن تكون وجهاً من وجوه الإعجاز وقد أطال الحديث عن هذه القضية ، وأتى على الشبهات التي يمكن أن تعرض في هذا الأمر [(١)] .

(٥) أما الإخبار عن الغيب فيرى الشيخ أنه لا يصلح وجهاً من وجوه الإعجاز ، لأن التحدي كان لسورة من سور القرآن ، وكثير من هذه السور ليس فيها شيء من أنباء الغيب [(٢)] .

(٦) ويقرر القاضي أن القرآن ليس معجزة العرب وحدهم ، وإنما هو معجزة لسائر الناس كذلك ، وإن العجم وإن لم يعرفوا مزايا الفصاحة ، لكنهم عرفوا عجز العرب الذين هم أهل الفصاحة بسليقتهم وهذا كافٍ في إقامة الحجة عليهم [(٣)] .

ومما تقدم ندرك أن القاضي عبد الجبار يتفق مع الخطابي والباقلاني الأشعري في أن الصرفة ليست من وجوه الإعجاز ، وهو بذلك يخالف الرماني المعتزلي ، كما أنه يتفق مع الخطابي في أن الأخبار بالغيب لا يصلح وحده أن يكون وجهاً من وجوه الإعجاز ، وهو بذلك يخالف الرماني المعتزلي والباقلاني الأشعري .

---

(١) المغنى ١٦/ ٢٢٠ .

(٢) المغنى ١٦/ ٢٢٠ .

(٣) المغني ١٦/ ٢٩٤ .

ويخالف الباقلاني والرماني فلا يعد القالب اللفظي وجهاً من وجوه الإعجاز، وهو يتفق في ذلك مع الخطابي ، وإنما ذكرت هذه النتائج لأبين أن قضية الإعجاز ليس فيها اختلاف يذكر بين الأشاعرة والمعتزلة - كما صوره كثير من الكاتبين - وإن كان هناك خلاف فليس في جوهر الأمر ، وإنما هو في بعض القضايا الكلامية ، فالفصاحة التي قال بها القاضي عبد الجبار لا تخرج عن النظم الذي قال به الخطابي وعبد القاهر .

٣- عبد القاهر الجرجاني[1] :-

اقتضت مشيئة الله سبحانه وتعالى أن يختلف النَّاس في مواهبهم وقدرهم ، ففي مختلف العصور نجد من الناس من هيأ الله لهم وسائل الإبداع فهم يسبقون غيرهم ،مما يحمل أبناء عصر كل منهم على الاعتراف لهؤلاء ، ولقد كان عبد القاهر - رحمه الله - من هذه الصفوة الذين برزوا ، فكان ما أنتجه فكره وسطره يراعه إبداعاً ، أعترف له به المنصفون ، وما أبعد الفرق بين الذاكرة الحافظة التي تحفظ أقوال السابقين ، وبين العقلية المبدعة المفكرة التي تفيد من السابقين ، ولكنها تبرز جديداً يكون مثار الإعجاب ، وشغل الباحثين يجدون فيه الجِدّة والابداع .

لعل عبد القاهر كان أقل إنتاجاً من كثير من معاصريه وممن سبقوه ، وممن جاءوا بعده وهذا إذا راعينا الجانب الكمي ، ولكن الجانب الكمي وحده لا يغني كبير غناء في كثير من الأحيان .

كان عبد القاهر - رحمه الله - متكلماً أشعرياً ، وكان إماماً في اللغة والنحو والأدب والبيان والنقد ، وهي معارف يتصل بعضها ببعض ، وكان له نتاج جيد يعنينا منه ما يتصل بإعجاز القرآن الكريم ومن أبرزها الرسالة الشافية ، ودلائل الإعجاز .

أما الرسالة الشافية فهي جزء صغير عرض فيها لبعض القضايا الأولى التي تتصل بالإعجاز ، حيث أثبت عجز العرب عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بسورة منه ، وناقش فيها القائلين بالصرفة ، كل ذلك بأسلوب قوي متين ، وقد أشار إلى

---

(١) عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني ، واضع أصول البلاغة ، كان من أئمة اللغة ، وله شعر من كتبه أسرار البلاغة ، دلائل الإعجاز ، الجمل في النحو ، المغني في شرح الإيضاح ، توفي عام ٤٧١ هـ .

ذلك في مقدمة رسالته ، ولكنه لم يعرض في هذه الرسالة إلى ما يكون به الإعجاز.

أما ما يكون به الإعجاز - كما يراه - فقد أفرد له كتابه دلائل الإعجاز ، وهو الذي ضمنه نظريته في النظم .

نظرية النظم :-

لا بد قبل شرح هذه النظرية من أن نعرفك أن الناس كانوا قبل عبد القاهر وفي عصره فريقين : فريقاً شغف باللفظ ورأى أنه هو الأمر الذي يتفاضل به الكلام، فكان يجهد نفسه في اختيار الكلمات وتنقيتها .

والفريق الآخر رأى أن الفضيلة للمعنى ، وأن الألفاظ هي القوالب التي توضع فيها المعاني .

ويجيء عبد القاهر - رحمه الله - ويقف أمام هذين الفريقين أنصار المعنى وأنصار اللفظ ، وبعد أن هضم كثيراً من أنواع المعارف التي كانت في عصره ، وبخاصة النحو والأدب والبيان ، وما كتب في إعجاز القرآن ، يبرز للناس نتيجة لهذه الدراسات كلها نظريته في النظم .

قيمة الفصاحة :

بدأ عبد القاهر حديثه في كتاب دلائل الإعجاز عن أهمية علم البيان ورفعته ومنزلته بين العلوم ، وعن أهمية الأدب والشعر ، ناعياً على الذين لا يدركون ما لعلم البيان من فوائد ، ولا يقدرون ما يحدثه الشعر من أثر في النفس ، مكتفين بالوقوف عند ظواهر الأمور، ليس عندهم إلا التقليد لمن سبقهم ، ويبين عبد القاهر لهؤلاء أنهم ما داموا على هذه الحال ، فلن يستطيعوا أن يتذوقوا كتاب الله ، ولن يدركوا إعجاز القرآن الكريم إدراكاً يقوم على أسس صحيحة وقواعد ثابتة .

يقول في ذلك كله - أي في بيان أهمية الفصاحة والبيان : " لم أزل منذ خدمت العلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى الفصاحة ، والبلاغة ، والبيان

والبراعة، وفي بيان المغزى من هذه العبارات ، وتفسير المراد بها ، فأجد ذلك كالرمز والإيماء والإشارة في خفاء ، وبعضه كالتنبيه على مكان الخبيء ليطلب ، وموضع الدفين ليبحث عنه فيخرج ، وكما يفتح لك الطريق إلى المطلوب لتسلكه ، وتوضع لك القاعدة لتبني عليها . ووجدت المعول على أن ههنا نظماً وترتيباً وتأليفاً وصياغة وتصويراً ، ونسجاً وتحبيراً ، وأن سبيل هذه المعاني الكلام الذي هي مجاز فيه ، سبيلها في الأشياء التي هي حقيقة فيها " .

" ... وإذا كان هذا هكذا علمت أنه لا يكفي في علم الفصاحة أن تنصب لها قياساً ما ، وأن تصفها وصفاً مجملاً ، وتقول فيها قولاً مرسلاً ، بل لا تكون من معرفتها في شيء حتى تفصّل القول وتحصّل ، وتضع اليد على الخصائص التي تعرض في نظم الكلم وتعدها واحدة واحدة وتسميها شيئاً شيئاً ، وتكون معرفتك معرفة الصنّع الحاذق ، الذي يعلم علم كل خيط من الإبريْسم [1] الذي في الديباج ..

"... وإذا نظرت إلى الفصاحة هذا النظر ، وطلبتها هذا الطلب ، احتجت إلى صبر على التأمل ومواظبة على التدبر ، وإلى همة تأبى لك أن تقنع إلا بالتمام وأن تربع إلا بعد بلوغ الغاية " .

" وجملة ما أردت أن أبينه لك : أنه لابد لكل كلام تستحسنه ولفظ تستجيده ، من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة وعلة معقولة ، وأن يكون لنا إلى العبارة عن ذاك سبيل ، وعلى صحة ما ادعيناه من ذلك دليل . وهو باب من العلم إذا أنت فتحته اطلعت منه على فوائد جليلة ، ومعان شريفة ، ورأيت له أثراً في الدين عظيماً ، وفائدة جسيمة ، ووجدته سبباً إلى حسم كثير من الفساد فيما يعود إلى التنزيل ، وإصلاح أنواع من الخلل فيما يتعلق بالتأويل ... وإنه

---

(١) هو الإبرة .

ليؤمنك من أن تغالط في دعواك ، وتدافع عن مغزاك ، وربما بك أن تستبين هدىً ثم لا تهدى إليه »

وبعد هذا التمهيد في كتاب الدلائل يشرع - رحمه الله - في بيان فكرته وشرح نظريته ، وسأحاول هنا أن ألخص لك هذه النظرية في خلاصة ميسرة ، لكني أريد منك أن توجه إليّ ذهنك وفكرك ، وأن تعمل بنصيحة عبد القاهر التي نقلتها لك آنفاً .

عناصر الكلام :

يرى عبد القاهر - رحمه الله - أن الكلام الذي يؤدى عند المتكلم ، ويكون مقبولاً عند المخاطبين، لابد له من ثلاثة عناصر : اللفظ ، والمعنى والنظم ، أما اللفظ فهو هذه الحروف والكلمات التي تنطق بها ألسنتنا ، وتسطرها أقلامنا . وأما المعنى فهي تلك الأمور التي نجدها في نفوسنا ، ونودّ أن نعبّر عنها ليدركها المخاطبون . وعلى هذا فالألفاظ قوالب للمعاني ، فالمعنى هو المعبّر عنه ، واللفظ هو المعبّر به ، فإذا رأيت زهرة فأعجبك منظرها ، أو تأملت واقع أمتنا فساءك حالها ، أو قرأت تاريخ الدول الإستعمارية قديماً وحديثا ، فاعترت نفسك الدهشة . هذه كلها معانٍ استقرت في نفسك، فهي تفعل في نفسك فعلها ، فتجد لها آثارها المتعددة المختلفة ، وتظل كامنة في نفسك معاني مجردة ، فإذا أردت أن تبثها غيرك من الناس ، وأن تخرجها من داخل جوانحك ، وعميق خفاياك ، وأرجاء نفسك ، إذا أردت أن تخرجها لتسمع بها نفسك وغيرك ، فإنك تنطق بها ألفاظاً مكونة من حروف وكلمات .

هذه هي الصلة بين اللفظ والمعنى كما يجدها كل واحد منا من نفسه . وهذا الذي كان يعرفه الناس في عصر عبد القاهر ومن قبله كذلك ، ومن هنا اختلف الناس بين من يشيد باللفظ ، أو يشيد بالمعنى .

ولكن عبد القاهر – رحمه الله – لم يقف عند هذين العنصرين ، بل رأى أن هناك عنصراً ثالثاً لابد من مراعاته ، ليؤدي الكلام غرضه صحيحاً مقبولاً ، وهذا الذي أبرزه عبد القاهر ، وجدنا من العلماء قبله من يشير إليه وينبه عليه ، كما عرفت من قبل عند الخطابي والقاضي عبد الجبار ، إلا أن عبد القاهر بلغ الغاية بما بيّن وفَصّل .

هذا العنصر الثالث الذي لابد منه هو الذي يسمّى النظم ، فما هو هذا النظم يا تُرى؟

معنى النظم :

يقول عبد القاهر : إن النظم هو توخي معاني النحو ، وبيان ذلك : أننا حينما ننطق بالكلمات والجمل ، فلابد من أن تكون مرتبة ترتيباً مقبولاً معقولاً .

الكلمة كما نعلم : اسم وفعل وحرف ، ولابد من ترتيب صحيح بين هذه الأجزاء ، فلا يمكن أن يكون الترتيب بين حرف وحرف ، لا يمكن أن نقول مثلاً (إن من) ، فإن (إن) كما نعلم حرف شرط و (من) حرف جر ، ولا نستطيع أن نقول كذلك (هل بل) فإن ذلك ليس له معنى ، كذلك لا يجوز الترتيب بين الفعلين ، فلا نستطيع أن نكون جملة من قولنا (أخذ مشى) ، لأن مثل هذه لا تكون جملة مفيدة ، وهي مرفوضة كما بينته قواعد النحو .

الترتيب لابد إذن أن يكون بين اسمين كقولنا (الوحدة قوة) ، أو بين اسم وفعل مثل (ربح المجاهدون) أو يكون هناك حرف يربط بين الأسماء والأفعال ، كما نقول (نصلي في الأقصى) ، (نبيع لله أرواحنا) .

هذه اللبنة الأولى في النظم ، وهو أن يكون موافقاً لقواعد النحو ، أما اللبنة الثانية وهي الأهم من سابقتها ، فهي أن يكون هذا النظم دقيقاً ، بحيث ترتب المعاني التي تريدها في نفسك أولاً ، ثم تختار لها بعد ذلك الألفاظ التي تتفق مع هذه المعاني ، وهذا ملحظ دقيق يحتاج منك إلى حضور نفس ، وحضور فكر ،

وجدية ويقظة ، والله المستعان ، اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً ، وأنت تجعل الحزن سهلاً إذا شئت .

كثيرة تلك المعاني التي نجدها في نفوسنا ، ونجد أنفسنا مضطرين أن نعبر عنها بألفاظ يفهمها المخاطبون ، قد يسألك أستاذك عن حفظ سورة البقرة وسورة آل عمران ، وهما الزهراوان كما جاء في حديث سيدنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، فبماذا تجيبه يا ترى إذا كنت لم تحفظ إلا سورة البقرة ؟ يمكنك أن تقول "حفظت سورة البقرة " ويمكنك أن تقول " سورة البقرة حفظت " .

وقد يسألك سائل آخر " هل حفظت سورة البقرة ؟ " يمكنك أن تجيبه كذلك بالجملتين السابقتين : (حفظت سورة البقرة) ، (سورة البقرة حفظت) ، ولكن أمعنى ذلك أن الجملتين سواء ؟ .

قبل الإجابة عن هذا السؤال لابد أن ننظر إلى المعنيين في أنفسنا ، أهما سواء أم بينهما اختلاف؟ ، وسنجد أن المعنيين مختلفان ؛ لأن السؤال الأول كان عن حفظ السورتين معاً ، والذي قررته في نفسي أنني لم أحفظ إلا سورة البقرة ، وهذا الذي أريد أن أتلفظ به ، أما السؤال الثاني : فهو هل حفظت سورة البقرة ؟ ، والجواب أنني حفظتها ، وهذا الذي أريد أن أخبر به السائل .

إذن هناك اختلاف بين المعنيين في نفسي ، وإذا كان هناك اختلاف بين المعنيين ، فلا بد أن ينتج عنه اختلاف بين اللفظين ، وعلى هذا فالإجابة الصحيحة عن السؤال الأول " سورةَ البقرة حفظت " وعن السؤال الثاني " حفظتُ سورةَ البقرة ".

نحن نرى أن اللفظ واحد في كلتا الجملتين ، لكن الذي اختلف النظم ، أعني ترتيب الكلمات ، قلنا في الجواب الأول (سورةَ البقرة حفظت) فقدمنا المفعول على الفعل ، فإن هذا التقديم يفيد القصر والاختصاص ، ومعنى هذا أنني لم أحفظ إلا هذه السورة ، فلم أحفظ سورة آل عمران ، أما الجملة الثانية (حفظت

سورة البقرة) ؛ فإن هذا هو الذي يتسق مع السؤال ، ولا يدل على أنني لم أحفظ غير هذه السورة .

وهكذا ندرك أنه إذا اختلف المعنى الذي نريد أن نعبر عنه ، فلابد أن يختلف اللفظ الذي نريد أن نعبر به ، وإليكم مثالاً آخر :-

قد تذهبين لزيارة صديقتك سعاد في أيام الامتحانات ، فينكر عليك والداك هذه الزيارة فيقولان : (أتزورين سعاد ؟) ويمكن أن يقال أيضاً (أسعادَ تزورين؟) .

الجملتان سواء من حيث اللفظ ، ليس في أحداهما زيادة على الأخرى ، لكنهما اختلفتا من حيث النظم ، التقديم والتأخير ، وعلى هذا لابد أن يكون لكل منهما معناها الخاص بها ، فإذا كان إنكار والديك عليك زيارة سعاد ، لأن الوقت غير مناسب ؛ ولأن الظرف هو ظرف الامتحانات ، لا يجوز أن تضيعي وقتك بالزيارات فيجب أن تكون الجملة هكذا (أتزورين سعاد ؟) .

أما إذا كان إنكارهم لزيارتك لأنهما لا يريدان أن تكون علاقة بينك وبين سعاد لسبب ما ، فيجب أن يكون نظم الجملة هكذا (أسعاد تزورين ؟) . فالإنكار في الجملة الأولى توجه إلى الزيارة نفسها ؛ لأنها في وقت غير مناسب ، أما في الجملة الثانية فقد توجه الإنكار لا للزيارة ، بل للمفعول ، كأنها ليست حرية بهذه الزيارة ، وذلك بقطع النظر عن الوقت وملاءمته .

وهكذا نرتب المعنى الذي نريد أن نتحدث عنه ، ثم نرتب الألفاظ التي نريد أن نعبر بها . وهكذا ندرك مما تقدم أن النظم لابد له من عمليتين اثنتين :

أولاً : ترتيب المعاني في النفس .

ثانياً : ترتيب الألفاظ في النطق .

وندرك كذلك أن النظم شيء غير اللفظ والمعنى .

مما سبق ندرك أن هناك فرقاً كبيراً بين قولي (أعني فلاناً) ، وأن أقول (إياك أعني)؛ فإن معنى الجملة الأولى أنني أعنيه وقد أعني غيره ، أما الجملة الثانية فمعناها أنني أوجه العناية له وحده .

وبين قولي " لا ضجة في الحجرة المجاورة " و " ليس في الحجرة المجاورة ضجة " ، فإن معنى الجملة الأولى نفي الضجة من الحجرة ، أما الجملة الثانية فتفيد أمرين اثنين :

أولاً : ما أفادته الجملة الأولى من نفي الضجة في الحجرة .

ثانياً : إثبات الضجة في حجرتنا أو في حجرة أخرى .

هذا هو النظم الذي عناه عبد القاهر - رحمه الله - (ترتيب الألفاظ في النطق حسب ترتيب المعاني في النفس).

وقد حرص في كتاب الدلائل ، على توضيح أمرين اثنين :

أولاً : الرد على الذين يزعمون أن الفضيلة للألفاظ وحدها .

ثانياً : الفصول التطبيقية الكثيرة التي ذكرها شرحاً لنظريته .

الجانب الأول : رده على علي أنصار اللفظ :

١- أنه لو كانت الفصاحة للفظ وحده ، أي من حيث هو لفظ ، لكان ينبغي أن لا تفارقه الفصاحة في أي موضع ، والأمر ليس كذلك ، فكم من كلمة تغنى الأدباء بفصاحتها في موضع ، ولكنهم استرذلوها في مواضع أخرى ، كم من كلمة حسنت في بيت من الشعر ، ولكنها قبحت في آخر[(١)] .

٢- الناس ليسوا سواءً في تذوق فصاحة الكلمات ، فلو كانت الفصاحة صفة للكلمة ، لما جاز أن تفارقها أبداً ، فهي صفة لا تدرك بالسمع ، وإنما تدرك بالقلب ،

---

(١) الدلائل ، ص ٤٠١ .

ونحن نعلم أن المعاني هي التي تدرك بالقلوب وليست الألفاظ ، أما قولهم كلام فصيح ، فإنما يقصدون به أنه متلائم مع المعنى الذي جيء به من أجله [(١)] .

٣- لو كانت الفصاحة للألفاظ وحدها لما كان هناك فرق بين الجمل المتفقة في الكلمات ، المختلفة في النظم ، مع أننا رأينا كثيراً من الفروق في الأمثلة التي ذكرناها من قبل ، فما أعظم الفرق بين قولنا (سورةَ البقرة حفظت) و (حفظت سورة البقرة) ، (أتزورين سعاد ؟ وأسعادَ تزورين ؟)، (لا ضجة في الحجرة المجاورة) و (ليس في الحجرة المجاورة ضجة) .

تساؤل لابد منه :-

وقد تتساءلون هنا كيف ينكر عبد القاهر فصاحة الألفاظ ، مع أننا ندرك بداهة أن هناك ألفاظاً نجد لها خفة على ألسنتنا متكلمين ، وخفة على آذاننا مستمعين ، ولا نجد هذه الخفة لما يشابهها من ألفاظ إننا ندرك بداهة الفرق بين كلمتي (الغصن و العسلوج) ، و (السيف والخنشليل) و (النفس والجرشى)، و(المزن والبعاق)ومعناهما واحد ، فكيف ينكر عبد القاهر أن يكون للفظة ذاتها خفة في نفسها على اللسان أو في الأذن ؟ .

والجواب أن هذا لا يخفى على أفراد الناس فكيف يمكن أن يخفى على عبد القاهر ، إن عبد القاهر لا ينكر أن يكون للألفاظ المفردة فصاحة بمعنى أنها خفيفة في النطق أو على السمع ، ولكن حديثه عن الكلمات المجموعة بعضها إلى بعض ، حديثه ليس في الكلمات المفردة - إذن - فهو لا ينكر أن للكلمات المفردة خفة أو ثقلاً ، وأن بعضها من هذه الحيثية خير من بعضها الآخر ، وهذه قضية غلط فيها كثير من الكاتبين الذين ظنوا أن تركيز عبد القاهر على النظم أو على المعنى ،

---

(١) الدلائل ، ص ٤٠٧ .

وعدم إشادته بالألفاظ ، ظنوا ذلك إغفالاً منه لأفضلية بعض الكلمات على بعض من حيث جرسُها ووقعها في اللسان وعلى الأذن ، وليس الأمر كما ذهبوا إليه ، فالشيخ في أكثر من موضع من كتابه ينبه على هذه القضية ويشير إليها .

ولنستمع إلى ما كتبه رداً على هذه الشبهة ، وهي أننا لا نستطيع أن ننكر التفاضل بين الألفاظ ، فلقد نجد المعنى يُعبر عنه بلفظتين ، إحداهما أيسر نطقاً وأخف على السمع من صاحبتها ، يقول : " والجواب وبالله التوفيق أن يقال للمحتج بذلك : قولك إنه يصح أن يعبر عن المعنى الواحد بلفظين ، يحتمل أمرين :

أحدهما : أن تريد باللفظتين كلمتين معناهما واحد في اللغة مثل " الليث و " الأسد" ، ومثل " شحط " ، و " بعد " ، وأشباه ذلك مما وضع اللفظان فيه لمعنى .

والثاني أن تريد كلامين ، فإن أردت الأول خرجت من المسألة ؛ لأن كلامنا نحن في فصاحة تحدث من بعد التأليف ، دون الفصاحة التي توصف بها اللفظة مفردة ، ومن غير أن يعتبر حالها مع غيرها " (١) .

وهذه إجابة من الشيخ حرية بالفهم ، لأنها تبدد كل وهم ، فهو لا ينكر أن بعض الكلمات المفردة أفصح من بعض من حيث خفتها وجرسها ، وهذا لا شأن له بالنظم ؛ لأن النظم لا يكون في الكلمة الواحدة ، وإنما النظم ضم بعض الكلمات إلى بعض ، وفصاحة هذا النظم هي التي يتحدث عنها الشيخ ويرى أنها ترجع إلى المعنى .

ونراه يؤكد هذه القضية في أكثر من موضع من كتابه الدلائل (٢) .

والحق أننا بعد تتبع كتاب الدلائل وجدنا أن الشروط التي اشترطها علماء البلاغة لفصاحة الكلمة وهي خفتها ، وكونها جارية على القياس الصرفي ، موافقة لما قرره اللغويون ، لم يهمله عبد القاهر ، بل أشار إليه ونبه عليه .

---

(١) الدلائل ص ٤٢٢ .

(٢) انظر الدلائل ص ٤٥٨ .

الجانب الثاني : القواعد التطبيقية لنظرية النظم :

القواعد التطبيقية التي ذكرها لشرح نظريته كثيرة ، عقد لها فصولاً مثل التقديم والتأخير ، والحذف والذكر ، والتعريف والتنكير ، والتأكيد ، والفروق بين الخبر ، والقصر ، والفصل والوصل ، إلى غير ذلك من فصول . وفي هذه الفصول كلها يذكر تطبيقات عملية من آي القرآن الكريم ، ومن الشعر الجيد ليبرهن على أن النظم هو الذي يرجع إليه فضل الكلام .

* ففي التقديم والتأخير مثلاً : يشير إلى قوله سبحانه { قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم } [الأنبياء : ٦٢] حيث قدم الضمير (أنت) على الفعل (قالوا أأنت فعلت) حيث جاء نظم الآية هكذا ولم يقدم الفعل فيقال (أفعلت هذا) وسر ذلك كما يرى عبد القاهر أننا نقدم ما هو مشكوك فيه ، أما الأمر المتيقن فلا يجوز أن نقدمه ، فإذا كان الشك في الاسم قدمناه ، وإذا كان الشك في الفعل قدمناه ، فإذا سمعت قصيدة من أحد الناس وأنا لا أعرف أهي من شعره أم شعر غيره ، فلا يجوز أن أقول له (أقلت هذه القصيدة ؟)؛ لأن القول مفروغ منه ، وإنما يجب أن أقول (أأنت قلت هذه القصيدة ؟) لأن هذا هو الأمر المشكوك فيه أقالها هو أم غيره ؟ .

وإذا جلست في بيت أحد الناس فلا يجوز أن أقول (أبنيت هذا البيت ؟) لأن البناء قد تم ، وإنما أقول له (أأنت بنيت هذا البيت ؟) .

ونستطيع أن نفهم الآية الكريمة على هذا النحو ، فالأصنام قد حطمت ، ولكنهم يريدون أن يقرروا إبراهيم عليه الصلاة والسلام بتحطيمها ، فجاء نظم الآية هكذا (أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟) .

* وأما التعريف والتنكير، فيمثل عبد القاهر بقول الله تعالى ،حديثا عن اليهود { ولتجدنهم أحرص الناس على حياة } [البقرة : ٩٦] ، ولم يقل على

الحياة، حيث يفيد التنكير أن اليهود يحرصون على الحياة أياً كانت ذليلة حقيرة ، فيها هوان وصغار.

* وفي الفروق بين الخبر يفرق بين قولنا (زيد منطلق) و (زيد المنطلق) و (المنطلق زيد) فإن كلا من هذه العبارات لها معنى غير صاحبتها ، وهذا هو النظم ويطبق كل هذا على آيات من القرآن الكريم .

* وفي الفصل والوصل يبين عبد القاهر أنه إذا كان هناك جملتان ، وكانت الثانية متصلة بالأولى اتصالاً وثيقاً ، كأن تكون تأكيداً أو بدلاً وجب فصلها عن الثانية ، ومعنى الفصل ترك العطف بالواو ويمثل لذلك بقوله سبحانه { بسم الله الرحمن الرحيم : آلم ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين }[البقرة :١ ، ٢] حيث جاءت كل جملة من هذه الجمل غير معطوفة على سابقتها : لأن بينها اتحاداً في المعنى .

وكذلك قوله سبحانه { ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم } [يوسف:٣١] حيث جاءت الجملة الثانية « إن هذا إلا ملك كريم » مفصولة غير معطوفة ، لأن كونه ليس بشراً ، ليس له معنى غير أنه ملك ، ألا ترى أننا إذا قلنا (إنها تقية إنها تؤدي الصلوات ،إ نها تلبس الجلباب) لا يجوز أن نعطف هذه الجمل بعضها على بعض ، لأن العطف يقتضي التغاير ، وكونها تؤدي الصلاة ، وكونها تلبس الجلباب لا يختلف هذا أو ذاك عن كونها تقية ، ولو قيل (إنها تقية وإنها تصلي) لكانت الصلاة شيئاً غير التقوى ، والأمر ليس كذلك ، أما قولنا (إنها تقية وإنها تحسن الطهي ، وإنها تجيد الخياطة) فلابد من العطف بين هذه الجمل ؛ لأن كلا منها مختلفة عن صاحبتها .

* وفي أسلوب القصر يبين سر النظم في آيات كثيرة مثل قوله سبحانه { إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر }[التوبة :١٨] و { فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب}[الرعد:٤٠] ، { إنما المؤمنون إخوة }[الحجرات :١٠] فمعنى (إنما

يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر } أي إن المؤمنين وحدهم هم الذين يعمرون مساجد الله لا غيرهم ، ولو قيل « إنما يعمر المؤمنون مساجد الله ، لكان المعنى أن المؤمنين يعمرون المساجد ولا يعمرون شيئاً آخر ، وهذا غير صحيح .

وقوله سبحانه { إنما عليك البلاغ } معناه عليك البلاغ فحسب ، أما غيره من الحساب فهو لله وحده ، ولو قال إنما البلاغ عليك ، لكان معناه أنك تبلغ دعوة الله وحدك ، ولا يجوز لأحد غيرك أن يبلغ هذه الدعوة ، وهذا ليس صحيحاً لأن المؤمنين جميعاً عليهم واجب التبليغ .

وهكذا قوله (إنما المؤمنون إخوة) معناه أن أعظم علامات الإيمان الأخوة ، فالمؤمنون إخوة لا متقاطعون ولا متدابرون ، ولو قيل إنما الإخوة المؤمنون ، لكان المعنى أن رابطة الأخوة لا تكون إلا بين المؤمنين وحدهم وهذا غير صحيح ، فإن الأخوة رابطة قد تكون بين المؤمنين وقد تكون بين غيرهم .

وهكذا نجد عبد القاهر يبذل قصارى جهده ، وهو يحرص كل الحرص على شرح نظرية النظم ، مبيناً أن إعجاز القرآن الكريم إنما هو لهذا النظم البديع الذي بهر العرب وعجزوا أن يأتوا بمثله ، وها هو عبد القاهر يبين لنا الغاية من هذه النظرية -نظرية النظم - وهي إدراك الإعجاز وتذوق حلاوته .

النظم - إذن - هو سر الإعجاز ، أما أنواع المجاز والإستعارة والكناية، فمع ما لها من شأن إلا أن الفضل يرجع فيها إلى النظم ، ويمثل لذلك بقوله سبحانه {واشتعل الرأس شيبا } [مريم :٤] فالإستعارة في قوله سبحانه (اشتعل) فالإشتعال كما نعلم للنار ، ولكن شبه انتشار الشيب بالاشتعال .

يرى عبد القاهر أن الفضل للنظم ، لا للإستعارة وحدها ، فلو أننا أبقينا الإستعارة وغيرنا النظم فقيل واشتعل شيب الرأس ، لم يكن للكلام هذا الفضل وتلك المزية ، وإنما كانت المزية والفضل أن أسندنا الاشتعال إلى الرأس ، وجعلت

كلمة شيباً تمييز ، وهو تمييز محول عن الفاعل كما يقول النحويون ؛ لأن الأصل (اشتعل شيب الرأس) .

وإذا أردت أن تدرك الفرق بين النظم في الجملتين ، أعني النظم القرآني (اشتعل الرأس شيبا) وقولنا (اشتعل شيب الرأس) . فانظر إلى هاتين الجملتين (اشتعلت النار في البيت) و (اشتعل البيت نارا) ولا شك أنك مدرك ما بين الجملتين من فرق شاسع ، فالأولى تفيد اشتعال النار في جزء من البيت وقد يكون صغيراً ، وأما الثانية فتفيد التعميم أي اشتعال النار في البيت كله .

وجه إعجاز القرآن عنده :

وأخيراً يصل عبد القاهر إلى الحديث عن إعجاز القرآن ، أي ما الذي أعجز العرب ، ويضع احتمالات متعددة ؛ فقد يكون إعجاز القرآن في مفرداته ، أو معانيه ، أو حركاته ، أو فواصله أو غريبه ، ولكنه يرد كل هذه الوجوه . يقول :-

" لا يجوز أن يكون - الإعجاز - في الكلم المفردة التي هي أوضاع اللغة ، قد حدث في مذاقة حروفها وأصدائها أوصاف لم تكن لتكون تلك الأوصاف فيها قبل نزول القرآن ، وتكون قد اختصت في أنفسها بهيئات وصفات يسمعها السامعون عليها إذا كانت متلوة في القرآن ، لا يجدون لها تلك الهيئات والصفات خارج القرآن .

ولا يجوز أن تكون في " معاني الكلم المفردة " التي هي لها بوضع اللغة ، لأنه يؤدي إلى أن يكون قد تجدد في معنى - الحمد - و - الرب - ومعنى العالمين والملك واليوم والدين وهكذا ، وصف لم يكن قبل نزول القرآن ، وهذا ما لو كان ههنا شيء أبعد من المحال وأشنع ، لكان إياه .

ولا يجوز أن يكون هذا الوصف في " ترتيب الحركات و السكنات " حتى كأنهم تحدوا إلى أن يأتوا بكلام تكون كلماته على تواليه في زنة كلمات القرآن ،

وحتى كأن الذي بان به القرآن من الوصف في سبيل بينونة بحور الشعر بعضها من بعض ، لأنه يخرج إلى ما تعاطاه مسيلمة من الحماقة في « إنا اعطيناك الجماهر فصل لربك وجاهر » « والطاحنات طحنا » .

وكذلك الحكم إن زعم زاعم أن الوصف الذي تحدوا إليه هو أن يأتوا بكلام يجعلون له مقاطع ، وفواصل كالذي تراه في القرآن ؛ لأنه أيضاً ليس بأكثر من التعديل على مراعاة وزن ، وإنما الفواصل في الآي كالقوافي في الشعر ، وقد علمنا اقتدارهم على القوافي كيف هو ، فلو لم يكن التحدي إلا إلى فصول من الكلام يكون لها أواخر أشباه القوافي ، لم يعوزهم ذلك ، ولم يتعذر عليهم .

ولا يجوز أن يكون الإعجاز بأن لم يلتق في حروفه ما يثقل على اللسان(١)

" فإذا بطل أن يكون الوصف الذي أعجزهم من القرآن في شيء مما عددناه ، لم يبق إلا أن يكون في (النظم) لأنه ليس - من بعدما أبطلنا أن يكون فيه - إلا النظم والاستعارة ، ولا يمكن أن تجعل الاستعارة الأصل في الإعجاز ، وأن يقصر عليها ، لأن ذلك يؤدي إلى أن يكون الإعجاز في آي معدودة في مواضع من السور الطوال مخصوصة ، وإذا امتنع ذلك فيها ، ثبت أن النظم مكانه الذي ينبغي أن يكون فيه " (٢) .

ومن المفيد أن نشرح لك هذه الجملة من القول بإيجاز :

يبين عبد القاهر - رحمه الله - الأمر الذي كان به إعجاز القرآن الكريم ، وتحدوا به فعجزوا أن يأتوا بمثله ، وهو في هذا يطرح بين يدي القاريء عدة أمور ،

---

(١) الدلائل ص ٣٨٦ .

(٢) الدلائل ص ٣٩١ .

يحتمل كل واحدٍ منها أن يكون وجهاً من وجوه الإعجاز .

الاحتمال الأول : من الممكن أن يكون الذي أعجزهم كلمات القرآن وألفاظه المفردة ، ولكن عبد القاهر يرد هذا القول ، وحق له أن يُرد ، لأن معنى كون هذه الألفاظ معجزة جهل العرب بها قبل نزول القرآن ، وأنهم لم يسمعوها إلا بعد أن نزل بها القرآن الكريم وهذا غير مقبول ؛ لأن ألفاظ القرآن الكريم لا يجهلها العرب ، ولهذا لم تكن غريبة عليهم .

الاحتمال الثاني: أن يكون الذي أعجز العرب معاني الكلمات ، وهذا مردود أيضاً ، لأنه يلزم منه أن يكون للكلمة معنى قبل نزول القرآن ، وأن يكون لها معنى آخر تجدد بنزول القرآن الكريم ، وهذا غير مقبول لأن معنى الحمد ، والكتاب، والريب ، والفلاح ، والخداع ، والفساد ، والاستهزاء والعبادة ، والفراش ، والأرض والسماء وغيرها من ألفاظ ، إن معنى هذه قبل نزول القرآن وبعد نزول القرآن شيء واحد .

الاحتمال الثالث : أن يكون سبب عجز العرب القالب الشكلي الذي جاءت عليه الكلمات القرآنية ، بيان ذلك أن كلام العرب ليس نوعاً واحداً ، فمنه الشعر ومنه الرجز ، ومنه السجع ، منه كلام موزون وكلام غير موزون ، والبنية الشكلية التي جاء عليها القرآن الكريم تختلف عن كل ما ألفه العرب وعرفوه ، فليس شعراً وليس سجعاً ، وليس شيئاً آخر من هذه الأشكال التي نطق بها العرب ، ويرد عبد القاهر هذا الاحتمال ؛ لأن من ركب جملاً تشبه الجمل القرآنية حري أن يكون كلامه معجزاً ، ومنه هذه الحماقات التي قيل إنها عورض بها القرآن مثل " والطاحنات طحنا ، والعاجنات عجنا " و " الفيل وما أدراك ما الفيل " ومثل " إنا أعطيناك الجماهر فصل لربك وجاهر " ألم تر كيف فعل ربك بالحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى" ولا يشك أصحاب هذه الكلمات بأنها حماقات ركيكة .

الاحتمال الرابع : أن يكون وجه الإعجاز الفواصل القرآنية ، ويرد عبد القاهر هذا الاحتمال ؛ لأن الفاصلة مثل القافية في الشعر ، ولقد برع القوم في الشعر - كما نعلم - ومن برع في الشعر وقوافيه لا يعجز أن يجعل للكلام خاتمة تشبه القافية .

ولابد أن نعلق هنا بكلمة قصيرة ، وهي أن عبد القاهر ينفي أن يكون وزن الفاصلة وجهاً من وجوه الإعجاز ، أما اختيار الكلمة في الفاصلة كأن تختار كلمة يفقهون في آية ويعلمون في آية أخرى ، وسميع بصير في آية ، وغفور رحيم في أخرى ، ولقوم يتفكرون في آية ، وقوم يعقلون في أخرى فهذا يدخل في النظم الذي هو لب الإعجاز .

الاحتمال الخامس : أن تكون خفة الكلمات وعدم ثقلها وتنافرها هو وجه الإعجاز ، ويرد عبد القاهر هذا القول بأن للعرب كلاماً مثيراً خالياً من الثقل والتنافر ، متلائمة حروفه في كلماته ، وكلماته في جمله ، ولم يقل أحد إن ذلك من الإعجاز .

الاحتمال السادس : أن يكون وجه الإعجاز ما في القرآن الكريم من استعارات ، ويرد عبد القاهر هذا القول بأن الاستعارات ليست في جميع الآيات القرآنية ، فكثير من الآيات ، أو أكثرها ليس فيه استعارة ، ويلزم على هذا القول أن تكون الآيات الخالية من الاستعارة غير معجزة وهذا أمر مجمع على رده .

وإذا بطلت هذه الاحتمالات كلها لم يبق إلا وجه واحد ، وهو النظم ، فنظم القرآن هو الذي كان به القرآن معجزاً ، وهو الذي أعجز العرب ، ولذا لما قالوا إن القرآن مفترى ، قال لهم : هاتوا أنتم عشر سور مفتريات ، افتروا معانيها كما تشاءون ، ولكن لتكن في نظم يشبه نظم القرآن ، فعجزوا .

74187

والحق أن عبد القاهر قد سلك لإثبات ما يريد طرقاً فجاجاً ، ولم يترك منفذاً يرى فيه ثغرة لمعترض إلا سده . ولقد اشتمل كتاب الدلائل كما عرفنا من قبل على جانبين : الجانب النظري يناقش فيه الذين جعلوا الفضل للفظ ويرد عليهم ويقسو أحياناً ، والجانب العملي الذي كان تطبيقاً لقواعد النظم .

وبعد فهذه نظرية عبد القاهر امتازت بعمق التحليل ، وحسن السبك ، وصحة الترتيب ودقة الموضوع . ولقد برز فيها جانبان اثنان : الجانب النفسي أولاً والجانب الفكري ثانياً .

أما الجانب النفسي ، فيظهر في عمق التأثير الذي يحس به القارىء وهو يتأمل ويتدبرالكلام البليغ وفي مقدمته الآيات القرآنية ، وأما الجانب الفكري ، فتجده في العلاقة بين المعاني بعضها مع بعض من جهة ، وبينها وبين الألفاظ لا من حيث الوضع فحسب ، بل من حيث الوضع والترتيب كلاهما .

هذه خلاصة عَجْلى لتلكم النظرية العظيمة التي كانت نتاج فكر لأحد عظماء هذه الأمة - رحمهم الله . رحم الله عبد القاهر وجزاه عن العربية ، وكتابها المبين ، ودينها الخالد خير الجزاء .

٤- الإمام محمود بن عمر الزمخشري (١):

لقد كان فضل الله عظيماً أن قيض لكتابه أئمة أعلاماً يبرزون عرائس الإعجاز بأثواب قشيبة ، ومظاهر خلابة جذابة ، لقد كان فضل الله عظيماً أن قيض مثل عبد القاهر يبدع في نظرية النظم ، ولقد كان فضل الله عظيماً أن قيض لنا مثل الزمخشري ، يطبق هذه النظرية تطبيقاً عملياً تفصيلياً في تفسير كتاب الله تعالى تفسير الكشاف .

لقد كان الزمخشري بحق عالماً ألمعياً ، وجهبذاً أحوذياً ، هضم نظرية عبد القاهر في النظم ، واستثمرها استثماراً تاماً في تطبيقها على آي الذكر الحكيم ، وظهر ذلك جلياً في الكشاف كما قلت ، بل زاد عليها كثيراً مما جادت به قريحته ، وأنتجه فكره ، وسنضرب بعض الأمثلة التي أفادها الزمخشري من نظرية عبد القاهر في تفسيره .

عرفتم من قبل أن كتاب دلائل الإعجاز كان فيه جانب عملي ، وهي الفصول التي كتبها عن التقديم والتأخير والحذف والذكر ، والفصل والوصل ، والتعريف والتنكير ، وغير ذلك مما عرضنا له من قبل ، ولنعش مع الزمخشري ، وهو يشرح لنا هذه الفصول شرحاً عملياً في تنزيلها على الآيات الكريمة .

١- عند قوله سبحانه [ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين] [البقرة:٢]

يتساءل الزمخشري : لم قدم الريب في هذه الآية الكريمة ، وهو اسم (لا) النافية للجنس على الجار والمجرور ، بينما جاءت آية أخرى على عكس ذلك ، فتتقدم فيها

---

(١) محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الزمخشري ، جار الله ، أبو القاسم من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب ، سافر إلى مكة فجاور بها زمناً فلقب بجار الله ، ولد عام ٤٦٧ هـ وتوفي عام ٥٣٨ هـ ، من كتبه تفسيره الكشاف ، الفائق في غريب اللغة المستقصى في الأمثال وغيرها .

الجار والمجرور ، وهي قوله سبحانه في وصف خمر الجنة « لا فيها غول ولا هم عنها يُنزفون ؟» فهو يفيد مما ذكره عبد القاهر في التقديم والتأخير ، فتقديم الخبر على المبتدأ يفيد التخصيص ، لذلك جاء نظم كل من الآيتين متفقاً ومنسجماً مع المعنى الذي تحدثت عنه كل منهما .

فقوله سبحانه (لا ريب فيه) كل الذي يفيده نفي جنس الريب عن القرآن الكريم دون التعرض لغيره من الكتب ؛ إذ لو قال (لا فيه ريب) لكان المعنى نفي الريب عن القرآن وإثباته لغيره من الكتب الأخرى ، وهذا غير مراد هنا .

أما قوله (لا فيها غول) فالمقصود منه شيء آخر ، إذ للقرآن هنا هدفان اثنان : نفي الغول [1] عن خمر الآخرة وهو ما فيها من ضرر ، وهذا هو الهدف الأول ، أما الهدف الثاني فهو إثباته في خمر الدنيا ، ولو قال (لا غول فيها) لم تفد إلا شيئاً واحداً وهو نفي الغول عن خمر الآخرة [2].

وقد تقدم لكم الفرق بين قولنا (لا ضجة في الحجرة المجاورة) . وقولنا (ليس في الحجرة المجاورة ضجة) .

٢- عند قوله سبحانه { أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون } [البقرة : ٥] يتساءل الزمخشري ، لم وسطت الواو في قوله (وأولئك هم) ، ولكننا لا نجدها في آية الأعراف { أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون}؟ [الأعراف : ١٧٩] .

ويجيب الزمخشري بأن الواو وسطت في آية البقرة ، لأن الجزاء مختلف ، فللمتقين جزاءان : صحة المنهج وهو قوله (أولئك على هدى من ربهم) ثم الغاية

---

(١) الغول : إهلاك الشيء من حيث لا يحس به ، ولذا قال في صفة خمر الجنة " لا فيها غول " [المفردات : ٣٦٩] .

(٢) الكشاف (١/ ٣٤) .

والنتيجة وهي قوله (أولئك هم المفلحون) فالأمران مختلفان ، لذا جاء حرف العطف ، أما آية الأعراف فليس فيها إلا شيء واحد ، فإن كونهم كالأنعام بيان لغفلتهم ، ولو أن الواو ذكرت في الآية فقال " واولئك هم الغافلون " كما جاءت آية البقرة ، لترتب عليه أمر محال ، وهو أن الأنعام ليست غافلة ، وهذا ما بينه عبد القاهر بياناً شافياً في حديثه عن الفصل والوصل [1].

٣- عند قوله سبحانه { الله يستهزيء بهم } [البقرة :١٥] يبين الزمخشري حكمة مجيء الخبر جملة فعلية وهي « يستهزيء » ،و عند قوله سبحانه { و كلبهم باسط ذراعيه بالوصيد } [الكهف : ١٨] يبين الحكمة من مجيء الخبر اسماً .

أما الأولى : فلقد جاء الخبر جملة فعلية لأنه يدل على التجدد ، وأما الثانية فلأن مجيء الخبر اسماً يدل على الثبوت [2]، وهذا ما بينه عبد القاهر وهو يتحدث عن الفروق بين الخبر .

٤- عند قوله « أولئك هم المفلحون » يبين الزمخشري الحكمة من مجيء ضمير الفصل (هم) والحكمة من تعريف الخبر (المفلحون) فضمير الفصل يؤتى به للتأكيد ولبيان أن ما بعده خبر لا صفة ، كما يبين أن الهدف من التعريف الاختصاص ، أي هم المفلحون لا غيرهم . وكل هذا مما عرض له عبد القاهر وأطال النفس فيه [3].

٥- وعند قوله تعالى [ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون، ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما ، قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ، فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير } [القصص : ٢٣ ، ٢٤] .

---

(١) الكشاف (٤٣/١).   (٢) الكشاف (٤٠١/٣) .   (٣) الكشاف (٦٧/١) .

يقول : فإن قلت : لم ترك المفعول غير مذكور في قوله (يسقون) و (تذودان) و (لا نسقي) و (فسقى لهما) ؟ قلت : لأن الغرض هو الفعل لا المفعول ، ألا ترى أنه إنما رحمهما لأنهما كانتا على الذياد وهم على السقي ، ولم يرحمهما لأن مذودهما غنم ومسقيهما إبل مثلاً ، وكذلك قولهما (لا نسقى حتى يصدر الرعاء) المقصود فيه السقي لا المسقي " [1] .

وقد ذكر هذا الإمام عبد القاهر ، وبين أن المفاعيل حذفت من الأفعال الأربعة لأن الغرض أن يعلم أنه كان من الناس في تلك الحال سقي ، ومن المرأتين ذود ، وأنهما قالتا لا يكون منا سقي ، وأنه كان من موسى بعد ذلك سقي ، أما ما كان المسقي أغنماً أم إبلاً فخارج عن الغرض ، ولو قال (تذودان غنما) لظن أن موسى عليه الصلاة والسلام لم ينكر عليهما الذود من حيث هو ذود ولكنه أنكر عليهما أن تذودا غنما ، ولو ذادتا بقراً لما أنكر ذلك [2] .

وهكذا نجد الزمخشري يعيش مع نظرية عبد القاهر في تفسير الكشاف ، بل لا يكتفي بذلك فيبين لنا ألواناً من الإعجاز البياني . ولعلنا لا نغالي ولا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا إن الإبداع في تقرير قضايا الإعجاز وقف عند ما قرره عبد القاهر في نظريته ، وطبقه الزمخشري في كشافه ، والذين جاءوا من بعدهما لم يزيدوا شيئاً ذا بال ، إنما كان الذي ذكروه شرحاً أو اختصاراً ، أو نقلاً وقد تظهر عليه سمات التكلف .

تحليل سورة الكوثر :

وما دمنا نتحدث عن الزمخشري وإبداعه ، فمن المفيد هنا أن نطلعكم على تحليله لأقصر سورة في كتاب الله تعالى ، وهي سورة الكوثر ، وهي مما اشتملت

---

(١) الكشاف (١/٤٥) . (٢) الدلائل ص ١٦١ .

عليه الخطة ، ولكن واضع الخطة نسبها لابن القيم ، لأنها مذكورة في كتاب الفوائد المشوق ، وإذا أردنا أن نرجع الأمور إلى أصولها ، فإن تفسير هذه السورة هو للزمخشري - رحمه الله - ذكر حاصله الرازي في كتابه نهاية الإيجاز ، فليس من الإنصاف أن ننسب القول لغير قائله .

قال الفخر الرازي : لجار الله العلامة - الزمخشري - في ذلك - أي في إعجاز سورة الكوثر - رسالة وأنا أذكر حاصل ما فيها في هذا الموضع : قوله تعالى « إنا أعطيناك الكوثر » فيه ثمان فوائد :-

الفائدة الأولى : إنه يدل على عطية كثيرة ، مستندة إلى معطٍ كبير ، ومتى كان ذلك كانت النعمة عظيمة ، وأراد بالكوثر أولاده إلى يوم القيامة من أمته ، جاء في قراءة عبد الله " النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وهو أبوهم وأزواجه أمهاتهم " ، وأيضاً ما أعطاه الله في الدارين من مزايا الأثرة ، والتقديم والثواب لم يعرف كنهه إلا الله ، ومن جملة الكوثر ما اختصه به من النهر الذي طينه المسك ورضراضه (١) التوم (٢) ، وعلى حافاته من أواني الذهب والفضة مالا تعادّه النجوم .

الثانية : إنه بنى الفعل على المبتدأ ، فدل على الخصوصية ، فإن تقديم المحدث عنه آكد لإثبات الخبر .

الثالثة : إنه جمع ضمير المتكلم وهو يشعر بعظم الربوبية .

الرابعة : إنه صدر الجملة بحرف التوكيد الجاري مجرى القسم .

الخامسة : إنه أورد الفعل بلفظ المضي ، دلالة على أن الكوثر لم يتناول عطاء العاجلة دون عطاء الآجلة ، دلالة على أن المتوقع من سيب الكريم في حكم الواقع.

---

(١) الرضراض : الحصى أو صغارها [القاموس المحيط : ص ٢٨٩]

(٢) التوم جمع : والتومة بالضم اللؤلؤ [القاموس المحيط : ص ١٤٠٠]

السادسة : جاء الكوثر محذوف الموصوف ؛ لأن المثبت ليس فيه ما في المحذوف من فرط الإبهام والشياع ، والتناول على طريق الإتساع .

السابعة : اختار الصفة المؤذنة بالكثرة ، ثم جاء بها مصروفة عن صيغتها .

الثامنة : أتى بهذه الصيغة مصدرة باللام المعرفة لتكون لما يوصف بها شاملة، وفي إعطاء معنى الكثرة كاملة ، ولما لم تكن للمعهود وجب أن تكون للحقيقة ، وليس بعض أفرادها أولى من بعض فتكون كاملة ، وقد دخل فيه الجواب عن كونه غير معقب ابنا ؛ لأن بقاء الابن بعده لا يخلو عن أمرين : إما أن يجعل نبياً ، وذلك محال لكونه خاتم الأنبياء ، أو لا يجعل نبياً وذلك يوهم أنه خلف سوء فصين عن تلك الوصمة بما أعطي من الخير الكثير ، وهو حصول الغرض المتعلق بهم مع إنتقاء الوصمة اللازمة لو كانوا ولم يكونوا أنبياء .

وقوله عز وجل { فصل لربك وانحر } [الكوثر : ٢] فيه ثمان فوائد :-

الأولى : فاء التعقيب ههنا مستعارة من معنى التسبب لمعنيين : أحدهما : جعل الإنعام الكثير سبباً للقيام بشكر المنعم وعبادته ، وثانيهما : جعله سبباً لترك المبالاة بقول العدو ؛ سبب نزول السورة أن العاص بن وائل قال إن محمداً صنبور ، فشق ذلك على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأنزل الله هذه السورة .

الثانية : قصده بالأمرين التعريض بدين العاص وأشباهه ممن كانت عبادته ونحره لغير الله ، وتثبيت قدمي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على الصراط المستقيم ، وإخلاصه العبادة لوجهه الكريم .

الثالثة : أشار بهاتين العبادتين إلى نوعي العبادات ؛ أعني بها الأعمال البدنية التي الصلاة أمامها ، والمالية التي نحر البدن سنامها .

الرابعة : التنبيه على ما لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الاختصاص بالصلاة ، حيث جعلت لعينيه قرة ، وبنحر البدن التي كانت همته فيه قوية .

الخامسة : حذف اللام الأخرى لدلالته عليها بالأولى .

السادسة : مراعاة حق التسجيع الذي هو من جملة صنعة البديع ، إذا ساقه قائله مساقاً مطبوعاً ولم يكن متكلفاً ولا مصنوعاً .

السابعة : إنه قال لربك وفيه حسنان : وروده على طريق الإلتفات التي هي أم الأمهات ، وصرف الكلام عن لفظ المضمر إلى لفظ المظهر ، وفيه إظهار لكبرياء شأنه ، وإبانة لعزة سلطانه ، ومنه أخذ الخلفاء قولهم : يأمرك أمير المؤمنين بكذا ، وعن عمر رضي الله عنه أنه حين خطب الأزدية إلى أهلها قال : خطب إليكم سيد شباب قريش مروان بن الحكم ، وسيد أهل المشرق جرير بجيلة ، ويخطب إليكم أمير المؤمنين عني نفسي .

الثامنة : علم بهذا أن من حق العبادة أن يخص بها ربهم ومالكهم ، وعرض بخطأ من عبد مربوباً ، وترك عبادة ربه .

* وقوله تعالى { إن شانئك هو الأبتر } [الكوثر : ٣] فيه خمس فوائد :

الأولى : علل الأمر بالإقبال على شأنه ، وترك الإحتفال بشانئه ، على سبيل الإستئناف الذي هو جنس حسن الموقع ، وقد كثرت في التنزيل مواقعه .

الثانية : ويتجه أن تجعلها جملة للإعتراض مرسلة إرسال الحكمة الخاتمة الأغراض ، كقوله تعالى « إن خير من استأجرت القوي الأمين » وعني بالشانيء العاص بن وائل .

الثالثة : إنما ذكره بصفته لا باسمه ليتناول من كان في مثل حاله في كيده لدين الحق .

الرابعة : صدور الجملة بحرف التوكيد ، وفيه أنه لم يتوجه بقيله إلى الصدق، ولم يقصد به الإفصاح عن الحق ، ولم ينطق إلا عن الشنئان الذي هو حريب البغي والحسد ، وعن البغضاء التي هي نتيجة الغيظ والحرد ، ولذلك وسمه بما ينبئ

عن المقت الأشد .

الخامسة : جعل الخبر معرفة ليتم البتر للعدو الشانئ حتى كأنه الجمهور الذي يقال له الصنبور .

ثم هذه السورة مع علو مطلعها ، وتمام مقطعها ، واتصافها مما هو طراز الأمر كله من مجيئها مشحونة بالنكت الجلائل ، مكتنزة بالمحاسن غير القلائل ، فهي خالية من تصنع من يتناول التنكيت ، وتعمل من يتعاطى التبكيت »[1] .

(١) نهاية الإيجاز ، ص ١٩٠ ، تحقيق د. إبراهيم السامرائي و د. محمد أبو علي .

الفصل الثاني
المحدثون والإعجاز

ونتحدث فيه عن :

إعجاز القرآن للرافعي

النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز

إعجاز القرآن عند سيد قطب وكتابه التصوير الفني

إعجاز القرآن للدكتورة عائشة بنت الشاطيء

الشيخ محمد متولي الشعراوي في إعجاز القرآن

موريس بوكلي في كتابه دراسة الكتب المقدسة

الفصل الثاني : المُحْدَثُون والإعجاز

يحمل هذا العلمَ في كل زمن قوم ينفون عنه كل تحريف ، ويميطون عن طريقه كل أذى ، لذا رأينا للمحدثين في هذا العصر جهوداً طيبة مشكورة في موضوع الإعجاز ، وإن كانوا قد أفادوا كثيراً ممن تقدمهم من العلماء ، فلقد كان لكثير منهم ملحوظات جديرة بالتقدير ، حرية بالتسجيل ، ثم إن لكل عصر أسلوبه الذي يلائمه ، وطريقته التي تناسبه ، وسنطلعكم على نتاج هؤلاء لتقطفوا من جناهم ، محاولين أن نذلل لكم هذه القطوف لتكون دانية إن شاء الله .

كان للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده - رحمه الله - جهد لا ينكر في النهضة التفسيرية ، وما يتصل بعلوم القرآن الكريم ، ولغته وبلاغته ، فلقد ظل كتابا عبد القاهر - رحمه الله - الدلائل والأسرار بعيدين عن متناول العلماء والأدباء المثقفين حقبة طويلة من الزمن حتى جاء الشيخ - رحمه الله - فحببهما إلى المثقفين ، وكان له حلقة علم في تدريسهما ، كما كان له مجالس في جامع الأزهر لتدريس التفسير ، وكان من نتائج ذلك كله هذه الجهود الطيبة التي وجدناها في آثاره وآثار العلماء من بعده .

إعجاز القرآن للرافعي :

كان أول كتاب ظهر في إعجاز القرآن الكريم للأستاذ مصطفى صادق الرافعي - رحمه الله - والرافعي منحة من منح الله لهذه الأمة في عصر كان الناس في أمسِّ الحاجة إليه ، فلقد وهبه الله قلماً ذاباً عن القرآن ولغته ، أمام هجمات شرسة، وحقاً كان الرافعي كاتب العربية المنافح عنها ، جعل الله منه في الأواخر كما جعل من حسّان في الأوائل .

وكانت كتابته تتصف بالعمق في الأسلوب ، مع سعة في الإطلاع ، مع قوة في العرض ، يزين ذلك كله عاطفة صادقة ، وإحساس مرهف ، وخيال خصب ،

وذهن ثاقب .

كان يرقى مع قارئه في سلم البيان ، ليصل به إلى السمو الأدبي ، ولنستمع إليه في هذه الكلمة الحية الموجزة المعبرة : « عابوا السمو الأدبي بأنه قليل ، ولكن الخير كذلك ، وبأنه مخالف و لكن ... الحق كذلك ، وبأنه محير ولكن ... الحسن كذلك ، وبأنه كثير التكاليف ، ولكن الحرية كذلك .

إن لم يكن البحر فلا تنتظر الدرّ ، وإن لم يكن السحاب فلا تنتظر المطر ، وإن لم تكن شجرة الورد فلا تنتظر الورد ، وإن لم يكن الكاتب البياني فلا تنتظر البيان ».

والرافعي أديب ، لم يقتصر أدبه على النثر وحده ، بل كان كاتباً وشاعراً ، وناقداً كذلك ، وقليل أولئك الذين اجتمعت لهم هذه الصفات كلها ، وكما كان الرافعي شاعراً وكاتباً له طابعه المميز في الشعر ، وأسلوبه الواضح في الكتابة ، فقد كان أيضاً ناقداً له منهجه المستقل في نقده ، ولم يخرج نقد الرافعي عن الهدف العام الذي دار في إطاره أدبه وهو : الذود عن حمى الدين واللغة العربية ، ولقد افاد الأدب العربي ولغته ، وانتفعت حقول الفكر وميادين الثقافة من جهود الرافعي في النقد افادة غير محدودة .[1] ، ولعل أعظم كتبه من حيث القيمة العلمية « تاريخ آداب العرب » ويتكون من ثلاثة أجزاء كان الجزء الثاني منه حديثاً عن القرآن الكريم ، وهو أصل لكتاب الإعجاز ، فقد وسعه الرافعي وزاد ما شاء الله له، فكان كتابه (إعجاز القرآن) .

يحتوي الكتاب على موضوعين كل منهما ذو شأن وخطر : أحدهما إعجاز القرآن والثاني البلاغة النبوية .

بدأ هذا الكتاب بكلمة رصينة جزلة عن القرآن الكريم ، ثم تحدث عن علوم

---

(١) بلاغة القرآن في أدب الرافعي / د. فتحي عبد القادر فريد ص ٥٩ .

القرآن الكريم : نزوله وجمعه وقراءاته ، وغير ذلك من موضوعاته ، وأخذت هذه ما يقرب من نصف الكتاب ، ثم تحدث عن معنى الإعجاز ، وذكر جهود السابقين وعلق عليها ، وبعد أن انتهى من ذلك كله أنشأ يتحدث عن الإعجاز كما يراه فبين بادي بدء أن القرآن الكريم معجز من جهات ثلاث :

١- من حيث تاريخه بين الكتب السماوية فهو كتاب محفوظ ، ولم يطرأ عليه تحريف ولا تبديل .

٢- من حيث آثاره ، فلم يعرف في الدنيا كتاب ، كان أثره ولا يزال مثل هذا الكتاب المبين .

٣- من حيث حقائقه ، وهي حقائق في مجالات متعددة ، تعدد أنماط الحياة، ولكنها حقائق ليس فيها ثغرة يتسلل من خلالها زيغ أو زائغ ، « وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

وبين الرافعي أنه ليس له غرض في الحديث عن هذه النواحي الثلاث ، وإنما غرضه في هذا الكتاب أن يتحدث عن الإعجاز البياني ، وهي الجهة الرابعة من جهات إعجاز هذا الكتاب .

ويبين أن الفضل يرجع لهذا الكتاب في وحدة الأمة ، وبخاصة وحدتها اللغوية ، ويتحدث في هذا الباب عن أسلوب القرآن ونظمه وغرابة أوضاعه التركيبية ، وهو وإن كان يلتقي في كثير من الحقائق مع ما كتبه الأقدمون ، فإنه والحق يقال صبغ ذلك كله بصبغة جديدة ببراعة بيانه وقوة أسلوبه ، وجميل تصويره ونفث أحاسيسه ، وصادق عاطفته ، وشدة غيرته الإيمانية ، وسعة معرفته باللغة وأسرارها ، فلقد هضم ما كتبه الأقدمون في موضوع اللغة على تعدد جهاته ونواحيه ، ففي حديثه عن أسلوب القرآن يبين أنه لما كان الأسلوب ، أسلوب كل كاتب إنما ينعكس عن مزاج صاحبه ، وكان القرآن كتاب الله تبارك وتعالى ، أدرك

العرب لأول وهلة حينما سمعوه أنهم مهما أتوا من حظ في أفانين الأساليب نظمها ونثرها ، فسيظل أسلوب القرآن بعيداً عن متناول ألسنتهم ، ومن أن تطمع فيه عقولهم مهما بذلوا في ذلك من محاولات .

أسلوب القرآن :

ويرى الرافعي أن سر التفاوت بين أسلوب القرآن وأسلوب البشر ، مع أن المادة اللغوية واحدة لا تختلف ، يرجع إلى أمور أهمها .

أولاً : ما نجده في أسلوب القرآن من قوة نسج ، وإحكام في السرد ، بحيث لو قرأته كله من أوله إلى آخره ، فإنك لا تحس بنبوة أو ثغرة ، وأنت تنتقل من معنى إلى آخر ، ومن الآية إلى التي بعدها ، أو من موضوع إلى موضوع .

ثانياً : إن هذا الإحكام وتلك القوة في الأسلوب القرآني نجدها في القرآن مكيه ومدنيه على السواء ، وفي سوره الطويلة والقصيرة على السواء ، فهو لا يختلف في تصويره اليوم الآخر ، والحديث عن الكون وآيات الوحدانية ، لا يختلف في هذه عنه في آيات الأحكام على تعددها ، وهذا ما لا نجده عند فصحاء العرب شعراء وخطباء .

ثالثاً : وعلى هذا فأسلوب القرآن الكريم نسق واحد ، وهذا ما يجعله يختلف عن أساليب البشر ، حيث كانت أمزجتهم تنعكس على أساليبهم .

وما قرره الرافعي في أسلوب القرآن نجده قريباً مما حدثناك عنه عند الباقلاني، لكن الرافعي أفرغه بقالب جديد ، وأنشأ بناء محكماً قوياً ، وأضفى عليه مما منحه الله من قوة أسلوبه ، وأضاف إليه ما يتفق مع روح العصر .

نظم القرآن :-

أما نظم القرآن عند الرافعي ، فهو يتمثل :

أولاً في الحروف وأصواتها .

ثانياً : في الكلمات وحروفها .

ثالثاً : في الجمل وكلماتها .

وهذا ترتيب طبعي منطقي ، فالحروف هي التي تتكون منها الكلمات ، والكلمات هي التي تتكون منها الجمل ، ويرى الرافعي أن أصوات الحروف في القرآن الكريم منسجم بعضها مع بعض ، بحيث يتكون فيها جرس صوتي خلاّب ، أو كما يعبر عنه بلغة العصر " موسيقى صوتية جذابة " فقد نجد ثقلاً في ضم حرف لحرف ، أو إتباع حركة لحركة ، ولكن هذا الثقل يتلاشى في نظم القرآن الكريم ، ويمثل لذلك بقول الله تبارك وتعالى { ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنُّذر } [القمر:٣٦] فرغم هاتين الضمتين الثقيلتين على النون والذال في كلام الناس ، إلا أنهما جاءتا في القرآن الكريم بعيدتين عن هذا الثقل ، بل جاءتا بجرس أخّاذ .

ويتفنن الرافعي في بيان هذه الحركات ، وقد تجيء الكلمة على حروف كثيرة مما يدعو إلى ثقلها في النطق وعلى السمع ، لكنها في القرآن يذهب منها كل هذا ، ويمثل لذلك بقوله تعالى { فسيكفيكهم الله } [البقرة : ١٣٧] وقوله «ليستخلفنهم » وما ذلك إلا لاختيار الحروف والحركات .

أما الكلمات فهي كلمات موحية معبرة فيها الإنسجام بين الصوت والمعنى ، وأما الجمل فهي جمل قدرت لها كلماتها تقديراً محكماً بحيث لا تجد كلمة زائدة ، أو معنى فيه شيء من النقص ، ولذا فإنّ الرافعيّ ينكر الزوائد في كتاب الله تعالى ، كما يرى أن التكرار إنما جاء لحكم بيانية .

وقد تأتي الكلمة الغريبة في القرآن ، لكننا إذا نظرنا لتأليف حروفها من

جهة، وإلى غرابة المعنى الذي جاءت فيه من جهة أخرى تجدها قد فصلت تفصيلاً بحيث لا يصلح غيرها مكانها ، وذلك مثل كلمة (ضيزي) .

يقول الدكتور فتحي عبد القادر : من أبرز الأسباب التي كتبت للرافعي الشهرة والمجد وعلو المنزلة بين دارسي الإعجاز - وجعلت لكتابه (إعجاز القرآن) نمطاً معيناً بين ما كتبه القدامى والمحدثون عن الإعجاز القرآني - ما كتبه عن انسجام الحروف وأثره في البلاغة القرآنية .

فما كتبه الرافعي عن الموسيقى القرآنية التي نشأت عن توالي الحروف وانسجامها يعتبر من غير شك ميزة وسبقاً وتفرداً له في ميدان البلاغة القرآنية [1]

الأصوات الثلاثة :-

يرى الرافعي أنه ينتج من الكلمات في حروفها ، والجمل في كلماتها ، أصوات ثلاثة هي : صوت النفس ، وصوت العقل ، وصوت الحس .

أما صوت النفس فإنما ينشأ من الكلمات ومعانيها ، فكل لفظة تتساوق وتنسجم مع معناها الذي أعدت له ، وهذا ما يسمى في العصر الحديث بالإيحاء ، وأما صوت العقل فإنما ينشأ من تركيب الكلمات في الجمل ، ذلك لأن هذا التركيب أعني تركيب الكلمات في الجمل لابد فيه من عمليات فكرية ، فنحن بداهة بحاجة ماسة إلى الفكر والعقل لندرك الصلة بين الكلمات في الجمل ، وهذان الصوتان قد عرفهما العرب من قبل .

أما صوت الحس فهو الذي لم يعرفه العرب قبل القرآن ، وهو تقدير الكلمات تقديراً محكماً لمعانيها ، بحيث لا نجد كلمة فضفاضة تزيد على المعنى الذي جيئت

---

(١) بلاغة القرآن في أدب الرافعي ، ص ١٨٧ .

من أجله وأخرى لا تعبر عن المعنى تعبيراً تاماً ، وهذا ما لا نجده في شعر أو نثر ، فقد نجد البيت الواحد في القصيدة أو الجملة في الخطبة ، ننعم النظر فيها ، وإذ بنا يمكن أن نطرح بعضها ونستغني عنه وليس كذلك القرآن الكريم .

وهكذا يمضي الرافعي يحدثنا عن غرابة أوضاع القرآن التركيبية .

موقف الرافعي من القول بالصرفة :

عرفت أن معنى الصرفة : صرف الله للعرب أن يأتوا بمثل القرآن ، ومعنى ذلك أن الله سلبهم القدرة التي تمكنهم من المجيء بكلام يشبه القرآن الكريم في نظمه وأسلوبه ، كما يسلب الإنسان السليم القدرة على تحريك يده ، وهذا الذي روي عن النظام المعتزلي شيخ الجاحظ .

وروي عن غيره ممن جاءوا بعده أن معنى الصرفة : أن الله سلب العرب العلوم التي تمكنهم من الإتيان بمثل ما في القرآن .

ويترتب على هذا وذاك أن عجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن ليس ناشئاً عن رفعة أسلوب القرآن وبديع نظمه ، وعلو شأنه في البلاغة ، بل هو راجع عند القائلين بالصرفة لأمر آخر خارج عن القرآن الكريم وهو أن حال الله بينهم وبين ذلك، وإلا - أي لولا أن صرفهم الله - لكان بمقدورهم أن يأتوا بمثله ، كيف لا ولهم الكلام البليغ شعراً ونثراً .

عرض الرافعي - رحمه الله - للقول بالصرفة ، ولشيء من سيرة النظام الذي اشتهر عنه هذا القول ثم قال بأسلوب ساخر :"

وهو عندنا رأي لو قال به صبية المكاتب ، وكانوا هم الذين افتتحوه وابتدروه، لكان ذلك مذهباً من تخاليطهم في بعض ما يحاولونه إذا عمدوا إلى القول فيما لا يعرفون ليوهموا أنهم قد عرفوا .

وإلا فإن من سلب القدرة على شيء بانصراف همته عنه ، وهو بعد قادر عليه

مقرن له ، لا يكون تعجيزه بذلك في البرهان إلا كعجزه هو عن البرهان ، إذ كان لم يعجزه عدم القدرة ، ولكن أعجزه القدر وهو لا يغالب ، والمرء ينسى ويذكر ، وقد يتراجع طبعه فترة لا عجزاً ، وقد يعتريه السأم ويتخونه الملال ، فينصرف عن الشيء ، وهو له مطيق ، وذلك ليس أحق بأن يسمى عجزاً من أن يسمى تهاوناً ولا هو أدخل فيما يحمل عليه الضعف منه فيما يحمل عليه فضل الثقة ....

وعلى الجملة فإن القول بالصرفة لا يختلف عن قول العرب فيه " ان هو إلا سحر يؤثر " وهذا زعم رده الله على أهله وأكذبهم فيه وجعل القول به ضرباً من العمى { أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون } ، فاعتبر ذلك بعضه ببعضه فهو كالشيء الواحد " (١).

وتوضيحاً لكلام الرافعي نقول : أن القول بالصرفة لا يتفق مع الحكمة الإلهية بيان ذلك : أن الله قد تحداهم أن يأتوا بمثل القرآن ، أو بسورة منه ، فهل يليق بالحكيم الخبير والحكم العدل ، أن يقول لهم : لتجتمعوا ، ولتتعاونوا ، ولتبذلوا كل ما عندكم من جهد وطاقة ، ولتستعينوا بمن تشاءون ، افعلوا كل ذلك من أجل الإتيان بسورة ، ومع ارخاء العنان لهم يقول : سأمنعكم وأصرفكم عن هذا .

لنتصور مدرساً وضع أسئلة الإمتحان لطلابه ، ولكنه عند لحظة الامتحان جمع الأقلام من الطلاب ، أو أطفأ الكهرباء ، ولنتصور أحد الناس يتحدى حامل الأثقال ، ولكنه حينما جاء ليحمل قيد يديه ، ماذا يقول الناس عن هذا المدرس وهذا المتحدي ، إن عملهما ليس فيه شيء من الحكمة ولا الجدية ، بل هو عبث .

وإذا كان هذا لا يليق بالبشر ، فكيف يتفق مع الحكمة الإلهية ؟ كيف يتحدى الله الخلق إنساً وجناً بقوله { قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي ، ص ١٤٦ .

بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا } ثم بعد ذلك يصرفهم ويسلبهم القدرة ، سبحان ربنا ذي الجلال والإكرام ، أحكم الحاكمين !! .

على أن الجديد في كلام الرافعي عن الصرفة الموازنة بين هذا القول وقول العرب عن القرآن الكريم " إن هذا إلا سحر يؤثر " وقد رد الله هذا الإفتراء وأبطله ، وكذلك القول بالصرفة قول باطل يتنافى مع بدهيات العقل ، ومسلمات المنطق ، لأنه يتنافى مع الحكمة الإلهية .

إن كتاب إعجاز القرآن للرافعي ، كتاب ينبض بالحياة والعاطفة الصادقة ، ولكنه يغلب عليه الطابع النظري ، وكنا نود أن يكثر فيه الرافعي من التطبيقات العملية ، ولكن عذره في ذلك أنه كان عازماً على أن يكتب كتاباً آخر ، وهو سر الإعجاز يفرده بجعله خاصاً بالتطبيقات العملية ، وقد كتب بعض فصول هذا الكتاب ، ولكنه فاضت روحه إلى بارئها قبل أن يتمه ، هذه واحدة .

أما الثانية فإن أسلوب الرافعي رصين قوي جزل ، وقارئه لابد له من مراس ومعرفة لغوية ؛ لذا وجدناه يصعب فهمه على كثير من الناشئة اليوم ، ثم إن الرافعي لم يلق أدبه عناية من المثقفين ، وهذا أمر مقصود ؛ لأن كثيراً من المثقفين تتملذ لمدارس وكتّاب فتنوا بآداب الغرب .

رحم الله الرافعي رحمة واسعة ، وجزاه عن العربية وكتابها خير الجزاء .

٢- « أستاذنا الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله وكتابه النبأ العظيم »

لقد فتح الرافعي - رحمه الله - باب البيان القرآني في العصر الحديث ، ولكنه كان ذا عمق في الفكرة ، وعلو في الأسلوب ، وسمو في العبارة ، وربما يحول هذا كله بين بعض الناس وبين ولوج هذا الباب ، فكان لابد ممن يسير على منهجه مع عمق في البحث ، وسهولة في الأسلوب ، ويسر في العبارة ، وإلمام بالفكرة ، فهيأ الله لكتابه ولتلك الأمة رجلاً جمع إلى تلك الخصال كلها روحانية الكلمة ؛ ذلكم هو الأستاذ الدكتور محمد عبدالله دراز - رحمه الله - ، إنه الرجل الذي يصل معناه إلى قلبك ، حين وصول لفظه إلى أذنك ، ولقد كانت كتابته ومحاضراته خير شاهد على ذلك .

وإن مما يسعدني وأفخر به وأعتز ، وأشرف ، شاكراً الله على نعمه ، أن تتلمذت لأساتذة فضلاء ، جهابذة أفذاذ ، منهم الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز صاحب النبأ العظيم ، ومنهم الدكتور محمد يوسف موسى والشيخ محمد الأودن والشيخ محمود الغنيمي وخالي الشيخ يوسف عبد الرزاق المشهور بالمشهدي وغيرهم -رحمهم الله - وجزاهم عني كل خير.

وكتاب النبأ العظيم في الإعجاز هو من خير الكتب وأدقها وأعمقها ، إن لم يكن خيرها وأدقها وأعمقها ، ويأتي في الترتيب الزمني بعد كتاب الأستاذ الرافعي رحمه الله ، فقد بدأه الأستاذ - رحمه الله - منذ أن أنشئت الكليات الأزهرية عام (١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣ م) .

قسم أستاذنا كتابه إلى مبحثين : الأول : في بيان مصدر القرآن الكريم .

الثاني : إعجاز القرآن .

وبعد أن انتهى من المبحث الأول قال :" وبعد فإننا في هذا المنهج الذي سلكناه من أول البحث إلى هذا الحدّ لم نرد أن نعرض للقرآن في جوهره ، بل كان قصارى

ما صنعناه أننا درسنا الطريق التي جاء منها فما وجدنا في إعترافات صاحبه ، في حياته الخلقية ، ولا في وسائله وصلاته العلمية ، ولا في سائر الظروف العامة أو الخاصة التي ظهر منها القرآن ، إلا شواهد ناطقة بأن هذا القرآن ليس له على ظهر الأرض أب ننسبه إليه من دون الله .

وتلك كلها دراسات خارجية إنما يسلكها رجل وقف معنا على طرف صالح من هذه الحياة النبوية وملابساتها ، وكان مع ذلك سليم الفطرة يتعرف الأشياء بمثالها ، ويهتدي إليها بأقرب أمارتها ، فمثل هذا سيرضى منا بهذا القدر ويهتدي به .

وأما الذين لا يعلمون عن تلك الحياة إلا قليلاً - وكثير ما هم - والذين يريدون أن يأخذوا حجة القرآن لنفسه من نفسه ، فهؤلاء لا غنى لهم أن نتقدم بهم خطوة أخرى ، نبين لهم فيها أن هذا الكتاب الكريم ، يأبى بطبيعته أن يكون من صنع البشر ، وينادى بلسان حاله أنه رسالة القضاء والقدر ، حتى إنه لو وجد ملقى في صحراء لأيقن الناظر فيه أن ليس من هذه الأرض منبعه ومنبته ، وإنما كان من أفق السماء مطلعه ومهبطه .

ذلك أن قدرة الناس وإن تفاوتت فإلى حدود محدودة لا تتعداها ، وقدرة الخالق على الممكنات لا حدّ لها ، فكل كائن يجاوز حدود القدرة العالمية واقع في حدود القدرة الإلهية ألبتة ولا ثالث .

مثال ذلك : أن الرجل قد يصرع الرجل ، وقد يصرع الرجلين ، وقد يصرع الآحاد والعشرات ، ولكن هل من الناس من يقف في وجه العالم كله فيقهر الأمم أفراداً وجماعات ؟ والله يأتي بالشمس من المشرق فمن ذا الذي يأتي بها من المغرب؟ وأنت تستطيع أن تطفيء المصباح وأن توقده حين تشاء ، ولكن هل يستطيع الناس جميعاً أن يطلعوا الشمس قبل وقتها ، أو يؤخروها عن ساعتها ، أو يطفئوا نورها أو أن يأتوا بمثلها ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ؟

إنهم لا يستطيعون أن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، فأنى لهم أن يضاهئوا تلك الكائنات العلوية التي لا تنالها أيديهم ولا تقذائفهم ، والتي لا يملكون من أمرها سوى النظر إليها والإعجاب بها والاستفادة منها والخضوع لها .

فذلك العجز العام عن مضاهاة الخلق ، وعن محاكاة الصنعة هو آية كونها ليست من صنع الناس ، وذلك هو الطابع الإلهي والمظهر السماوي الذي تمتاز به صنعة الخالق عن صنعة المخلوق ، وهذا هو المثل الذي نريد أن نطبقه على القرآن الكريم .

غير أن من الناس فريقاً غريقاً في حمأة العناد ، يقولون " مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين " [الأعراف : ١٣٢] {ولو أننا أنزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله } [الأنعام : ١١١] وآخرين لا يجدون طمأنينتهم إلا في اضطراب الشك ، يقولون { إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين } [الجاثية : ٣٢] { ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون} [الحجر :١٤] { ولو أننا نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين } [الأنعام : ٧] .

فهؤلاء وأولئك؛ لا سبيل لنا عليهم ، ولا ينفعهم نصحنا إن كان الله يريد أن يغويهم ، إذ ليس من شأننا أن نسمع الصم أو نهدي العمي ، ولا الذين يجعلون أصابعهم في آذانهم فإذا هم لا يسمعون ، أو يضعون أكفهم على أعينهم ، فإذا الشمس الطالعة ليست بطالعة { ومن يرد الله فتنتة فلن تملك له من الله شيئا } [المائدة : ٤١] وإنما سبيلنا أن نصب الحجة لجاهلها من طلاب الحق ، وتوضيح الطريق لسابلها من رواد اليقين .

ها نحن أولاء ندعو كل من يطلب الحق بإنصاف ، أن ينظر معنا في القرآن من أي النواحي أحب : من ناحية أسلوبه ، أو من ناحية علومه ، أو من ناحية الأثر الذي أحدثه في العالم وغيّر به وجه التاريخ ، أو من تلك النواحي مجتمعة على أن تكون له الخيرة بعد ذلك أن ينظر إليه في حدود البيئة والعصر الذي ظهر فيه ، أو يفترض أنه ظهر في أرقى الأوساط والعصور التاريخية ، وسواء علينا أيضاً أن ينظر إلى شخصية الداعي الذي جاء به أو يلتمس شخصاً خيالياً تجمعت فيه مرانات الأدباء وسلطات الزعماء ، ودراسات العلماء بكافة العلوم الإنسانية ثم نسأله : هل يجد فيه إلا قوة شاذة تغلب كل مغالب ، وتتضاءل دونها قوة كل عالم ، وكل زعيم، وكل شاعر وكاتب ، ثم تنقضي الأجيال والأحقاب ولا ينقضي فيه من عجائب ، بل قد تنقضي الدنيا ولما يحط الناس بتأويل كل ما فيه { يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق } [الأعراف : ٥٣] .

فلنأخذ الآن بعون الله وتوفيقه – في دراسة هذه النواحي الثلاثة من الإعجاز القرآني : أعني ناحية الإعجاز اللغوي ، وناحية الإعجاز العلمي ، وناحية الإعجاز الإصلاحي التهذيبي الإجتماعي ، ولتكن عنايتنا أوفر بناحيته اللغوية لأنها هي التي وقع من جهتها التحدي بالقرآن جملة وتفصيلاً في سورة سورة منه .

يبدأ الدكتور دراز حديثه عن الإعجاز اللغوي ، فيبين أن القرآن معجزة لغوية ، ولم لا يكون كذلك ، وما هي الشكوك والشبهات التي عساها تحول بين المرء وبين صدق اليقين ، يقول الدكتور دراز : من كان عنده شيء من الشك في هذه القضية فليأذن لنا أن نستوضحه : فيم ذلك الشك :

هل حدثته نفسه بأنه هو يستطيع أن يأتي بكلام في طبقة البلاغة القرآنية؟

أم هو قد عرف من نفسه القصور عن تلك الرتبة ، ولكنه لم يعرف عن الناس ما عرف من نفسه ؟

أم علم أن الناس جميعاً قد سكتوا عن معارضة القرآن ، ولكنه لم يعلم أن سكوتهم عنه كان عجزاً ، ولا أن عجزهم جاء من ناحية القرآن ذاته ؟

أم علم أنهم قد عجزوا عنه ، وأنه هوالذي أعجزهم ، ولكنه لم يعلم أن أسلوبه كان من أسباب إعجازه ؟

أم هو يوقن بأن القرآن الكريم كان وما زال معجزاً بيانية لسائر الناس ، ولكنه لا يوقن أنه كان معجزاً كذلك لمن جاء به؟

أم هو يؤمن بهذا كله ، ولكنه لا يدري : ما أسراره وما أسبابه ؟!

هذه وجوه ستة لكل وجه منها علاج يخصه .

وفي أثناء رده على هذه التساؤلات يعرض لقضيتين أثنتين ، ففي رده على التساؤل الثالث يبطل قضية الصرفة ، وفي رده على التساؤل الخامس يبين الفرق بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث ، ويذكر أن أسلوب النبي –صلى الله عليه وسلم– وإن كان –صلى الله عليه وسلم– أفصح العرب فإنه يظل بعيداً عن أسلوب القرآن الكريم ، لأنه بشر والقرآن الكريم كلام الله .

إبطاله للصرفة :

أما القول بالصرفة ، فهو يرى أنه باطل ، ذلك أن معنى القول بالصرفة أن يكونوا حاولوا الإتيان بمثل القرآن ، ولكنهم صرفوا عن ذلك ، فمثلهم كمثل الذي حاول أن يرفع جسماً ثقيلاً لظنه أنه يستطيع ذلك ، وبذل جهده ، ولكنه عبثاً يحاول إن هذا الإنسان بان عجزه بعد أن بذل أكثر من محاولة ، وكذلك هؤلاء كان سيبين لهم عجزهم بعد أن يحاولوا الإتيان بمثل القرآن ، ولو أنهم حاولوا ذلك وصرفوا ، لنقل عنهم ، ولقالوا إننا كلما حاولنا الإتيان بشيء مثله ، أحسسنا بصارف يصرفنا عما نريد ، لكنهم لم ينقل عنهم شيء من هذا ، كما لم ينقل أن أحداً من فصحائهم حاول أن يأتي بشيء مثل القرآن . وما ذلك إلا لأنهم حينما سمعوه أدركوا أنه فرق

مستوى كلامهم ، فلم يروا أن من الحكمة معارضته ، ولنستمع إلى ما قاله رحمه الله :

" أما لو كان عجزهم عن مضاهاة القرآن لعارض أصابهم ، حال بينهم وبين شيء في مقدورهم ، لما استبان لهم ذلك العجز إلا بعد أن يبسطوا ألسنتهم إليه ، ويجربوا قدرتهم عليه ، لأنه ما كان لامرئ أن يحس بزوال قدرته عن شيء كان يقدر عليه كقدرته على القيام والقعود إلا بعد محاولة وتجربة ، ونحن قد علمنا أنهم قعدوا عن هذه التجربة ، ولم يشرع منهم في هذه المحاولة إلا أقلهم عدداً ، وأسفههم رأياً ، فكان ذلك آية على يأسهم الطبيعي من أنفسهم ، وعلى شعورهم بأن عجزهم عنه فطري عتيد ، كعجزهم عن إزالة الجبال ، وعن تناول النجوم من السماء ، وأنهم كانوا في غنى بهذا العلم الضروري عن طلب الدليل عليه بالمحاولات والتجارب .

على أنهم لو كانوا لم يعرفوا عنه بادي بدء ، وإنما أدركهم العجز بعد شعورهم بأنه في مستوى كلامهم ، لكان عجبهم إذاً من أنفسهم ، كيف عيوا به وهو منهم على طرف الثمام ؟ ولجعلوا يتساءلون فيما بينهم أي داء أصابنا فعقد ألسنتنا عن معارضة هذا الكلام الذي هو ككل كلام ؟ أو لرجعوا إلى بيانهم القديم قبل أن يصيبهم العجز ، فجاءوا بشيء منه في محاذاته ، ولكنهم لم يجيئوا فيه بقديم ولا جديد ، وكان القرآن نفسه هو مثار عجبهم وإعجابهم ، حتى إنهم كانوا يخرون سجداً لسماعه من قبل أن تمضي مهلة يوازنون فيها بينهم وبين كلامهم ، بل أن منهم من كان يغلبه هذا الشعور فيفيض على لسانه اعترافاً صريحاً "ما هذا بقول بشر"[1]

النظام الصوتي في القرآن :

وبعد الرد على هذه التساؤلات الستة يشرع رحمه الله تعالى بأسلوبه

---

(١) النبأ العظيم : ص ٨٢ .

العذب، وكلماته الجذابة التي لا يمكننا أن نختصرها ، ببيان كون القرآن الكريم معجزة لغوية فيذكر أن أول ما بهر العرب من هذا الكتاب الكريم نظامه الصوتي ، وهذا النظام الصوتي له مظهران إثنان :

الأول : ترتيب الحروف في كلماتها من حيث الحركة والسكون ، فهذه حركة تعقبها حركة أو يعقبها سكون ، وكل ذلك يستهوي الأذن من قبل أن تعرف ذات الحرف وحقيقته .

أما المظهر الثاني : فهو وضع الحروف بعضها مع بعض ، فهذا حرف مجهور ، وآخر شديد ، وثالث مهموس ، ورابع فيه صفير ، وخامس فيه قلقلة .

وهذان المظهران يمثلان جمال الإيقاع في القرآن الكريم ، وهو ما يعبر عنه بالجرس الصوتي ، أو موسيقى الألفاظ وهو ما تحدث عنه الرافعي رحمه الله من قبل . وهذه هي القشرة السطحية كما يسميها رحمه الله ، يقول :

" من هذه الخصوصية والتي قبلها - المظهران - تتألف القشرة السطحية للجمال القرآني ، وليس الشأن في هذا الغلاف الا كشأن الأصداف مما تحويه من اللآلىء النفيسة ، فإنه جلت قدرته قد أجرى سنته في نظام هذا العالم أن يغشى جلائل أسراره بأستار لا تخلو من متعة وجمال ، ليكون ذلك من عوامل حفظها وبقائها بتنافس المتنافسين فيها وحرصهم عليها ، أنظر كيف جعل باعثة الغذاء ورابطة المحبة قواماً لبقاء الإنسان فرداً وجماعة ، فكذلك لما سبقت كلمته أن يصون علينا نفائس العلوم التي أودعها هذا الكتاب الكريم قضت حكمته أن يختار لها صواناً يحببها إلى الناس بعذوبته ويغريهم عليها بطلاوته ..... ومن أجل ذلك سيبقى صوت القرآن أبداً في أفواه الناس وآذانهم ما دامت فيهم حاسة تذوق ، وحاسة تسمع، وإن لم يكن لأكثرهم قلوب يفقهون بها حقيقة سره ، وينفذون بها

إلى بعيد غوره { إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون } [الحجر : ٩] [١] .

وبعد هذا يحدثنا الأستاذ رحمه الله تعالى عما وراء هذه القشرة السطحية ، بعد حديثه عن جمال الإيقاع في كتاب الله يحدثنا عن جمال التنسيق ، يقول : فإذا أنت لم يلهك جمال الغطاء عما تحته من الكنز الدفين ، ولم تحجبك بهجة الأستار عما وراءها من السر المصون ، بل فلّيت القشرة عن لبها ، وكشفت الصدفة عن درها ، فنفذت من هذا النظام اللفظي إلى ذلك النظام المعنوي تجلى لك ما هو أبهى وأبهر ، ولقيك منه ما هو أروع وأبدع » [٢] .

ويحدد مراتب أربعاً ليتحدث عنها وهي :

١- القرآن في قطعة قطعة منه .

٢- القرآن في سورة سورة منه .

٣- القرآن فيما بين السورة والسورة .

٤- القرآن في جملته .

ولكننا لم ننعم إلا بالمرتبتين الأوليين القرآن في قطعة قطعة ، والقرآن في سورة سورة ، وفاضت روحه إلى بارئها رحمه الله تعالى رحمة واسعة .

القرآن في قطعة قطعة :

خصائص أسلوب القرآن :

يبين الشيخ رحمه الله خصائص الأسلوب القرآني وهي :

١- القصد في اللفظ والوفاء بحق المعنى : وهاتان نهايتان لا يستطيع أحد من الكتّاب الجمع بينهما ، فالذي يعمد إلى أدخار لفظه ، والقصد فيه ، وعدم الإنفاق منه إلا على حدّ الضرورة لابد أن يحيف على المعنى ولا يوفيه حقه ، والذي يعمد

---

(١) النبأ العظيم : ص ٩٨ .

(٢) النبأ العظيم : ص ١٠٠ .

إلى الوفاء بحق المعنى وتحليله إلى عناصره وإبراز دقائقه ، لابد أن يطيل الكلام ويمد فيه .

لكن القرآن الكريم استطاع أن يجمع بين هاتين الخاصتين ، فإنك إذا نظرت إليه " تجد بياناً قد قدّر على حاجة النفس أحسن تقدير ، فلا تحس فيه بتخمة الإسراف ، ولا بمخمصة التقتير ، يؤدي لك من كل معنى صورة نقية وافية نقية لا يشوبها شيء مما هو غريب عنها ، وافية لا يشذ عنها شيء من عناصرها الأصلية ولواحقها الكمالية كل ذلك في أوجز لفظ وأنقاه .. "(١) .

٢- خطاب العامة وخطاب الخاصة : وهاتان كذلك غايتان متباعدتان عند الناس ، فإن الكاتب إذا أراد مخاطبة العامة لا بدّ أن ينزل إلى مستواهم فيوضح ويبين ، ولو خاطب بهذا الأسلوب الخاصة لعد كلامه معيباً ، لأن الخاصة تكفيهم اللمحة والإشارة، وهكذا تجد أن هناك أسلوباً للخاصة وآخر للعامة ، ولا يمكن أن تخاطبهما بجملة واحدة ، ولكنك واجد هذا في القرآن الكريم ، فإن الجملة الواحدة تلقى إلى العلماء والجهلاء ، والأذكياء والأغبياء .

٣- إقناع العقل وإمتاع العاطفة : النفس الإنسانية قوتان قوة تفكير وقوة وجدان ، وكل منهما تحتاج إلى مالا تحتاجه الأخرى ، والحكماء والعلماء لا يخاطبون إلا العقل والفكر ، والأدباء والشعراء لا يخاطبون غالباً إلا الوجدان ، فإنك لا تجد فيلسوفاً يخاطب عاطفتك ، أو شاعراً يخاطب عقلك ، فالحكماء هم الذين يقنعون العقل ، والشعراء والأدباء هم الذين يمتعون العاطفة ولا تجد من يجمع بينهما في الخطاب إلا ما تجده في كتاب الله تعالى .

٤- البيان والإجمال : وهذه كذلك عجيبة لا تجدها عند الكتاب ، فمن أراد أن

---

(١) النبأ العظيم : ١٠٦ .

يجمل لابد أن يذهب إلى الإبهام والإلباس ، ومن أراد تحديد غرضه وتوضيحه لم تتسع تلك لتأويل ، فهذان الطرفان لا يجتمعان إلا في كتاب الله ، فإنك إذا قرأت القطعة من القرآن وجدت الإحكام والدقة والخلو من الغريب ، ويخيل إليك أنك أحطت بها وبمعانيها ، ولكنك لو رجعت إليها كرة أخرى لاستخرجت منها معنى آخر جديداً غير الذي فهمته من قبل ، وهكذا تجد للكلمة الواحدة والجملة الواحدة وجوهاً عدة ، كلها صحيحة .

" إقرأ قوله تعالى { والله يرزق من يشاء بغير حساب } [البقرة :٢١٢] وانظر هل ترى كلاماً أبين من هذا في عقول الناس، ثم أنظر كم في هذه الكلمة من مرونة، فإنك لو قلت في معناها : إنه سبحانه يرزق من يشاء بغير محاسب يحاسبه ولا سائل يسأله لماذا يبسط الرزق لهؤلاء ويقدره على هؤلاء ؟ أصبت . ولو قلت : إنه يرزق بغير تقتير ، ولا محاسبة لنفسه عند الإنفاق خوف النفاذ أصبت ، ولو قلت: إنه يرزق من يشاء من حيث لا ينتظر ولا يحتسب أصبت ، ولو قلت إنه يرزقه بغير معاتبة ومناقشة له على عمله أصبت ، ولو قلت : يرزقه رزقاً كثيراً لا يدخل تحت حصر وحساب أصبت ، فعلى الأول يكون الكلام تقريراً لقاعدة الأرزاق في الدنيا وأن نظامها لا يجري على حسب ما عند المرزوق من استحقاق بعلمه أو عمله، بل تجري وفقاً لمشيئته وحكمته سبحانه في الإبتلاء ، وفي ذلك ما فيه من التسلية لفقراء المؤمنين ، ومن الهضم لنفوس المغرورين من المترفين . وعلى الثاني يكون تنبيهاً على سعة خزائنه وبسطة يده جل شأنه ، وعلى الثالث يكون تلويحاً للمؤمنين بما سيفتح الله لهم من أبواب النصر والظفر حتى يبدل عسرهم غنى من حيث لا يظنون ، وعلى الرابع والخامس يكون وعداً للصالحين إما بدخولهم الجنة بغير حساب، وإما بمضاعفة أجورهم أضعافاً كثيرة لا يحصرها العدّ ، ومن وقف على

علم التأويل وأطلع على معترك أفهام العلماء في آية آية رأى من ذلك العجب العاجب[1].

ويطبق الدكتور دراز هذه الخصائص على قطعة من القرآن الكريم وهي قوله تعالى { وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله ، قالوا نؤمن بما أنزل علينا ، ويكفرون بما وراءه ، وهو الحق مصدقاً لما معهم ، قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين } [البقرة :٩١] ، ففي هذه القطعة تبرز بعض العناصر وهي :

أ- مقالة ينصح بها الناصح لليهود ؛ إذ يدعوهم للإيمان .

ب- إجابتهم لهذا الناصح بمقالة تنطوي على مقصدين .

جـ- الرد على هذا الجواب بركنيه من عدة وجوه .

ويبدأ الحديث عن المقصد الأول ، ونلحظ فيه القصد باللفظ والوفاء بالمعنى ، فقد قال الناصح لليهود : آمنوا بالقرآن كما آمنتم بالتوراة ، ألستم قد آمنتم بالتوراة التي جاء بها موسى ؛ لأنها أنزلها الله ، فالقرآن الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم أنزله الله ، فآمنوا به كما آمنتم بها .

ثم كان المقصد الثاني وهو رد اليهود ، فقالوا إن الذي دعانا للإيمان بالتوراة ، ليس كونها أنزلها الله فحسب ، بل إننا آمنا بها لأن الله أنزلها علينا ، والقرآن لم ينزله الله علينا ، فلكم قرآنكم ، ولنا توراتنا ، وهنا نلحظ كذلك القصد باللفظ والوفاء بالمعنى .

ويبين الله سبحانه بأنهم قد كفروا بما وراء التوراة ،أي بكتابي عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ولم يكفروا بما قبلها ، لذلك قال « بما وراءه » .

ثم يأتي المقصد الثالث ، وهو الرد والمناقشة ، فبين لهم أولاً أنه (هو الحق)

---

(١) النبأ العظيم : ص ١١٢ (في التعليق) .

فكتابهم حق ينبغي أن يبعثهم على الإيمان بما هو حق ، والقرآن حق كذلك ، وثانياً بقوله (مصدقاً) أي هذا الحق وهو القرآن جاء كذلك مصدقاً لما في التوراة ، وثالثاً (لما معهم) فلو كان ما جاء به القرآن لا يعرفونه ، أو قد خالف ما جاء في التوراة لكان لهم بعض العذر في عدم الإيمان به ، ولكن هذا الحق جاء مصدقاً لما معهم .

ويذكر بعض اللفتات البيانية في الآيات ، فقد قال « تقتلون أنبياء الله » بصيغة المضارع ، وهذا يدل على استحضار الصورة ، وقال (من قبل) وفيه تطمين للنبي -صلى الله عليه وسلم- أنه تعالى عاصمه من القتل .

ونجد في الآيات الإجمال والبيان فقد قال (مصدقاً) ولم يذكر بماذا ، هل هو في أصول الدين أو الفروع أو ماذا ؟ ونجد الإقناع والإمتاع في قوله (وهو الحق).

الإيجاز والاطناب :

وينتقل للحديث عن الإيجاز والإطناب ، ويذكر أن الكتاب الكريم إذا أطنب كذلك فإنما هو إيجاز ، إذ المعنى هو الذي احتاج لكثرة الألفاظ ، فهو إيجاز ، وهذا هو ما قرره الجاحظ والرماني من قبل .

رده القول بالزيادة :

ويرد القول بالزيادة ، ويذكر أن كل كلمة لها معناها في القرآن ، ويمثل لذلك بقوله تعالى { ليس كمثله شيء } [الشورى : ١١] ويقول : إن للناس في هذه رأيين : فأكثرهم قالوا الكاف زائدة ، لأن الآية بوجود الكاف تنفي المثل عن شبيه الله ، فكأنها تسلم بثبوت المثل ، وقليل منهم من ذهب إلى أنه لابأس ببقائها على أصلها ، إذ رأى أنها لا تؤدي إلى ذلك المحال لا نصاً ولا احتمالاً ؛ لأن نفي مثل المثل يتبعه في العقل نفي المثل أيضاً .

وقد رد ما ذهب إليه هؤلاء ، بأن هذا الحرف جاء في موقعه وأنه لو سقط لسقطت معه دعامة المعنى ولتهدم ركن من أركانه وبين هذا من طريقين .

الأول : لو قال « ليس مثله شيء » لكان هذا نفياً للمثل المكافئ فقط ، ولكنه قال « ليس كمثله شيء » ليفيد نفي المثل المكافئ له في كل صفاته ، ونفي من هو أقل منه .

الثاني : إنه إذا قال « ليس مثله شيء » لكانت هذه دعوى فقط ولكنه قال : «ليس كمثله شيء » فهي دعوى ودليلها معها كذلك ، ومثال ذلك ، لو قلت (فلان لا يكذب) لكانت هذه دعوى ، لكن إذا قلت (مثل فلان لا يكذب) لكانت دعوى ودليل كذلك .

القرآن في سورة سورة منه

يتحدث الدكتور دراز عن الوحدة الموضوعية في السورة ، فيقول إن أي كاتب لو أراد الكتابة في معنى لابدّ أن تكون عنده القدرة الفائقة للربط بين جمله وفقراته ، فما بالك فيمن يكتب في أكثر من معنى ، فلا نجد كاتباً أو شاعراً ينتقل من معنى إلى معنى دون أن يشعر القارئ بالإنتقال .

ويذكر أن هناك أسباباً كان من الممكن أن تجعل القرآن الكريم مفكك الأوصال وهي:-

١- الزمن الطويل بين نزول الآيات .

٢- الطريقة التي أتبعت في ترتيب الآيات .

٣- الإختلاف الذاتي بين دواعي االآيات ، لأنها تنزل حسب الوقائع والأحداث ولكن مما يدل على إعجاز القرآن ، وعلى أن مصدره ليس محمداً -صلى الله عليه وسلم- أنه جاء مترابطاً في آياته وسوره على الرغم من تلك الأسباب ، ونحن إذا قرأنا السورة الطويلة المنجمة في نزولها ، لا نحس بشيء من تناكر الأوضاع ، بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة ، ويذكر أننا ينبغي أن ندرس السورة كلها حتى نستطيع البحث عن الصلات بين كل مجموعة من الآيات أو بين آية وأخرى .

طريقة القرآن في الجمع بين الآيات :

يذكر الكاتب أن القرآن :-

١- يعمد إلى الأضداد يجاور بينها فيخرج محاسن تلك ومساوئ الأخرى ومن ذلك حديثه عن فريق المؤمنين وفريق الكافرين .

٢- يعمد إلى الأمور المختلفة غير المتضادة فيجعلها تتعاون في أحكامها بالإستشهاد والإستنباط وغير ذلك .

٣- إن لم يكن بين المعنيين نسب ولا صهر ، نراه ينتقل إلى الحديث من أحدهما إلى الآخر بحسن التخلص .

ويطبق الوحدة الموضوعية واتساق الآيات بعضها مع بعض على سورة البقرة وهي أطول سورة في كتاب الله ، وقد استغرقت العهد المدني كله ، فكان نزولها في عشر سنين ، فقد ذكر فيها آيات تحويل القبلة وكان في السنة الثانية للهجرة كما نعلم ، كما ذكرت فيها آيات الربا وهي من آخر الآيات نزولاً ، كما ذكر فيها قوله سبحانه { واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى فيه كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ..... } [البقرة : ٢٨١] وقد نزلت قبل انتقال النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى الرفيق الأعلى بثمان ليال.

ورغم هذه المدة الزمنية الطويلة وهي عشر سنين فإن الذي يقرأ هذه السورة الكريمة لا يجد فيها موضعاً لثغرة من الثغرات ، والذي لا يعرف المدة التي نزلت فيها السورة الكريمة لا يرتاب في أنها نزلت دفعة واحدة ، وفي وقت واحد وذلك لما بين آياتها من صلات وثيقة وروابط محكمة واتساق بديع .

رحم الله أستاذنا الفاضل رحمة واسعة ، وجزاه عما قدم للمسلمين في كشف إعجاز الكتاب الكريم خير الجزاء ، وما أعظم الفائدة التي كنا نجنيها لو أن الخطة التي وضعها الشيخ لكتابه قد كملت فحدثنا عن الفصلين الباقيين في المعجزة

اللغوية وهي القرآن فيما بين السورة والسورة ، والقرآن في جملته ، وعن الوجهين الآخرين للإعجاز : العلمي والتشريعي ، ولكنها مشيئة الله (وإنا لله وإنا إليه راجعون) .

إن كتاب الشيخ في الإعجاز ، هو بحق فتح جديد ، فلقد هضم الشيخ كل ما كتب قبله وأفاد منه ، وقد منحه الله قوة في التقرير ، وإصابة في الفكر مع سعة علم وصدق عاطفة .

ونعترف هنا بأن ما كتبه الشيخ رحمه الله يصعب تلخيصه ، ولكننا أجتزأنا منه ما أمكننا ، والذي يود أن ينعم بكلام الشيخ فحري أن يقرأ كتابه مرة بعد مرة ونحن على يقين أنه سيجد في كل مرة فيه جديداً .

٣- الإعجاز القرآني عند سيد قطب

الشهيد سيد قطب أديب مطبوع معطاء ، وكاتب فذّ مرهف ، ثري العواطف، غني المشاعر ، ألمعي الذهن ، متقد القريحة ، وهو قبل ذلك كله وبعده يمتاز بسمو الروح ، وعمق الإدراك ، وقوة الإيمان ، تفاعل مع القرآن الكريم ، فتفاعل القرآن في نفسه ، وكان هذا التفاعل خالياً من الشوائب ، بعيداً عن الشبهات ؛ ذلكم أن تفاعل الرجل مع القرآن رحمه الله كان نتيجة رحلة طويلة قضاها مع أفكار أرضية متضاربة متباينة ، وثقافات متعددة كان أسيرها ، استهوت فؤاده ، وملكت عليه لبه ، ولكنه بعد أن خبرها جميعاً وجدها نخالات وعفارات فكان لابد من أن يرجع إلى القرآن وثيقة السماء الوحيدة الخالدة ، رجوعاً فيه سلامة العقيدة وصفاء الفكر وحاجات النفس .

ولقد سعدت المكتبة الإسلامية بهذا النتاج الثري المبارك ، فمن التصوير الفني في القرآن الكريم ، إلى مشاهد القيامة ، إلى غير ذلك من كتب ومقالات ، ولقد بلغ هذا الإنتاج قمته بما تفتق عنه فكره وقلمه ونفسه رحمه الله ، وهو كتاب الظلال .

إعجاز القرآن عند سيد قطب :-

إن سيد قطب رحمه الله لم يكتب كتاباً خاصاً في الإعجاز ، ولكن ما كتبه عن القرآن الكريم وهو كثير تتذوق فيه حلاوة الإعجاز ، ويسري فيه روحه ، وتجد فيه لبه وحقيقته ، ومن نافلة القول أن يكون الإعجاز البياني الوجه الأول والأتم عند سيد قطب رحمه الله ، ولكنه مع ذلك لم يفته أن ينبه إلى وجوه كثيرة من وجوه إعجاز القرآن ، يقول " إن إعجاز القرآن أبعد مدى من إعجاز نظمه ومعانيه، وعجز الإنس والجن عن الاتيان بمثله ، هو عجز كذلك عن إبداع منهج كمنهجه يحيط بما يحيط به [1]" .

الإعجاز البياني : (الكلمة القرآنية)

المتتبع لما كتبه سيد قطب – رحمه الله – يجده يولي الكلمة القرآنية كثيراً من العناية ، وهو ينبه على سرها ، ويبين جمالها في موضعها ، ودقتها في سياقها، وأحقية مكانها بها ، فقد أختيرت إختياراً دقيقاً ؛ لأن غيرها لا يؤدي ما تؤديه ، وهذا ما نبه عليه وأشار إليه العلماء السابقون كما عرفنا ، وإليكم بعض النماذج مما ذكره رحمه الله .

يقول وهو يقارن بين هاتين الآيتين قوله { وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج } [الحج : ٥]وقوله { ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير } [فصلت : ٣٩].

لقد جاءت كلمة خاشعة في الآية الأولى ؛ لأنها تتفق مع السياق ، فالسياق هنا سياق عبادة : لأن الآية التي قبلها تحدثت عن سجود الليل والنهار والشمس

---

(١) الظلال (١٥/٦٧) .

والقمر ، فكان من الحكمة البيانية أن يذكر هنا الخشوع، لأنه متصل بالعبادة ، أما الآية الثانية فلقد جاءت الكلمة في سياق الحديث عن نهاية الدنيا وزلزلة الساعة ، وإثبات البعث ، فكان المتلائم مع السياق أن تذكر كلمة هامدة .

ويحدثنا عن سر التعبير في كلمة (سجى) من قول الله تعالى { والضحى والليل إذا سجى } [الضحى : ١ . ٢] دون أظلم ودون يغشى : ذلك لأن هذا يتناسب مع السياق الذي جاءت له الآيات ، من أنقطاع الوحي مدة وفتوره ، فما هي إلا حالة تشبه «سجى الليل » دون أن يعم ظلامه .

وأشار إلى دقة التعبير عند قوله تعالى { وكذلك كدنا ليوسف} [يوسف:٧٦] فقال : والكيد يطلق على التدبير في الخفاء للخير أو للشر سواء ، وإن كان الشر قد غلب عليه ، وظاهر الأمر هنا أنه شر يحل بأخيه ، وهو شر يحل بإخوته لاحراجهم أمام أبيه ، وهو سوء - ولو مؤقتاً - لأبيه ، فلهذا اختار تسميته كيداً على إجمال اللفظ ، وبالإلماع إلى ظاهره ، وهو من دقائق التعبير » (١٣/٣٤) .

وقال عند قوله {ينشر لكم ربكم من رحمته } : ويحسون هذه الرحمة ظليلة فسيحة ممتدة ، { ينشرلكم ربكم من رحمته } [الكهف : ١٦] ولفظة (ينشر) تلقى ظلال السعة والبحبوحة والإنفساح ، فإذا الكهف فضاء فسيح رحيب » (١٥/٨٣) .

ويبين سر إختيار كلمة (تظلم) في قوله تعالى { كلتا الجنين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً } [الكهف : ٣٣] قال : ويختار التعبير كلمة (تظلم) في معنى تنقص وتمنع ، لتقابل بين الجنتين وصاحبهما الذي ظلم نفسه فبطر ولم يشكر، وازدهى وتكبر " (١٥/٩٤) .

ويبين سر التعبير عند قوله سبحانه « معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا

متاعنا عنده » فما السر في إستعمال هذه الكلمة (عنده) ولم يقولوا : معاذ الله أن نأخذ بريئاً مكان سارق ، لأنه يعلم أن أخاه ليس بسارق .

وهذا قليل من كثير عند سيد رحمه الله .

مميزات الأسلوب القرآني وخصائصه :

وكما حدثنا رحمه الله عن سر الكلمة ، فهو يحدثنا عن مزايا أسلوب القرآن وخصائصه ، وهو ما يجعل القرآن الكريم في أعلى طبقات البلاغة :

١- تأثيره على النفوس : يقول سيد قطب " إن الأداء القرآني يمتاز ويتميز من الأداء البشري " أن له سلطانا عجيباً على القلوب ، ليس للأداء البشري ، حتى ليبلغ أحياناً أن يؤثر بتلاوته المجردة على الذين لا يعرفون من العربية حرفاً (١٧٨٦/٣) .

٢- استثماره الألفاظ القليلة في التعبير عن القضايا الكبرى : يقول سيد قطب :

إن الأداء القرآني يمتاز بالتعبير عن قضايا ومدلولات ضخمة في حيز يستحيل على البشر أن يعبروا فيه عن مثل هذه الأغراض ، وذلك بأوسع مدلول ، وأدق تعبير ، وأجمله وأحياه أيضاً مع التناسق العجيب بين المدلول والعبارة والإيقاع والظلال والجو ، ومع جمال التعبير دقة الدلالة في آن واحد ، بحيث لا يغني لفظ عن لفظ في موضعه ، بحيث لا يجور الجمال على الدقة ولا الدقة على الجمال ، ويبلغ من ذلك مستوى لا يدرك إعجازه أحد كما يدرك ذلك من يزاولون فن التعبير فعلاً ، لأن هؤلاء هم الذين يدركون حدود الطاقة البشرية في هذا المجال ، ومن ثم يتبينون بوضوح أن هذا المستوى فوق الطاقة البشرية قطعاً [١] .

---

(١) الظلال (١٧٨٧/٣) .

٣- إحتمال النص لمعاني كثيرة كلها صحيح مقبول : يقول سيد قطب :

النص الواحد يحوي مدلولات متنوعة متناسقة في النص ، وكل مدلول منها يستوفي خطة من البيان والوضوح دون اضطراب في الأداء ، وإختلاط بين المدلولات ، وكل قضية وكل حقيقة تنال الخير الذي يناسبها ، بحيث يستشهد بالنص الواحد في مجالات شتى[١] .

٤- استحضار المشاهد وتجسيم الأحداث وتصويرها تصويراً ينفذ إلى أعماق النفس :

يقول : وللأداء القرآني طابع بارز كذلك في القدرة على استحضار المشاهد ، والتعبير المواجه ، كما لو كان المشهد حاضراً ، بطريقة ليست معهودة على الإطلاق في كلام البشر ، ولا يملك الأداء البشري تقليدها ، لأنه يبدو في هذه الحالة مضطرباً غير مستقيم مع أسلوب الكتابة [٢].

ويكاد هذا يتفق مع ما ذكره الدكتور محمد عبد الله دراز من قبل ، مع اختلاف في الأسلوب والتعبير .

نظرية التصوير الفني :

وإذا كان ما تقدم من الإعجاز البياني يشارك فيه سيدغيره من العلماء -رحمهم الله جميعاً - فإن مما إمتاز به الرجل حديثه عن التصوير الفني في القرآن الكريم ، وهو جانب من الإعجاز البياني - كما يراه كثير من الناس - [٣].

إن الأساس الذي يقوم عليه التصوير الفني كون التصوير هو الأداة المفضلة

---

(١) الظلال (١٧٨٧/٣).

(٢) الظلال (١٧٨٧/٣) .

(٣) سنعرض لهذه القضية بالتفصيل في كتابنا إعجاز القرآن المجيد إن شاء الله .

للتعبير ، والقاعدة الأساسية في الكتاب العزيز ، عدا آيات الأحكام بالطبع ، وهذا التصوير ليس للمعاني المجردة وحدها ، بل هو للحالات النفسية والحوادث التاريخية والقصص والأمثال كذلك ، وهذا التصوير يقوم على التجسيم المحسوس والتخيل ، وهو إذ يأتي بأمثلة لذلك ، يشعر القارئ وكأنه أمام مناظر بديعة ، تصور حالات من مشاهد الكون ، بل والحق يقال إن ما تحدثه الآيات في النفس أعظم وأكثر روعة وأشد أثراً من تلك .

خصائص التصوير الفني :

ويتحدث عن خصائص التصوير الفني في القرآن وهي :

أولاً : التخييل الحسي وهو أن القرآن يعبر بالصورة المحسّة المتخيلة من الأغراض والموضوعات التي يبحثها ، بحيث ترتسم صورة فنية متخيلة في خيال القاريء وهذا التخيل ألوان كثيرة منها :

التخيل بالتشخيص : بان تخلع الحياة على المواد الجامدة والظواهر الطبيعية ومن ذلك :

{ والصبح إذا تنفس } [التكوير : ١٨] يخيل إليك هذه الحياة الوديعة الهادئة التي تنفرج عنها ثناياه ، وهو يتنفس ، فتتنفس معه الحياة ، ويدب النشاط في الأحياء ، على وجه الأرض والسماء .

وهذا هو الليل يسرع في طلب النهار ، فلا يستطيع له دركاً { يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً } [الرعد : ٣] ويدور الخيال مع هذه الدورة الدائبة و التي لا نهاية لها ولا ابتداء ، أو هذا هو الليل يسري { والليل إذا يسر } فتحس سريانه في هذا الكون العريض ، وتأنس بهذا الساري على هينة واتئاد » [١] .

---

(١) التصوير الفني ، ص ٦٢ .

ومن ألوان التخييل تلك الصور المتحركة التي يعبر بها عن حالة من الحالات أو معنى من المعاني ، فالخيال في قوله تعالى { قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً } [الكهف : ١٠٩] يظل يتصور تلك الحركة الدائبة ، حركة الامتداد بماء البحر لكتابة كلمات الله في غير ما توقف ولا انتهاء ، إلى أن ينتهي البحر بالنفاد.

ومن ألوان التخييل ما يتمثل في الحركة المتخيلة التي تلقيها في النفس بعض التعبيرات مثل (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً) فهي تخيل للحس حركة النثر وصورة الهباء ، دون الحركة التي تسبقها حركة القدوم .

ثانياً : ومن خصائص التصوير التجسيم : ويعني به تجسيم المعنويات على وجه التصيير والتحويل ، ومن ذلك قوله تعالى { وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم } [الأنعام : ٣١] وفي هذا تجسيم للذنوب كأنها أحمال تحمل على الظهور، وقوله تعالى { وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع } [غافر : ١٨] ، فالقلوب كأنما تفارق مواضعها وتبلغ الحناجر حقاً من شدة الضيق (٦٧) .

ثالثاً : التناسق الفني :

ويتحدث بعد ذلك عن التناسق الفني في الآيات ، من إيقاع بين أجزائها ، وتلاؤم بين ألفاظها ومعانيها ، ومواقع كمواقع النجوم لكلماتها ، ومن ذلك قوله { إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون } [الأنفال : ٢٢] فإن الدواب تطلق عادة على الحيوان - وإن كانت تشمل الإنسان فيما تشمل لأنه يدب على الأرض - ولكن شمولها هذا للإنسان ، ليس هو الذي يتبادر إلى الذهن ، لأن للعادة حكمها في الإستعمال ، فإختيار كلمة " الدواب " هنا ، ثم تجسيم الحالة التي تمنعهم من الإنتفاع بالهدى بوصفهم " الصم البكم " كلاهما يكمل صورة الغفلة والحيوانية ،

التي يريد أن يرسمها لهؤلاء الذين لا يؤمنون لأنهم " لا يعقلون " .

ومن هذا { والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوىً لهم} [محمد : ١٢] ، فقد رسم لهم بهذا التشبيه صورة دقيقة ، إنهم يأكلون ويتمتعون غافلين عن الجزاء الذي ينتظرهم ، كما تأكل الأنعام وتمرح ، غافلة عن شفرة القصاب ، أو غافلة عما سوى الطعام والشراب [١] .

ومن التناسق كذلك استقلال اللفظة الواحدة برسم الصورة كقوله تعالى { وإن منكم لمن ليبطئن } [النساء : ٧٢] فترتسم صورة التبطئة في جرس العبارة كلها ، وفي جرس ليبطئن خاصة ، وإن اللسان ليكاد يتعثر وهو يتخبط فيها ، حتى يصل ببطء إلى نهايتها [٢] .

ومن هذا التناسق تلك المقابلات الدقيقة بين الصور التي ترسمها التعبيرات ، ومن ذلك نموذج من المقابلة النفسية بين الكافرين والمؤمنين في سورة الغاشية [٣] .

ومن التناسق كذلك التقابل بين صورتين احداهما حاضرة والأخرى ماضية ، قال تعالى { خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين } [النحل :٤] فالصورة الحاضرة هنا هي صورة الإنسان الخصيم المبين ، والصورة الماضية هي صورة النطفة الحقيرة ، وبين الصورتين مسافة بعيدة يراد إبرازها لبيان هذه المفارقة في تصرف الإنسان ، ولهذا جعل الصورتين متقابلتين ، وأغفل المراحل بينهما لتؤدي المفارقة الواضحة هذا الغرض الخاص

---

(١) التصوير الفني ، ص ٧٥ .

(٢) التصوير الفني ، ص ٧٦.

(٣) التصوير الفني ، ص ٨١.

ويحدثنا عن هذا التناسق الفني في سورة { والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى} [الليل : ١] إنهما شيئان : أسود وأبيض ، ليل ونهار ، وكأن الصورة كلها تقوم على ذلك المشهد ، فهناك الذكر والأنثى ، وأعطى واتقى ، وبخل واستغنى ، واليسرى والعسرى والآخرة والأولى ، والأشقى والأتقى .

كما يحدثنا دون تكلف عن سر الإعجاز في الفاصلة القرآنية ، وسر تغيرها ، فهذه الفاصلة في سورة مريم ، وهي تتحدث عنها وعن عيسى عليه الصلاة والسلام {واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ، فاتخذت من دونهم حجاباً ، فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً ، قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا } { قال : إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا ، وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حيا ، وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً ، والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا وفجأة وإذا بالفاصلة تتغير "، ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ، ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون } [الآيات : ١٦-٣٥] لماذا ؟ يقول : إنه الحكم يصدر ولهجة صدور الحكم تختلف عما قبلها من لهجات المرافعة والإدعاء .

وهكذا نسير معه والآيات تسير به ، وهكذا تنكشف للناظر في القرآن آفاق وراء آفاق من التناسق والإتساق ، فمن نظم فصيح ، إلى سرد عذب ، إلى معنى مترابط ، إلى متسلسل ، إلى لفظ معبر ، إلى تعبير مصور ، إلى تصوير مشخص ، إلى تخييل مجسم ، إلى موسيقى منغمة ، إلى إتساق في الأجزاء ، إلى تناسق في الإطار ، إلى توافق في الموسيقى ، إلى تفنن في الإخراج ، وبهذا كله يتم الإبداع ويتحقق الإعجاز .

القصة في القرآن :-

وحينما يعرض للقصة في القرآن ، ويذكر أغراضها الدينية ، يقفي على ذلك بالخصائص الفنية للقصة في القرآن ، ويذكر من هذه الخصائص : تنوع طريقة العرض ، وتنوع المفاجأة ، والفجوات بين المشهد والمشهد ، ليتأمل السامع ، أما الخصيصة الرابعة وهي أهم الخصائص فهي التصوير في القصة ، سواء كان هذا التصوير لقوة العرض أو العواطف والإنتقادات أو رسم الشخصيات ، فمثلاً نجد أن نهاية القصة في القرآن تتفق فنياً مع المشهد الأخير لنهاية كل قصة ، فهذه قصة موسى عليه السلام ، ذكرت آخر ما ذكرت في سورة المائدة ، حينما وصل بنو إسرائيل إلى التيه ولم ينزل شيء بعد ذلك عن سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام .

أما في تصوير العواطف والإنفعالات ، فأكتفي بمثال واحد مما ذكره ، ولنستمع إليه وهو يحدثنا عن قصة مريم عليها السلام " واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ، فاتخذت من دونهم حجاباً » فها هي ذي في خلوتها ، مطمئنة إلى إنفرادها ، يسيطر على وجدانها ما يسيطر على الفتاة في حمامها ! ولكن هاهي ذي تفاجأ مفاجأة عنيفة ، تنقل تصوراتها نقلة بعيدة ، ولكن بسبب ما هي فيه أيضاً { فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً ، قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا } [مريم : ١٧] .

ولئن كنا نحن نعلم أنه الروح الأمين ، فإنها هي لا تعلم إلا أنه رجل ، وهنا يتمثل الخيال تلك الفتاة الطيبة البريئة ، ذات التقاليد العائلية الصالحة، وقد تربت تربية دينية وكفلها زكريا ، بعد أن نذرت لله جنيناً ، هذه هي الهزة الأولى .

{ قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيا } [مريم : ١٩] ، ثم ليتمثل الخيال مرة أخرى، مقدار الفزع والخجل ، وهذا الرجل الغريب ، الذي لم تثق بعد بأنه رسول ربها ، فقد تكون حيلة فاتك يستغل طيبتها - يصارحها بما يخدش سمع

الفتاة الخجول ، وهو أنه يريد أن يهب لها غلاماً وهما في خلوة وحدهما ، وهذه هي الهزة الثانية .

ثم تدركها شجاعة الأنثى تدافع عن عرضها « قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا » هكذا صراحة ، وبالألفاظ المكشوفة ، فهي والرجل في خلوة ، والغرض من مباغتته لها قد صار مكشوفاً ، فما تعرف هي بعد كيف يهب لها غلاماً ، وما يخفف من روع الموقف أن يقول لها « إنما أنا رسول ربك » فقد تكون هذه خدعة فاتك كما قلنا ، فالحياء إذن ليس يجدي ، والصراحة هنا أولى .

{ قال : كذلك قال ربك : هو عليَّ هيِّن ، ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضيا } [مريم : ٢١] ، ثم ماذا ؟ .

هنا نجد فجوة من فجوات القصة ، فجوة فنية كبرى ، تترك للخيال تصورها ، ثم تمضي القصة في طريقها ، لنرى هذه العذراء المسكينة في موقف آخر أشد هولاً .

{ فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً ، فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً } [مريم : ٢٣] وهذه هي الهزة الثالثة .

فلئن كانت في الموقف الأول تواجه الحصانة والتربية والأخلاق بينها وبين نفسها ، فهي هنا وشيكة أن تواجه المجتمع بالفضيحة ، ثم هي تواجه آلاماً جسدية بجانب الآلام النفسيه تواجه الألم الجسمي الحاد الذي « أجاءها » إجاءة إلى جذع النخلة ، وهي وحيدة فريدة تعاني حيرة العذراء في أول مخاض ، ولا علم لها بشيء ، ولا معين لها في شيء ، فإذا هي قالت : يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً ، فإننا لنكاد نرى ملامحها ، ونحس اضطراب خواطرها ونلمس مواقع الألم فيها { فناداها من تحتها : ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً ، وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً ، فكلي واشربي وقرِّي عينا ، فإما ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً ، فلن أكلم اليوم إنسيا } [مريم : ٢٥] .

وهذه هي الهزة الرابعة ، والمفاجأة العظمى ، وإنا لنكاد نحنُ ، لا مريم نهب على أقدامنا وثباً ، روعة من هذه الهزة وعجباً ، طفل ولد اللحظة ، يناديها من تحتها ، ويمهد لها مصاعبها ويهيء لها طعامها ، ألا إنها الهزة الكبرى .

ونحسبها قد وهنت طويلاً ، وبهتت طويلاً ، قبل أن تمدّ يدها إلى جذع النخلة، تهزه ليساقط عليها رطباً جنيا ، لتتأكد على الأقل ، ويطمئن قلبها لما تواجه به أهلها – ولكن هنا فجوة تترك للخيال أن يقيم عندها قنطرة ، ويعبرها .

{ فأتت به قومها تحمله } [مريم : ٢٧] .

فلتطمئن الآن مريم ، ولتنقل الهزات النفسية إلى سواها ،{ قالوا : يا مريم لقد جئت شيئاً فريا ، يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمّك بغيا } [مريم: ٢٠].

إن الهزة لتطلق ألسنتهم بالسخر والتهكم على " أخت هارون " أو في تذكيرها بهذه الأخوة ما فيه من مفارقة ، فهذه حادثة في هذا البيت لا سابقة لها «ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا » .

فأشارت إليه " ويبدو أنها كانت مطمئنة لتكرار المعجزة هنا . أما هم فما عسى أن تقول في العجب الذي يساورهم ، والسخرية التي تجيش بها نفوسهم ، وهم يرون عذراء تواجههم بطفل ، ثم تتبجح فتشير إليهم ليسألوه عن سرها ؟ «قالوا : كيف نكلم من كان في المهد صبياً ؟ » .

ولكن ها هي ذي المعجزة المرتقبة ، { قال : إني عبد الله ، آتاني الكتاب وجعلني نبياً . وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً ، والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا } [مريم : ٣٠] .

لولا أننا قد جربنا من قبل ، لوثبنا على أقدامنا فزعاً ، أو لسرنا في مواضعنا دهشاً ، أو لفغرنا أفواهنا عجباً ، ولكننا جربنا ، فلتفض أعيننا بالدمع من التأثر .

في هذه اللحظة يسدل الستار والأعين تدمع للإنتصار ، وفي هذه اللحظة ، نسمع في لهجة التقدير ، وفي أنسب فرصة للإقناع والإقتناع .

{ ذلك عيسى ابن مريم ، قول الحق الذي فيه يمترون ، ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه ، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، وأن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم } [مريم : ٣٥] .

لقد برز الغرض الديني هنا ، وبرزت مشاهد القصة ، وبرزت معها قوة العواطف والإنفعالات وهي شيء ، وهذا اللون هو يطبعها ، ويغلب فيها على الألوان الأخرى » .

تلك هي الزاوية التي تنبه لها رحمه الله ، فتناول النص القرآني من خلالها ، وهو كما قلت من قبل ، مجدد مبتكر كسابقيه ، وإن كان لكل واحد منهم ، زواية خاصة استنار بها في عرض النص القرآني .

أما كتابه مشاهد القيامة ، فإنما هو عرض للآيات التي تحدثت عن اليوم الآخر، مصورة تلك المعاني الذهنية ، فيشبه أن يكون فصلاً شاملاً ، أو تطبيقاً عملياً لما جاء في كتاب التصوير .

سيد قطب والإعجاز العلمي :-

قلنا إن الإعجاز القرآني عند سيد - رحمه الله - إعجاز عام لا يقف عند أختيار الكلمة ، وسر التعبير بها ، ولا عند الأسلوب والبيان ، ولقد أشرنا من قبل عند حديثنا عن التحدي إلى آراء العلماء في وجوه الإعجاز ، فمنهم من يرى أن القرآن معجزة بيانية فحسب ، وأن التحدي بالبيان وحده ، وأكثرهم يرى أن وجوه الإعجاز متعددة منها البياني والعلمي وسنزيد هذه المسألة تفصيلاً إن شاء الله في الباب الثاني .

ولكن ترى في أي اتجاه سيسير صاحب الظلال وهو يتحدث عن الآيات العلمية في القرآن ؟ أيسير مع هؤلاء الذين يرقصون طرباً ويفرحون جذلاً حينما يستشفون من قرب أو بعد موافقة آية من كتاب الله لمسألة علمية ، حتى لو كانت لا تزال نظرية ليثبتوا أن القرآن كتاب الله ، ولذلك تحدث عن هذه المسائل العلمية قبل أزمنة بعيدة؟ ، أم يسير مع أولئك الذين يرفضون كل الرفض ويأبون كل الإباء أن تفسر آي القرآن بشيء من مسائل العلم ولو كانت حقائق ثابتة ، حتى لا يسمحوا بأن يستشهد بآية من كتاب الله على مسألة ما ولو كان دون المساس بالتفسير بحجة أن القرآن لم يأت للإشارة إلى المسائل العلمية ، وإذن فلا ينبغي أن تؤخذ منه تلك الإشارات ؟ .

يقيناً إنه لا يسير مع الفريق الأول الذين يلهثون وراء النظريات العلمية أياً كانت ، ذلك لأن إيمانه بالقرآن بأنه كتاب الوجود الأكبر الذي ينظم شأن الإنسان ويسمو به ، يجعله يحدد موقفه ، من تلك القضية ، التي طالما تشعبت فيها الآراء تحديداً دقيقاً ، فالقرآن الذي يسمو بالإنسان ليس كتاباً يتحدث عن الآلة الصماء ، لأن الله الذي خلق الإنسان تكفل أن يهديه ليطلع على أسرار هذا الكون بفكره .

وإذا كان صاحب الظلال لم يسر مع هذا الفريق ، فهل تستطيع أن تجعله من

الفريق الآخر الذين ينكرون على الذي يحوم حول المسائل العلمية ، وهو يفسر آي القرآن ، ولو كان ذلك استطراداً أو إشارة دون أن يمس قدسية الآية ، أو أن ينال من لغتها أو مما ورد فيها من الآثار الصحيحة ؟ .

الحق أننا حينما نستعرض موقفه نجد أنه ليس من هذا الفريق كذلك ، لقد كان الرجل معتدلاً في نظرته لتلك الأمور غير متنكب لصراط الحق السوي ، لا يتجاوز نص الآية أو روحها ، ولكنه لا يجمد كذلك على ما ذكره المتقدمون دون أن يستفيد من ظلال الآيات الممتدة في جذور الحياة وثنايا الكون ، فهو لا يمنع أبداً أن يتسع في تفسير الآيات لتشمل ما قرره العلم من حقائق ثابتة ما دام ذلك ليس فيه تكلف أو تعسف ممجوج ولا تعارض محجوج ، فالحقائق العلمية - كما يقول - إذا كنا سنتكلف لها بتحميل الايات أكثر مما تتحمله ، حري بنا أن لا نخلط بينها وبين القرآن ، فما بالك بالنظريات التي لم تثبت » .

وها هو يرد على الفريق الذين يلهثون وراء النظريات العلمية مبيناً الأسباب التي حملتهم على ذلك ، واضطرتهم إليه ، يقول :

« وكل محاولة لتعليق الإشارات القرآنية العامة بما يصل إليه العلم من نظريات متجددة ، متغيرة أو حتى بحقائق علمية ليست مطلقة كما أسلفنا تحتوي أولاً على خطأ منهجي أساسي كما أنها تنطوي على معان ثلاثة كلها لا تليق بجلال القرآن الكريم .

الأولى : الهزيمة الداخلية التي تخيل لبعض الناس أن العلم هو المهيمن والقرآن تابع ، ومن هنا يحاولون تثبيت القرآن بالعلم أو الإستدلال له من العلم ، على حين أن القرآن كتاب كامل في موضوعه ونهائي في حقائقه ، والعلم ما يزال في موضوعه ينقض اليوم ما أثبته بالأمس ، وكل ما يصل إليه غير نهائي ولا مطلق .

والثاني : سوء فهم طبيعة القرآن ووظيفته ، وهي أنه حقيقة نهائية مطلقة تعالج بناء الإنسان بناء يتفق بقدر ما تسمح طبيعة الإنسان النسبية مع طبيعة هذا الوجود وناموسه الإلهي .

الثالثة : التأويل المستمر مع التمحل والتكلف - لنصوص القرآن كي نحملها ونلهث بها وراء الفروض والنظريات التي لا تثبت ولا تستقر وكل يوم يجد فيها جديد .

وهو يرد على الفريق الثاني كذلك الذين يجمدون عند ظواهر الآيات بحجة أن ذلك لم يكن معروفاً عند السلف الصالح من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم ومن بعدهم ، ولنستمع إليه رحمه الله :

ولكن هذا لا يعني ألا ننتفع بما يكشفه العلم من نظريات ومن حقائق ، عن الكون والحياة والإنسان ، كلا إن هذا ليس هو الذي عنينا بذلك البيان ، ولقد قال الله سبحانه ،« سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »، ومن مقتضى هذه الإشارة أن نظل نتدبر كل ما يكشفه العلم في الآفاق وفي الأنفس من آيات الله ، وأن نوسع بما يكشفه مدى المدلولات القرآنية في تصورنا ، فكيف ؟ ودون أن نعلق النصوص القرآنية النهائية المطلقة بمدلولات ليست نهائية ولا مطلقة .

يقول عند قوله سبحانه { وخلق كل شيء فقدره تقديراً } [الفرقان : ٢] ، ثم تكشف الملاحظات العلمية أن هناك موافقات دقيقة وتناسقات ملحوظة بدقة في هذا الكون وحجم الشمس والقمر بالنسبة لحجمها وبسرعة حركتها هذه وبميل محورها هذا وبتكون سطحها هذا .. وبآلاف من الخصائص .... هي التي تصلح للحياة وتوائمها فليس شيء من هذا كله فلتة عارضة ولا مصادفة غير مقصودة ... هذه الملاحظات تفيدنا في توسيع مدلول « وخلق كل شيء فقدره تقديراً » وتعميقه في تصورنا ، هذا جائز ومطلوب ... ولكن الذي لا يجوز ولا يصح علمياً هذه الأمثلة الأخرى .

يقول القرآن الكريم { ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين } [المؤمنون : ١٢] ثم توجد نظرية في النشوء والإرتقاء لوالاس وداروين تفترض أن الحياة بدأت خلية واحدة وأن هذه الخلية نشأت في المادة وأنها تطورت حتى انتهت إلى خلق الإنسان... فنحمل نحن هذا النص القرآني ونلهث وراء النظرية لنقول : هذا هو الذي عناه القرآن ...... لا .... إن هذه النظرية أولاً ليست نهائية ، فقد دخل عليها من التعديل في أقل من قرن من الزمان ما يكاد يغيرها نهائياً ، .... وهي معرضة غداً للنقض والبطلان بينما الحقيقة القرآنية نهائية وليس من الضروري أن يكون هذا معناها .

ويقول القرآن الكريم { أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما } [الأنبياء : ٣٠] ، ثم تظهر نظرية تقول : إن الأرض كانت قطعة من الشمس فانفصلت عنها ، فنحمل النص القرآني ونلهث لندرك هذه النظرية العلمية ونقول : هذا ما تعنيه الآية القرآنية .

لا ليس هذا هو الذي تعنيه فهذه نظرية ليست نهائية ، وهناك عدة نظريات عن نشأة الأرض في مثل مستواها من ناحية الإثبات العلمي ، أما الحقيقة القرآنية ، فهي نهائية ومطلقة ، وهي تحدد فقط أن الأرض فصلت عن السماء .. كيف ؟ ما هي السماء التي فصلت عنها ؟ هذا ما لا تتعرض له الآية ... ومن ثم لا يجوز أن يقال عن أي فرض من الفروض العلمية في هذا الموضوع إنه المدلول النهائي المطلق للآية .

وحسبنا هذا الاستطراد بهذه المناسبة فقد أردنا به إيضاح المنهج الصحيح في الانتفاع بالكشوف العلمية في توسيع مدلول الآيات القرآنية دون تعليقها بنظرية خاصة أو بحقيقة علمية خاصة تطابق وتصدق ... وفرق بين هذا وذاك [١] .

---

(١) الظلال (٢/٩٤ - ٩٩) .

ولا نود أن نسترسل فنذكر أمثلة للإعجاز العلمي عند سيد ، حتى لا تتسع مساحة الكتاب ، ثم إن أمثلة الإعجاز العلمي أو التفسير العلمي تكاد تكون واحدة عند العلماء المحدثين ، وسنفصل القول في هذا عند حديثنا عن الإعجاز العلمي إن شاء الله .

الإعجاز التشريعي عند سيد :-

قلنا إن صاحب الظلال -رحمه الله- يرى أن الإعجاز القرآني عام لا يخص جانباً دون آخر ، وطبيعي أن يلمس القارىء ذلك وهو يتحدث عن آيات الأحكام ، فهو رحمه الله ينأى بالقارىء عن التفريعات والتشعيبات والخلافات الفقهية والتشاد المذهبي إلا ما تمس له الضرورة وتدعو إليه الحاجة ، إنك تلمس وتدرك وأنت تقرأ تعليقهُ على آيات الأحكام تفرد القرآن بهذا السمو في التشريع وتلك العظمة في تقرير الأحكام ، إنه يوجه المسلمين نحو هذا القرآن كتاباً إنسانياً تاماً في أحكامه ، كاملاً في هدايته ، حياً في منهجه ، حركياً في هيمنته على النفوس ، متناسقاً في مبانيه متسقاً في معانيه ، ويستثير عواطفهم ليعيشوا في ظلال التوجيهات الربانية .

وإنك تجده وهو يتذوق الإعجاز القرآني لا يفصل بعضها عن بعض ، فهو ، وهو يتحدث عن الإعجاز التشريعي في الآيات لا يفوته أن يحدثك عما فيها من إعجاز بياني كذلك ، استمع إليه وهو يتحدث عن آية الدين ، يقول : إن الإنسان يقف في عجب وفي إعجاز أمام التعبير التشريعي في القرآن حيث تتجلى الدقة العجيبة في الصياغة القانونية حتى ما يبدل لفظ بلفظ ، ولا تقدم فقرة عن موضعها أو تؤخر ، وحيث لا تطغى هذه الدقة المطلقة في الصياغة القانونية على جمال التعبير وطلاوته وحيث يربط التشريع بالوجدان الديني ربطاً لطيف المدخل ، عميق الإيحاء ، قوي التأثير ، دون الإخلال بترابط النص من ناحية الدلالة القانونية.

إن الإعجاز في صياغة آيات التشريع هنا لهو الإعجاز في صياغة آيات الإيحاء والتوجيه ، بل أوضح وأقوى [(١)] ؛ لأن الغرض هنا دقيق يحرفه لفظ واحد، ولا ينوب فيه لفظ عن لفظ ، ولولا الإعجاز ما حقق الدقة التشريعية المطلقة والجمال الفني المطلق على هذا النحو الفريد .

ولن نتوسع في نقل كثير من النصوص حتى لا تتسع مساحة الكتاب من جهة ، ولأن لهذا الوجه التشريعي من الإعجاز مكانه في هذا الكتاب من جهة أخرى، ونكتفي بمثال واحد ، يصلح لأنه يكون إعجازاً تشريعياً من جهة وعلمياً من جهة أخرى .

يقول رحمه الله عند قوله { إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير } [النحل: ١١٥] فأما الخنزير فيجادل فيه الآن قوم ، والخنزير بذاته منفر للطبع النظيف القويم ، ومع هذا فقد حرمه الله منذ ذلك الأمد الطويل ليكشف علم الناس منذ قليل ، أن في لحمه ودمه وأمعائه دودة شديدة الخطورة (الدودة الشريطية وبويضاتها المكتسبة) ويقول الآن قوم إن وسائل الطهو الحديثة قد تقدمت فلم تعد هذه الديدان وبويضاتها مصدر خطر ؛ لأن إبادتها مضمونة بالحرارة العالية التي توفرها وسائل الطهو الحديثة وينسى هؤلاء الناس أن علمهم قد احتاج إلى قرون طويلة ليكشف آفة واحدة ، فمن ذا الذي يجزم أن ليس هناك آفات أخرى في لحم الخنزير لم يكشف بعد عنها ؟ أفلا تستحق الشريعة التي سبقت هذا العلم البشري بعشرات القرون أن نثق بها وندع كلمة الفصل لهذا ونحرم ما حرمت، ونحلل ما حللت وهي من لدن حكيم خبير» [(٢)] .

---

(١) لسنا مع المؤلف في قوله " بل هو أوضح وأقوى " إذ أن الإعجاز واحد في وضوحه وقوته في جميع آيات القرآن ، نقول هذا لأن عبارته تشير إلى التفاضل .

(١) الظلال (٢/ ٥٧) .

الإعجاز البياني في القرآن / بنت الشاطيء

يشتمل هذا الكتاب كما سمته كاتبته على موضوعين اثنين :

الأول : إعجاز القرآن .

الثاني : مسائل نافع بن الأزرق .

وكنا نود أن يكون كل من الموضوعين في كتاب مستقل ، والذي يعنينا هنا الموضوع الأول (الإعجاز البياني) حيث بدأته الكاتبة بقولها : " لولا نسب لي في الشيوخ عريق ، لتهيبت التصدي لهذا الموضوع الدقيق الصعب ، الذي توارد عليه أئمة من علماء السلف ، أفنوا أعمارهم في خدمة القرآن الكريم ، وقدموا إلى المكتبة الإسلامية ثمار جهودهم السخية الباذلة "[1] وقد عرضت الكاتبة فيه عدة مباحث :

١) مدخل إلى الموضوع .

٢) المبحث الأول : وفيه المعجزة ، وقضية التحدي ، وآيات المعاجزة ، ووجوه الإعجاز، والبلاغيون والإعجاز .

٣) المبحث الثاني : رأي في الإعجاز وفيه :

أ- فواتح السور وسر الحروف .

ب- دلالات الألفاظ وسر الكلمة .

جـ- الأساليب وسر التعبير .

المدخل : عرضت فيه المسيرة التاريخية للإعجاز منذ القرن الثالث الهجري إلى هذا القرن ، ولنا عليها في مدخلها هذا ملحوظتان :-

---

(٢) الإعجاز البياني / بنت الشاطيء ، ص ١١ ، وليت الكاتبة بقيت عند ما قالته ، لكننا سنجدها فيما بعد تنكرت لهؤلاء الأئمة .

الملحوظة الأولى : أننا نجد الكاتبة تحاول أن تنتقص من قدر علمائنا السابقين، وتصورهم جميعاً صورة مستكرهة منفرة،ولم تتحدث بكلمة واحدة تبين فيها منزلة هؤلاء الأعلام الأقدمين منهم والمحدثين ، بل همزتهم ونالت منهم جميعاً. وليس هذا أمراً مقبولاً، كما أنها أهملت ما ذكره السابقون من الإشادة بفضل من سبقهم ، فهي مثلاً تنتقل تكفير ابن حزم للباقلاني، لكنها تهمل إشادة العلوي بعبد القاهر الجرجاني[1] ، وهذا أمر ما أظنه يليق بصاحبة النسب العريق بالشيوخ كما ذكرت عن نفسها .

الملحوظة الثانية : حينما تتحدث عن القرن الثامن تذكر قول صاحب الطراز يحيى بن حمزة العلوي ،« أن السابقين أغلقوا بلاغة القرآن ثم تقول : ثم لو عذرنا من كان منهم ليس له حظ في المباحث الكلامية الآلهية ، ولا كانت له قدم راسخة في العلوم وهم الأكثر كالسكاكي وابن الأثير وصاحب التبيان » وتعلق في الحاشية بأن صاحب التبيان لعله ابن قيم الجوزية صاحب التبيان في أقسام القرآن .

وما كان ينبغي للكاتبة ، وهي التي تتحدث عن الإعجاز وتاريخه أن تفوتها مثل هذه البدهية لما يلي :-

أولاً : لا ينكر أحد أن ابن القيم كان ذا قدم راسخة في علم الكلام ، فلا يمكن أن يقصده العلوي .

ثانياً : إن كتاب ابن القيم أقسام القرآن ليس كتاباً في موضوع الإعجاز .

ثالثاً : ذكر العلوي في الطراز أن اسم صاحب كتاب التبيان عبد الكريم أو عبد الواحد ، وابن القيم اسمه محمد بن أبي بكر [2] إ ن صاحب التبيان هذا هو ابن

---

(١) الطراز (١/٣-٤) . (٢) الطراز (٣/٣٦٨) .

الزملكاني ، وهو معروف في بيئة الذين كتبوا عن الإعجاز .

ثم تحدثت عن المعجزة وآيات التحدي ، وما نظنها جاءت بجديد ، ولكنها لا تدع فرصة تسنح لها إلا وتنال من الباقلاني وترد عليه ، وهناك بعض الملحوظات على ما قالته ، منها : أنها ذكرت أن أول آيات التحدي كانت في سورة الإسراء ، وسورة الإسراء كما نعلم جميعاً كانت متأخرة النزول ؛ لأن الإسراء كما يرى أكثر العلماء كان قبل الهجرة بسنة أو أكثر قليلاً ، فلا يعقل - إذن - أن تكون آية الإسراء هي أول آيات التحدي .

وعند حديثها عن وجوه الإعجاز ، تنقل آراء السابقين ، وتركز على أن أعظم هذه الوجوه ، الإعجاز البلاغي ، وتبين أنها لا تتعرض للإعجاز العلمي ، لأن كثيرين ممن عرضوا لهذا الوجه ليسوا من ذوي الإختصاص .

البلاغيون والإعجاز : وفي هذا الفصل أسهبت الكاتبة في الحديث عن الذين كتبوا في الإعجاز : الخطابي ، الرماني ، وعبد الجبار ، عبد القاهر ، وكانت لها ملاحظ ومآخذ لا نرى ضرورة لذكرها هنا ، وقد سجلناها كلها في كتابنا الأم (إعجاز القرآن المجيد عرض ونقد وتجديد) .

وأول الموضوعات التي بدأت بها هذا المبحث فواتح السور ، وقد ذكرت أقوال المفسرين في هذه الحروف وخلصت إلى ما قرره الزمخشري وكثير من المحققين ، وهو أن هذه الحروف قصد بها التحدي ، وذلك لأنها كان يذكر بعدها القرآن الكريم مباشرة مثل قوله تعالى { ن والقلم وما يسطرون } [القلم:١] ، { ص والقرآن ذي الذكر } [ص : ١] ، { ق والقرآن المجيد } [ق:١] ،{ الم ذلك الكتاب لا ريب فيه } [البقرة : ١]

أما الموضوع الثاني الذي تحدثت عنه في كتابها ، فهو سر الحروف وابتدأت الحديث عن الزوائد ،

١) تنكر الكاتبة الزوائد في كتاب الله تبارك وتعالى ، وهي تتحدث عن الباء في خبر (ليس) التي عدها النحويون زائدة .

أحصت الكاتبة مواضع مجيء الباء في خبر ليس فكانت في ثلاثة وعشرين موضعاً ، وذكرت بأن مجيئها مطرداً في هذه الآيات ، وهنا في مقابل آيات ثلاث جاء فيها خبر ليس غير مقترن بالباء ، وهذه الآيات هي آية النساء { يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ، ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مومناً } [النساء : ٩٤] وفي هود { ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم } [هود : ٨]وفي الرعد { ويقول الذين كفروا لست مرسلاً } وهذه المواضع لم تقترن فيها الباء بخبر ليس ؛ لأن المقام مستغن عن تقرير النفي كما في هود .

أما إذا كان الخبر منفياً بما وليس في الجمل الخبرية واقترن الخبر بالباء ، فإن هذه الباء تفيد تقرير النفي بالجحد والإنكار ، وقد يأتي بعد النفي الفعل (كان) وفي هذه لا يقترن الخبر بالباء ؛ وذلك لأن النفي بهذا الأسلوب يفيد الجحد أصالة .

أما الجمل الاستفهامية فيطرد فيها اقتران خبر ليس بالباء ، وبها يخرج الاستفهام إلى إثبات حاسم وتقرير بات كقولك « أليس الله بقادر » والاجابة تكون بـ (بلى) وفي هذا اثبات وتقرير لهذا الأمر .. وهو جهد للكاتبة مشكور .

٢) القول بحذف بعض حروف المعاني ، وتناوب الحروف بعضها مكان بعض : وتعرض الكاتبة لموضوعين هما من صلب مباحث البيان الأول : قضية حذف بعض حروف المعاني ، مثل قوله { وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين } [البقرة : ١٨٤] حيث قررت أن لا صحة لما قيل من أن هنا حرفاً محذوفاً والتقدير (وعلى الذين لا يطيقونه) قالت ان معنى الآية وعلى الذين يطيقونه ، أي يصومونه بصعوبة

ومشقة ، ونحن معها في إنكار أن يكون في الآية حرف محذوف ، ولكننا لسنا معها في التفسير الذي ذهبت إليه ؛ لأنه لا يتفق مع الرحمة والحكمة ، ومع يسر التشريع، فلا يعقل أن يقول القرآن للذين يصعب عليهم الصوم ، كالشيخ الهرم والمريض مرضاً مزمناً : إذا كان الصوم يصعب عليكم ، فإنه يمكنكم أن تخرجوا فدية، ولكن صومكم خير لكم .

وتعرض الكاتبة لإلغاء الحروف ونيابة بعضها مكان بعض ، وتمثل لهذا بقوله سبحانه « لا يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الأخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم » وتقول إن المفسرين ألغوا هذا الحرف (لا) في قوله لا يؤمنون بالله، وتمثل للثاني - التناوب - بقوله سبحانه [وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع } [النساء : ٣٠] ، وتقول إن المفسرين ذهبوا إلى أن الواو بمعنى (أو) وبقوله حديثاً عن المنافقين " وهم في ريبهم يترددون " وتدعي أن المفسرين قالوا إن (في) بمعنى (عن) أي (وهم عن ريبهم) ، وبقوله سبحانه «فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون » فتقول إن (عن) بمعنى (في) كما ذهب المفسرون ، والمعنى (في صلاتهم ساهون) .

ونحن مع الكاتبة في نفي زيادة بعض الحروف ، ونفي إلغائها ، ونفي التناوب ولكننا لسنا معها ولن نكون معها كذلك ، إذ تنسب هذا إلى المفسرين ، وكنا نتمنى أن تحدثنا عن أولئك المفسرين الذين نسبت إليهم الأقوال ، وها هم أئمة التفسير البياني ، وها هي الكتب المعتبرة في التفسير ، وعلى سبيل المثال ، ها هو تفسير روح المعاني لعلامة الرافدين الألوسي - رحمه الله - وهو آخر التفاسير من حيث التحقيقات البيانية وما يتصل بها ، لا نجد فيه شيئاً مما ذكرته الكاتبة .

ولقد ذكر الخطابي في رسالته بسنده أن رجلاً سأل أبا العالية عن قوله سبحانه { فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون } [الماعون : ٤ . ٥] بحضرة

الحسن البصري ، فقال أبو العالية هذا لمن يسهو في صلاته ، قال الحسن البصري - رحمه الله - لا يا أبا العالية إن الله يقول (عن صلاتهم) ولم يقل (في صلاتهم).

ولقد تحدث المفسرون عن سر استعمال (الواو) في قوله { مثنى وثلاث ورباع } [النساء : ٣] بدل (أو) ، أفيجوز للسيدة الكاتبة أن تطلق هذا الكلام إطلاقاً من غير تمحيص ، وتقول ـ يقول المفسرون ؟ وهي تعلم أن كثيرين سينقلون كلامها على أنه من المسلمات .

إن تصيد الأقوال الشاذة ، ونسبتها إلى جمهور المفسرين والعلماء لا يقره منطق الأمانة والعلم .

وتنتقل إلى فصل آخر وهو (دلالات الألفاظ وسر الكلمات) تعالج فيه قضية الترادف في العربية ، وقد بينت اختلاف العلماء في هذه المسألة فمنهم من يقول بالترادف ، ومنهم من ينكره ، وظل هذا الخلاف قائماً حتى راج في العصور الأخيرة القول بالترادف ، ثم اقترح أحد السادة الأعضاء في المجمع اللغوي في القاهرة أن يصنف معجم لألفاظ العربية يخفف فيه من ثقل المترادفات ، والكاتبة بدورها تنكر وجود الترادف في العربية ، وقد مثلت لذلك في القرآن الكريم .

١- الرؤيا والحلم : بينت أن الحلم يأتي في القرآن الكريم ويكون المقصود منه الاضغاث المشوشة ، والهواجس كقوله { قالوا أضغاث أحلام } [يوسف :٤٤] ، أما الرؤيا فجاءت في الرؤيا الصادقة ، واستعملت مفردة دلالة على تميزها ووضوحها وصفائها .

٢- أنس وأبصر : الايناس ليس مجرد الابصار ، ولكنه يزيد عليه بالطمأنينه المؤنسة ، وهذا ما يدل عليه السياق في الآيات { إني آنست ناراً } [طه: ١٠] وهو قد أبصرها وأنس بها ، وقوله { حتى تستأنسوا } [النور:٢٧] ليس مجرد الاستئذان ، وإنما هو حس الايناس لدى أهل البيت .

٣- النأي والبعد : النأي هو الإعراض والصد والإشاحة { وإذا انعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه } أما البعد فهو ضد القرب ، سواء كان بعداً مادياً أم معنوياً { بعدت عليهم الشقة } [التوبة : ٤٢] ، { وقيل بعداً للقوم الظالمين } [هود : ٤٤].

وهكذا تبين الكاتبة مشكورة مدلولات الألفاظ ، فلكل كلمة في كتاب الله معناها ومدلولها ، وهو ملحظ دقيق طيب ، لم تكتف الكاتبة فيه بالدراسة النظرية، بل قامت مشكورة بدراسة عملية تطبيقية .

وتتنقل إلى فصل آخر بعنوان (الأساليب وسر التعبير) وتتحدث عن حذف الفاعل : فالأفعال في القرآن الكريم كثيراً ما تأتي مبنية للمجهول ، أو مسندة إسناداً مجازياً ، ذكرت الكاتبة أن البلاغيين يكتفون بالقول بأن الفاعل قد حذف للعلم به أو الجهل ، أو الخوف منه أو عليه ، وتبين هي أن الفعل إذ كان مبنياً للمجهول ، يكون حذف الفاعل لتركيز الإهتمام على الحدث بصرف النظر عن المحدث، وأن الإسناد المجازي يعطي المسند إليه فاعلية محققة يستغنى بها عن ذكر الفاعل الأصلي ، ويظهر هذا في مشاهد يوم القيامة مثل { ونفخ في الصور } [الكهف : ٩٩]، {وجيء يومئذ بجهنم } [الفجر : ٢٣]، { وسيق الذين اتقوا ربهم} [الزمر : ٧٣] فلم يذكر الفاعل هنا وذلك للتركيز على الحدث .

وقد لا يذكر الفاعل ليبين أن الحدث يحدث تلقائياً ، أو على وجه التسخير، كأنه ليس بحاجة لفاعل كقوله { اقتربت الساعة وانشق القمر } [القمر : ١] .

وما ذكرته الكاتبة أشار إليه عبد القاهر - رحمه الله - ثم ذكره من بعده من المفسرين وعلماء البلاغة .

وقد تحدثت بنت الشاطيء كذلك عن القسم بالواو ، وخالفت المفسرين فيما ذهبوا إليه ، وارتأت أن الواو هنا قد خرجت عن أصل معناها اللغوي وهو القسم

للعظم إلى معنى بلاغي هو اللفت إلى حسيات لا تحتمل أن تكون موضوع جدل ، وهذا يكون توطئة لبيان معنويات يماري فيها ، فالقسم بالفجر والصبح والشمس والنهار ، يجلو معاني من الهدى والحق والضلال والباطل .

ولسنا معها فيما ذهبت إليه بالطبع ، بل نحن مع جمهور المفسرين ، ولقد ناقشنا هذا القول ماله وما عليه [1] .

وتتحدث الكاتبة عن السجع ، وتذكر آراء العلماء السابقين ، وهي لا ترى بأساً أن يكون في القرآن سجع ، وأن تسمى رؤوس الآيات فواصل ، وهو ما ذهب إليه أكثر العلماء ، ومن ذلك قوله تعالى { ما ودعك ربك وما قلى } [الضحى:٣] قالوا إن المفعول قد حذف مراعاة للفاصلة ، ولكنها ترد هذا القول بأن حذف الكاف من (قلى) مع دلالة السياق عليه تقتضيه حساسية مرهفة بالغة الدقة هي تحاشي خطابه تعالى رسوله في موقف الإيناس بصريح القول : وما قلاك : وذلك لما في القلى من الإبعاد وشدة البغض ، أما التوديع ، فلا شيء فيه ، وهو لا يكون إلا بين الأحباب ويكون مع رجاء العودة وأمل اللقاء .

وهذا القول سبقها إليه أئمتنا وإن لم تشر إليهم .

وأخيراً تتحدث الكاتبة عن سر التعبير في قوله « لا أقسم » ، وبعد أن تذكر أقوال العلماء جميعاً وتردها تبين رأيها ، فقوله سبحانه « لا أقسم » لو قسم من الله تبارك وتعالى ، ولا حاجة لله في أن يقسم ، لذلك كانت تسبق (لا) النافية كل فعل قسم مسند لله تبارك وتعالى ، وذكرت أن هناك فرقاً بعيداً بين أن

---

(١) المجلة الثقافية / الجامعة الأردنية ، العدد السادس ، ١٩٨٥ ، ص ٩٧ .

تكون (لا) لنفي القسم ، وبين أن تكون لنفي الحاجة للقسم ، ومن نفي الحاجة للقسم يأتي التأكيد والتقرير : لأنه يجعل المقام في غنىً بالثقة واليقين عن الإقسام ومثلت لذلك بقولك لصديقك " لا أوصيك بكذا " تأكيداً للتوصية بنفي الحاجة إليها.

ولكن إذا كان الله تعالى ليس بحاجة إلى قسم : فكيف يتفق هذا مع قوله « فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » وقد أقسم الله تعالى هنا .

هذه خلاصة موجزة لكتاب الإعجاز البياني لبنت الشاطيء ، وقد توسعنا الكلام عنه في بحثنا الذي أشرنا إليه آنفاً ، وفي كتابنا (إعجاز القرآن المجيد) .

الشيخ محمد متولي الشعراوي :

عرفه الناس عن طريق الإذاعة والتلفاز ، وهو متحدث لسنٌ ، يشرب حديثه شيئاً من اللهجة المصرية ، وهو إذ يتحدث بحسن العرض بأسلوب شيق ، لذا أعجب به كثير من المشاهدين والمستمعين ، وتدور أحاديثه أكثرها حول تفسير لبعض آي القرآن الكريم ، ولم يخرج الشعراوي كتباً ، ولكن أحاديثه للإذاعة والتلفاز كانت تسجل ثم تفرغ من الأشرطة على الورق ، ويراجعها بعض المعجبين ، ويدفعون بها إلى بعض دور النشر ، ومنها كتاب المعجزة [1] ، وهو كتاب يتكون من أربعة أجزاء ، وما دام الرجل لم ينقح ما سيرسله إلى المطبعة ، فإن من الطبعي أن يغلب طابع التكرار على ما في هذا الكتاب ، حتى إننا لنجد القضية الواحدة تذكر مرات عديدة ، هذا من حيث الشكل والقالب .

أما من حيث الموضوع والمضمون ، فإن ما تحدث به الشيخ الشعراوي ، ونشر فيما بعد فيه كثير من اللفتات ، وقد تكون هذه اللفتات بيانية ، وقد تكون تاريخية ، وقد تكون علمية ، تتصل بالكون والإنسان ، وإن المتتبع لما ذكره الشيخ يصل إلى النتائج التالية .

١- إن أكثر ما ذكره الشيخ قد ذكره العلماء من قبله ، ولكن أسلوب الشيخ وجدة العرض أولاً وعدم صلة أكثر الناس بالتراث ثانياً، وسكوت الشيخ عن مراجعه ثالثاً ، هذه الأسباب كلها جعلت الناس يظنون أن ما يأتي به الشيخ جديد .

٢- إن ما ذكره الشيخ من القضايا المعاصرة قد سبق إليه كذلك .

٣- إن الكتاب الذي سمي إعجاز القرآن ، والذي يتكون من أجزاء أربعة ،

---

(١) ذكر الدكتور صلاح الخالدي أن هذا الكتاب كتبه الشعراوي بقلمه ، وكلمة الناشر ، لا تتفق مع هذا القول وتشير إلى ما قلناه .

أحرى به أن يسمى دروساً في التفسير ، فإن ناشر الكتاب حاول أن يصنف بعض موضوعاته ، ومع ذلك كان التكرار سمة ظاهرة في الكتاب ، هي دروس في التفسير ، حاول الشيخ وهو يتحدث أن يبين القيم الكثيرة التي تشتمل عليها الآيات ، فهو يتحدث مثلاً عن بعض الآيات في بعض السور ، وما يعرض له من خواطر في هذه الآيات : في القصص القرآني ، وفي آيات التشريع ، وفي آيات البر، والآيات التي تتحدث عن يوم القيامة بطريقته الجذابة وأسلوبه الشيق .

٤- إن كثيراً مما يتحدث به الشيخ قد يظهر فيه التكلف والخروج عن المقبول والمعقول ؛ ولذا وجدنا من الكتّاب المسلمين من يناقشه ويرد عليه ، ومن هؤلاء مثلاً : كتاب بعنوان (أمانة التفسير وفلسفة الإيمان ... لا يا فضيلة الشيخ) ، ويقصد بالشيخ هنا الشعراوي ، مؤلف الكتاب الدكتور علي حسن ، وقد قدم لهذا الكتاب ، الأستاذ عبد الكريم الخطيب - رحمه الله - ، وهو يثني على الكتاب والكاتب [(١)]

هذه هي أهم الملحوظات على دروس الشيخ الشعراوي التي أخرجت فيما بعد في كتاب سمي (معجزة القرآن) .

وسأكتفي بنقل نماذج ثلاثة للتدليل على ما قلت ، وقد قلت أن كثيراً مما ذكره الشيخ يظهر في بعضه التكلف ، وبعضه قد ذكره أئمتنا وعلماؤنا الأقدمون ، أما ما ذكره من قضايا التفسير العلمي ، فهي مما نبه عليه ذوو الاختصاص في التفسير العلمي .

النموذج الأول قوله تعالى { قل سيروا في الأرض } [الأنعام : ١١] ، يقول: لماذا قال : سيروا في الأرض ولم يقل على الأرض ؟ ، إن حرف (في) يدل على

---

(١) سنناقش كل ما ذكره الشيخ في كتابنا (إعجاز القرآن) إن شاء الله .

الظرفية لأن الأرض ظرف المشي والسير ، إن الأرض التي أمرتنا الآية بالسير فيها ، ليست هي الأرض بمفهومها المادي فقط ، أي ليست هي الكرة الأرضية بما فيها من ماء ويابسة ، ولكن الأرض هي بغلافها الجوي ، فالغلاف الجوي جزء من الأرض يدور معها ويلازمها ومكمل للحياة معها ... فما دام الإنسان في الغلاف الجوي فهو في الأرض ، وهنا نعرف الحكمة من التعبير بكلمة (في) دون كلمة (على) [1] .

وما ذكره الشيخ هنا لا يخلو عن مناقشة ، لا لأننا ننكر الغلاف الجوي للأرض ، بل لأن المتدبر لآي القرآن الحكيم يجد في تفسير الشيخ تحميلاً للآية فوق ما تحمل .

إن القرآن الكريم استعملت فيه كلمة الأرض كثيراً ، وكانت تستعمل مجرورة بحرف الجر (في) في جميع الآيات القرآنية { فسيحوا في الأرض } [براءة :١١] { قل سيروا في الأرض } [الأنعام : ١١] { أولم يسيروا في الأرض } [الروم:٩] {ولا تمش في الأرض } [الإسراء : ٣٧] { وما من دابة في الأرض } [الأنعام :٣٨] واستعملت مجرورة بحرف الجر (على) في قوله سبحانه { ويمسك السماء أن تقع على الأرض } [الحج : ٦٥] وقوله { وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا} [الفرقان : ٦٣] والتي تعنينا هذه الآية الثانية ، فلماذا استعمل حرف الجر (في) في الآيات السابقة ، واستعمل حرف الجر (على) في هذه الآية ، والغلاف الجوي هو هو ؟

إن حرف (على) يدل على الاستعلاء ، و (في) تدل على الظرفية ، والله تبارك وتعالى من رحمته مهد الأرض ، وذللها لنا { الذي جعل لكم الأرض مهداً ،

---

(١) المعجزة للشعراوي ، ص ٤٥ .

وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون } [الزخرف : ١٠] { هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها } [الملك : ١٥] ، وجعلها لنا مستقراً ، وجعل لنا فيها متاعاً ، جعل منها حياتنا ومماتنا { ولكم في الأرض مستقرٌ ومتاع ، إلى حين } [الأعراف : ٢٤] ،{ قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون } [الأعراف: ٢٥] .

وعلى ضوء هذه الآيات الكريمة ، يمكننا أن ندرك السر الذي استعملت من أجله كلمة (في) ، فقد هيأ الله لنا هذه الأرض نسير فيها دون تكلف ، ونمشي فيها دون عناء ، ظاهرها لنا أحياء ، وباطنها لنا أمواتاً { ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا ، وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتا } [المرسلات:٢٥ . ٢٧] .

فكلمة (في) تفيد هذا المعنى ، ألا ترى إلى قوله صلى الله عليه وسلم "إياكم والجلوس في الطرقات " ، وكلمة (على) لا تعطي هذا المعنى ، لا تعطي معنى التذليل والتسهيل والتسخير ، بل (على) تعطي شيئاً غير هذا ، تقول سرت على السطح وعلى الجبل ، والوصول إليهما لابد له من جهد وعناء . ثم لماذا استعملت كلمة (على) في قوله " وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا " ؟ إن لذلك سراً بيانياً عجيباً ، إن عباد الرحمن أكرمهم الله بالعزة " ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين " ، فهم الأعلون دائماً ، وهذه هي الآية الوحيدة التي استعملت فيها كلمة (على) ، فهم يشعرون بهذا العلو الذي ميزهم الله به ، ولكنه علو ليس فيه فساد ، إنما هو علو فيه شكر الله وتواضع ، وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة " وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما " .

وهكذا يبرز السر البياني لكل من الحرفين ، ولقد ناقشنا الشيخ الشعراوي في مواضع من كتابه في غير هذا الكتاب .

النموذج الثاني قوله { واصبر على ما أصابك ، إن ذلك من عزم الأمور } [لقمان: ١٧] ، وقوله { ولمن الصبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور } [الشورى : ٤٣] ، فقد زيدت اللام في آية الشورى ، والسر في ذلك أن المصائب التي تصيب الإنسان نوعان الأول : مصائب ليس فيها غريم مثل المرض والجوع ، والألم ، وهذا النوع هين لا يملك الإنسان رده ، والصبر عليه لا يحتاج إلى طاقة كبيرة وهذا النوع الذي أشارت إليه الآية . { واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور } .

والثاني : مصائب يوقعها بالإنسان شخص آخر ، غريم له ، وله رغبة نفسية في الإنتقام منه ، ورد اعتدائه والصبر على هذا النوع يحتاج إلى طاقة كبيرة ، لأنه يضبط فيه نفسه وانفعاله ، وهذا النوع الذي اشارت له الآية { ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور } [١] .

هذا ما ذكره الشيخ ، ولنستمع إلى ما قاله أحد علماء القرن الخامس الهجري صاحب درة التنزيل :

" للسائل أن يسأل عما اقتضى توكيد الخبر باللام في سورة حم عسق ، في قوله { لمن عزم الأمور } وتركه في سورة لقمان ؟

والجواب أن يقال إن ما رغب الله تعالى فيه عبده من الصبر على ما آلم قلبه من جناية جان عليه حتى يغفر لمن ظلمه ، ويهب له من القصاص حقه ترغيب فيما يشق على الإنسان فعله ، إلا أن الله تعالى حسنه بما وعد من عفا عما يحب له من الأجر الذي ضمنه ، ففيه مع جزيل الثواب إصلاح ما بين عشيرته وعشيرة الجاني عليه بإطفاء الثائرة عنهما وإذا كان هذا من أصعب ما يتحمله الإنسان وجب من

---

(١) المعجزة ، ص ٤٧ .

توكيد الكلام فيه ما لا يحب في غيره فأدخلت اللام على " من عزم الأمور " على معنى أنه من الأمور التي تحتاج إلى توطين النفس عليها وتخير أرفعها وأعلاها ، وليس كذلك ما في سورة لقمان ، لأنه قال { واصبر على ما أصابك } وليس يختص صبراً على ظلم يلحقه فيرغب في العفو عن الظالم ، بل تكون شدائد لا يهيج النفوس الانتصار فيها ولا تدعو دواعي إلى الانتقام لها من الرزايا في الأنفس والأموال " [1] .

النموذج الثالث ومن أمثلة الإعجاز العلمي قوله تعالى « إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً ، كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها » [النساء : ٥٦] ، فهذه الآية تتضمن حقيقة علمية لم تكتشف إلا حديثاً ، إن كل أعصاب الإحساس موجودة تحت الجلد مباشرة ، وهذه الأعصاب هي التي تشعر بالألم وتجعل الإنسان يحس به بواسطة الجهاز العصبي .. إلى الخ [2] .

وهذا التفسير لا نكاد نجد كتاباً في التفسير العلمي ، مما كتب قبل الشيخ ، أقول لا نجد كتاباً إلا ويذكر فيها هذا التفسير وأرجو أن لا يفهم أحد ، اني أغض من قيمة ما كتبه الشيخ ، فنحن إن شاء الله لسنا من الذين يبخسون الناس أشياءهم وينقصونهم حقوقهم ، معاذ الله ، فكتاب الشيخ مليء بالفوائد ، لكن كنا نوده أن ينبه الشيخ على ما سطره أئمتنا الأوائل ، وأن يعترف لهم بالفضل ، وأن لا ينقل كلامهم دون التنويه بشأنهم .

---

(١) درة التنزيل المنسوب للخطيب الإسكافي / ص ٤٢٧ .

(٢) ص ١٠٣ .

موريس بوكاي :

دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة .

كتب الطبيب الفرنسي موريس بوكاي (دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديث) وقد هدف من كتابه هذا دراسة الكتب المقدسة : التوراة ، والإنجيل،و القرآن الكريم ، ليرى مدى توافق معطيات كل كتاب مع معطيات العلم الحديث .

بدأ بدراسة التوراة أولاً ، فوجد أن أسفار التوراة جميعها تتناقض مع العلم الحديث ، وأكثر هذه المتناقضات في سفر التكوين في قضايا ثلاث جوهرية، وهي :

١) خلق العالم ومراحله .

٢) تاريخ خلق العالم وتاريخ ظهور الإنسان على الأرض .

٣) رواية الطوفان .

وكذلك في حديثه عن الإنجيل ، وجد التناقضات الصريحة بين روايات الأناجيل نفسها ، في نسب المسيح عليه الصلاة والسلام ، وفي رواية الآلام ، وظهور المسيح بعد قيامته ، وصعود المسيح وغيرها من القضايا ، وخلص إلى أن الأناجيل تحتوي على إصحاحات وفقرات تنبع من الخيال الإنساني وحده ، وهي أمور غير معقولة لا تتوافق مع معطيات العلم الحديث .

وانتقل للحديث عن القرآن الكريم ، فذكر أن القرآن الكريم لم يعتره أي تحريف أو تغيير أو ضياع ، ويدل لذلك : الأمانة والدقة التي توخيت في جمع القرآن الكريم ، وكتابته ، وبين أن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون من تأليف النبي - صلى الله عليه وسلم - ، لأن للنبي - صلى الله عليه وسلم - أسلوباً آخر عرفت به (الأحاديث النبوية) وهي تختلف كثيراً عن القرآن الكريم ، ولا يعقل أن يكون

لشخص واحد أكثر من أسلوب في التعبير ، ثم إنه لا يمكن لإنسان - كان في بداية أمره أمياً - ثم أصبح فضلاً عن ذلك سيد الأدب العربي على الإطلاق ، أن يصرح بحقائق ذات طابع علمي لم يكن في مقدور أي إنسان في ذلك العصر أن يكونها ، وذلك دون أن يكشف تصريحه عن أقل خطأ من هذه الوجهة (١) .

قضية خلق السموات والأرض :

١- ثم ذكر بعد ذلك نقاط الاختلاف والتجانس بين رواية التوراة ورواية القرآن في قضية الخلق ، فالتوراة تذكر أن السماوات والأرض خلقتا في ستة أيام وتبعها يوم الراحة يوم السبت ، ويوم في مفهوم التوراة المسافة الزمنية بين إشراقين متتاليين للشمس أو غروبين متواليين ، والقرآن كذلك يذكر أن السماوات والأرض خلقتا في ستة أيام ، واليوم في اللغة له أكثر من معنى :-

أ- إنه الساعات الأربع والعشرين بين شروقين أو بين غروبين .

ب- النهار حين تظهر الشمس .

جـ- المدة من الزمن ، وهذا ما اختاره الكاتب في تفسير اليوم ، والدليل على ذلك قوله تعالى { في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون } [السجدة : ٥] وقوله { في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة } [المعارج : ٤] .

٢- يذكر أن القرآن لا يحدد ترتيباً في خلق السماوات والأرض ، ففي آية تقدم (الأرض) وفي أخرى تقدم السماوات ، والواو لا تفيد ترتيباً ، ولكن هناك سورة واحدة حددت هذا الترتيب وهي سورة النازعات { أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها } .

---

(١) دراسة الكتب المقدسة / ص ١٥٠ .

٣- وتحدث عن عملية تشكل الكون ، وأنتهاتها إلى تكوين العالم { أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما } .

٤- ويرى أن رقم (٧) في قوله { فسواهن سبع سماوات } رمزي يراد به العدد الكثير ، كما عرف عند اليونان والرومان ، فهذا الرقم يرمز إلى التعدد دون تحديد ، ولا نستطيع أن نوافق الكاتب على هذا الرأي ، فإن هذا العدد ذكر كثيراً في كتاب الله ، وتأكيد القرآن ذكر هذا العدد في آيات كثيرة دليل قاطع على أن هذا العدد مقصود لذاته ، وأن السماوات سبع ، قال تعالى { فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوات} [البقرة :٢٩] وقال سبحانه { الله الذي خلق سبع سماوات } [الطلاق:١٢] وقال {الذي خلق سبع سماوات طباقاً ، ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت } [الملك :٣] وقال { ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً } [نوح :١٥] وقال { وبنينا فوقكم سبعاً شداداً } [النبأ : ١٢] ، فهذه الآيات وغيرها تدل دلالة بينة على أن للعدد مفهوماً ، فهذه الآيات الكريمة قطعية الدلالة على تحديد هذا العدد تحديداً منضبطاً .

٥- وذكر أن مما يثير دهشة القارىء تلك الآيات التي تشير إلى ثلاث مجموعات من المخلوقات :

أ- تلك التي توجد في السماء .

ب- تلك التي توجد على الأرض .

جـ- تلك التي توجد بين السماوات والأرض .

ومن هذه الآيات قوله تعالى « له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى » [طه : ٦] وقوله { ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب } وهذه الآية ترد على اليهود الذين ادعوا أن الله تعالى تعب في اليوم السادس فاستراح اليوم السابع .

وينتهي المؤلف من عرض آيات الخلق إلى نقاط استنتجها :-

١- وجود ست مراحل للخلق عموماً .

٢- تداخل مراحل خلق السماوات مع مراحل خلق الأرض .

٣- خلق الكون من كومة أولية فريدة كانت مجتمعة فتفصلت .

٤- تعدد السماوات وتعدد الكواكب التي تشبه الأرض .

٥- وجود خلق وسيط بين السماوات والأرض (١) .

ثانيا : قضية الفلك :

وينتقل المؤلف للكلام على علم الفلك ، ويذكر أن القرآن الكريم احتوى أكثر من أربعين آية تتحدث عن علم الفلك ، وما جاء فيه يعد حدثاً جديداً في التنزيل الإلهي ، فلا الإنجيل ولا التوراة عالجا ترتيب الكون ، ويذكر أن القرآن الكريم لا يذكر النظريات التي كانت سائدة في عصر التنزيل من تنظيم العالم .

ويعرض الكاتب هذه الآيات المتحدثة عن الفلك ، ويبين أنها متوافقة مع ما توصل إليه العلم الحديث ، ومن هذه الآيات قوله تعالى { ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بأذنه } [الحج : ٦٥] ، وهذه الآية تشير إلى قضية الجاذبية ، فمن المعروف أن ابتعاد الأجرام السماوية على مسافات عظيمة ومتناسبة طردياً مع الكتل نفسها يشكل أساس توازنها ، فكلما تباعدت الأجرام وهنت قوة جذب كل منها للآخر، والتقارب الشديد بين جرمين سماويين يؤدي لا محالة إلى اصدامهما .

ومن ذلك وصفه الشمس بالسراج ، والقمر بالنور في قوله { ألم تروا كيف

---

(١) دراسة الكتب المقدسة / ص ١٦٦ .

خلق الله سبع سماوات طباقاً ، وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً } [نوح: ١٥ ، ١٦] فالشمس هي مصدر الاشعاع ولذا وصفت بالسراج ، والقمر مظلم يتلقى الضوء ويعكسه نوراً .

ثالثاً : انتقل للحديث عن الأرض وما يتصل بها ، فتحدث عن دورة الماء والبحار كقوله تعالى { وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين } [الحجر : ٢٢] ، وتحدث عن البحار ، وعن الثروات المستخرجة منها { مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان ... يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان } [الرحمن : ١٩ - ٢٠] .

وتحدث كذلك عن تضاريس الأرض وتشكل الجبال { والله جعل لكم الأرض بساطاً لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً } [نوح : ١٩ - ٢٠] ، وقوله { ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً } [النبأ : ٦ - ٧] .

رابعاً : وأخيراً تناول بالبحث حديث القرآن عن النبات والحيوان ، فتحدث عن تنوع المأكل وتناسل النبات ، { فأنبتنا فيها من كل زوج كريم } [لقمان : ١٠] وتناسل الحيوان { وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى } [النجم: ٤٥ ، ٤٦] ، ويشير إلى حديث القرآن عن مجموعة من الحيوانات [النحل ، العنكبوت ، الطيور] وهي تشكل أمثلة غاية في الجمال عن النظام الراقي ، إلى غير ذلك من القضايا التي ذكرها القرآن الكريم .

وأخيراً انتقل الكاتب إلى المقارنة بين روايات التوراة وروايات القرآن في بعض القضايا التاريخية ، كالطوفان ، وخروج موسى من مصر ، ووجد أن هناك اختلافات بين هذه الروايات ، ولكن روايات التوراة متناقضة فيما بينها ، وهي مثيرة للنقد الموضوعي ، أما رواية القرآن فهي خالية من أي عنصر مثير للنقد .

الطوفان :

ذكرت التوراة روايتين حررتا في عصور مختلفة ، الرواية اليهودية التي ترجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد ، والرواية الكهنوتية التي ترجع إلى القرن السادس قبل الميلاد ، وينقل الكاتب عن الأب ديفو أن هذه النصوص متعددة الأصول ولا تتمتع بالوضوح إلا من حيث تعاقب الأحداث ، فبين النصين توجد تناقضات صارخة ، فهما حكايتان للطوفان تختلف فيهما العوامل التي أدت إلى الطوفان ، كما يختلف زمن وقوعه ، ويختلف عدد الحيوانات التي شحنها نوح بالسفينة .

وعليه فإن رواية الطوفان في العهد القديم غير مقبولة لسببين : الأول : أن العهد القديم يعطي طابعاً عالمياً للطوفان ، والثاني : أن الرواية الكهنوتية وحدها تحدد زمن الطوفان في عصر لم يكن من الممكن أن تقع فيه كارثة من هذا النوع ، وزمن الطوفان كما بينت في القرن (٢١) أو (٢٢ ق.م) ، وفي هذا العصر ازدهرت حضارات كثيرة وخاصة في مصر ، فلا يمكن أن يحدث الطوفان في هذا الزمن .

أما القرآن الكريم فقد عرض للعقاب الذي وقع على قوم نوح عليه الصلاة والسلام في سورة هود ، ونوح ، والشعراء ، وسورة هود تحدثت عن الطوفان ، والقرآن حينما يتحدث عن كارثة الطوفان ، يتحدث عنها باعتبارها عقاباً نزل بشكل خاص على شعب نوح ، ولكن التوراة كما ذكرنا تجعله عقاباً عالمياً ، وهذا الفرق الأول بينهما ، أما الفرق الثاني فإن القرآن لا يحدد زمن الطوفان .

أما الفرق الثالث فإن القرآن يحدد بشكل صريح محتوى سفينة نوح ، { احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن ، وما آمن معه

إلا قليل } [هود : ٤٠] ، أما التوراة فإن بين رواياتها تناقض صريحاً ، فالرواية الكهنوتية تذكر نوح وأسرته دون استثناء وزوج من كل نوع ، والرواية اليهودية ، تميز من ناحية بين الحيوانات الطاهرة والطيور ، وبين الحيوانات النجسة من ناحية أخرى ، فالسفينة تحتوي على سبعة أزواج من الطاهرة ، وزوج واحد فقط من النجسه ، وهناك رواية ثالثة تذكر أنه حمل زوجاً من كل نوع طاهر ونجس ، وهذه الاختلافات لا نجدها في سور القرآن (هو د ، والمؤمنون) .

وعلى ذلك فإن رواية التوراة لا تتفق مع مكتسبات المعرفة الحديثة ، أما رواية القرآن فهي خالية من أي عنصر مثير للنقد الموضوعي .

الخروج من مصر :

تحدثت التوراة عن خروج اليهود من مصر ، وهي تتشابه في خطوطها العريضة مع معطيات القرآن ، فالتوراة لا تذكر اسم فرعون مصر وقت ولادة موسى وكذلك القرآن الكريم ، إلا أن القرآن يذكر اسم أحذ أعضاء مجلسه وهو هامان في أكثر من موضع .

وتتحدث التوراة عن العقاب الذي انزله الله على مصر وهي تحول مياه النهر إلى دم ، وغزو الضفادع والناموس ، وموت القطعان ، وظهور الاورام على الجلود ، والجراد ، وموت المواليد، تتحدث عنها بشكل مفصل أما القرآن فإنه يذكرها بايجاز موجز « الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم » .

وتذكر التوراة عدداً ضخماً لجماعة موسى التي خرجت معه هاربة من فرعون، وهذا ما لا يشير إليه القرآن الكريم ، ثم ينفرد القرآن بالحديث عن جثة فرعون {فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية } [يونس : ٩٢] .

ويذكر الكاتب أن علماء الآثار حاولوا معرفة اسم فرعون الذي كان في عهد موسى عليه الصلاة والسلام فتوصل بعضهم إلى أنه رمسيس الثاني ، وآخرون إلى أنه تحتمس الثاني ، وغيرهم إلى أنه منبتاح ابن رمسيس ، ويرجح الكاتب أن موسى عليه الصلاة والسلام ، قد عاصر رمسيس الثاني ومنبتاح ، إذ أن معطيات التوراة الخاصة بعصر موسى لا يمكن أن تدخل إلا في إطار تعاقب حكمي رمسيس الثاني ومنبتاح ، وكل شيء يسمح بالتفكير بأن موسى قد ولد في بداية حكم رمسيس الثاني وكان ما زال موجوداً في مدين عندما مات بعد سبعة وستين عاماً من الحكم ثم اصبح بعد ذلك المدافع عن العبريين في مصر أمام منبتاح ابن رمسيس الثاني ، وعليه فإن رمسيس هو فرعون الاضطهاد ، ومنبتاح هو الفرعون الغريق .

ومـوت فرعون عند الخروج يشكل نقطة شديدة الأهمية في روايات القرآن والتوراة ، ولكن الأمر الغريب أن الكتّاب المسيحيين يسكتون عن حادثة موت فرعون ، وروايات التوراة تذكر أن فرعون غرق هو ومن معه ولم يبقَ منهم أحد ولم تشر إلى جثة فرعون ، ولكن بعض الكتّاب حاول التقريب - على رأيه - بين القرآن والتوراة فقال « يشير القرآن إليه - أي موت فرعون - وعلى حسب التراث الشعبي فإن فرعون قد ابتلع بجيشه - وهذا ما لا يقوله النص المقدس - وهو يسكن الآن قاع البحر ويحكم مملكة إنسان البحر أي عجول البحر » ص ٢٦٨ .

وهذا الذي ذكره خرافات وأوهام فإن القرآن الكريم ورد فيه « الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وان كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون » وقد اكتشفت الجثة في القرن التاسع عشر ، وهي تقبع في قاعه المومياءات الملكية في المتحف المصري بالقاهرة .

هذه خلاصة موجزة لما جاء في كتاب موريس بوكاي ، وقد رأينا الكاتب يعتمد في كتابه الطريقة العلمية الموضوعية ، فهو يهدف مما كتبه الوصول إلى

الحقيقة دون تعصب أو تحيز ولابد أن نشير هنا إلى أنه يقال أن الكاتب لما بدأ كتابه لم يكن مسلماً ، ولكنه بعد الوصول إلى تلك النتائج وهي دقة القرآن الكريم في معطياته وعدم تناقضها فيما بينها أولاً ، وفيما بينها وبين معطيات العلم الحديث ثانياً أعلن إسلامه .

قصة يوسف عليه السلام بين القرآن والتوراة :

وما دمنا بصدد الحديث عن مقارنة روايات القرآن الكريم بروايات التوراة والانجيل ، فمن المفيد أن ننقل هنا بعض ما ذكره الأستاذ مالك بن بني في كتابه " الظاهر ة القرآنية " عند دراسته لسورة يوسف عليه الصلاة والسلام ومقارنتها بين التوراة والقرآن في هذه ، فقد ذكر رواية التوراة ورواية القرآن ، وبين أن هناك اختلافات بين الروايتين ، يقول :

" إن مدى التاريخ واحد تماماً في كلتا الروايتين ، ومع ذلك فإن مجرد التأمل السريع يمكن أن يكشف لنا عن عناصر خاصة تميز كلتيهما على حدة ، فرواية القرآن تنغمر باستمرار في مناخ روحاني ، نشعر به في مواقف وكلام الشخصيات التي تحرك المشهد القرآني ، فهناك قدر كبير من حرارة الروح في كلمات يعقوب ومشاعره في القرآن ، فهو نبي أكثر منه أباً ، وتبرز هذه الصفة على الأخص في طريقته في التعبير عن يأسه عندما يعلم باختفاء يوسف كما تتجلى في طريقته في تصوير أمله حين يدفع بنيه إلى أن يتحسسوا من يوسف وأخيه ، وامرأة العزيز نفسها تتحدث في رواية القرآن بلغة تليق بضمير إنساني وخزه الندم وأرغمته طهارة الضحية ونزاهتها على الاستسلام للحق ، فإذا بالخاطئة تعترف في النهاية بغلطتها ، وتقر بخطيئتها ، وفي السجن يتحدث يوسف بلغة روحية محلقة ، سواء مع صاحبيه

أم مع السجان ، فهو يتحدث حديث نبي يؤدي رسالته إلى كل نفس يرجو خلاصها .

وفي مقابل ذلك نجد الرواية الكتابية تبالغ بعض الشيء في وصف الشخصيات المصرية - الوثنية بالطبع - بأوصاف عبرانية ، فالسجان يتحدث كموحد، وفي القسم الخاص بتعبير الرؤيا في القصة يرتسم رمز المجاعة في صورة أقل إجادة فعبارة التوراة هي : (فابتلعت السنابل الجياد) أما الرواية القرآنية فإنها تعقبها فحسب .

والرواية الكتابية تكشف أيضاً عن أخطاء تاريخية تثبت صفة (الوضع التاريخي) للفقرة التي نناقشها ، فمثلاً فقرة (لأن المصريين لا يجوز لهم أن يأكلوا مع العبرانيين لأنه رجس عند المصريين) يمكننا التأكد بأنها من وضع النساخ الميالين إلى أن يذكروا فترة المحن ، التي أصابت بني إسرائيل في مصر ، وهي بعد زمن يوسف .

وفي رواية التوراة يركب إخوة يوسف في سفرهم " حميراً " بدلاً من " العير " في رواية القرآن ، على حين أن استخدام الحمير لا يمكن أن يتسنى للعبرانيين إلا بعد استقرارهم في وادي النيل ، بعدما صاروا حضريين، إذ الحمار حيوان حضري عاجز في كل حالة عن أن يجتاز مسافات صحراوية شاسعة لكي يجيء من فلسطين، وفضلاً عن ذلك فإن ذرية ابراهيم ويوسف كانوايعيشون في حالة الرعاة الرحل رعاة الأغنام والمواشي .

وأخيراً فإن (حل) عقدة القصة يحمل طابع السرد التاريخي في الرواية الكتابية ، حيث يشتمل في الفصول الأخيرة - التي آثرنا حذفها كيما نتجنب الإطالة المملة - على تفاصيل مادية عن استقرار العبرانيين في مصر .

أما في القرآن فإن هذا الحل يدور حول الطابع المميز للشخصية المحورية ، يوسف الذي يختم هذا الختام المنتصر { يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها

ربي حقاً ، وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم ، رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين }[1] [يوسف : ١٠٠-١٠١] [2] .

نكتفي بما ذكرناه من جهود السابقين في القديم والحديث وما كتبوه في إعجاز القرآن .

---

(١) يراجع في هذا الموضوع كتابنا قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية ، نقد ورد .

(٢) الظاهرة القرآنية /مالك بن بني ، ص ٢٩٢ - ٢٩٤ .

الفصل الأول

الإعـــجاز البيانـــي

ونتحدث فيه عن :

أهمية الإعجاز البياني .

الكلمة القرآنية :

أهميتها ، وقيمة الكلمة في العصور السابقة

خصائص المفردات القرآنية - القيم التي تعطيها الكلمة القرآنية.

أولاً: دعوى الترادف في كتاب الله .

لا ترادف في كتاب الله .

كلمات يظن أنها مترادفة وهي ليست كذلك

ثانياً : استعمال الألفاظ المختلفة في مواضع متشابهة من القرآن وأمثلة لذلك .

ثالثاً : رسالة الحرف في كتاب الله تعالى

استعمال الأحرف المختلفة في أماكن متشابهة وأمثلة لذلك .

رابعاً : الجملة القرآنية ، ونتحدث فيه :

أ- التأكيد في آيات من القرآن وتركه في أخرى .

ب- حذف كلمات في آيات وذكرها في أخرى .

جـ- تقديم كلمات في آيات وتأخيرها في أخرى .

خامساً: الإعجاز في الفاصلة القرآنية وأمثلة لذلك .

سادساً: قضية التكرار في كتاب الله ومناقشتها بذكر أمثلة من الكتاب العزيز .

سابعاً : دعوى الزيادة في كتاب الله .

الباب الثاني

وجوه الإعجاز

عرفنا من قبل عندما حدثناك عن وجوه الإعجاز أن العلماء ذهبوا أكثر من مذهب ، فرأى بعضهم أن القرآن معجزة لغوية بيانية فحسب ، وذهب آخرون – وهم الأكثرون – إلى أن القرآن معجز من أكثر من وجه ، وهذا هو الذي اخترناه وأقمنا عليه الأدلة والبراهين .

ويقيننا أنّ القرآن معجز بكل ما تتسع له كلمة الإعجاز ، وبكل ما يشتمل عليه القرآن الكريم من مجالات متعددة ، ولكننا مع ذلك نرى أنه لابد من تحديد أوجه الإعجاز الحرية بأن يتحدث عنها المتحدثون ، حيث أسهب بعض الكاتبين ، وهم يتحدثون عن هذه الوجوه ، فأوصلها بعضهم إلى نيف وثلاثين وجهاً [1] ، ولكن عند التحقيق نجد أن أكثرها لا يستحق أن يذكر وجهاً خاصاً على حدة ، ومن الوجوه التي ذكروها :

١- الإعجاز بالنظم .

٢- الإعجاز بالأسلوب .

٣- الإعجاز بعدم التناقض .

٤- أخبار الماضي .

٥- أخبار المستقبل .

٦- الإعجاز التاريخي .

٧- الإعجاز الأخلاقي .

٨- الإعجاز النفسي .

---

(١) انظر كتاب معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي .

٩- الإعجاز الروحي .

١٠- الإعجاز التشريعي .

١١- الإعجاز العلمي .

١٢- الإعجاز العددي .

١٣- الإعجاز التربوي .

إلى غير ذلك مما عددوه ، ولكننا بعد روي وإجالة فكر ، نجد أن كثيراً من هذه الأوجه يندرج مع غيره ، فالإعجاز الخلقي والتربوي يمكن أن يندرج في الإعجاز التشريعي ، كذلك الإعجاز النفسي والروحي ، والأسلوب والنظم نستطيع أن نجعله كله في باب واحد وهو الإعجاز البياني ، وسيأتيك نبؤه بعد حين .

وعلى هذا فالأوجه التي سنحدثك عنها :-

١- الإعجاز البياني .

٢- الإعجاز العلمي .

٣- الإعجاز التشريعي

٤- أنباء السابقين وأخبار المستقبل .

وسنشير في ثنايا هذه الوجوه إلى الإعجاز النفسي والروحي ، ونحدثك عن رأينا في الإعجاز العددي كذلك ، والله من وراء القصد .

الفصل الأول : الإعجاز البياني

أهمية الإعجاز البياني :

إن أعظم وجوه إعجاز القرآن الإعجاز البياني، لأنه ينتظم القرآن الكريم كله، سوره على اختلافها طولا وقصراً ، أما الوجوه الأخرى من وجوه الإعجاز فليس الأمر فيها كذلك ، فانباء الغيب مثلاً ليست موجودة في كل آية من القرآن ، وكذلك الإعجاز العلمي والتشريعي ، ومن هنا كان الإعجاز البياني أهم هذه الوجوه وأعمها ، بل هو أتمها ، لأنه عام في القرآن كله لا تخلو منه سورة على قصرها ، بل هو في كل آية - تكون على مقدار السورة القصيرة - وليس كذلك الوجوه الأخر .

وإذا كان الإعجاز البياني إنما يرجع في لبه وجوهره إلى النظم ، وإذا كان القرآن الكريم كتاب الإنسانية جميعها ، عربها وعجمها منذ أنزله الله ما دامت الحياة والأحياء ، إذا كان كذلك فليس من المنطقي أن يكون هذا النظم خاصاً بالعرب وحدهم ، وإنما غلط من غلط في هذه القضية ؛ لأنهم ظنوا أن الإعجاز البياني إنما هو حديث عن الصورة التي تمتع العواطف ، وتلذها النفس ، وترهف الحسّ ، الصورة التي تقوم على الاستعارة والكناية والتشبيه ، وهذه تختلف عند كل قوم باختلاف بيئتهم ، ولكن النظم ليس كما حسبوه ، وإنما نعني بالإعجاز البياني الذي يقوم على النظم : ذلكم الترتيب الذي كان لكلمات القرآن في جملها من جهة ، واختيار هذه الكلمات من جهة أخرى ، ثم ترتيب الجمل والآيات في السورة ، وتلك قضية كان يدركها العربي عند نزول القرآن بذوقه وسليقته ، أما العرب اليوم فإنما يدركونها بالفكرة لا بالفطرة بعد أن تفسر لهم وتبين لهم دقائقها وهم وغيرهم في ذلك سواء .

فإذا أدرك العربي أن قوله سبحانه { وارزقوهم فيها واكسوهم } [النساء:٥] اختيرت فيه كلمة (في) على كلمة (منه) لأمر اقتصادي ، وهو أن رزق أولئك ينبغي أن يكون مما تنتجه الأموال ، لا من أساسه ورأسه ، فإن غير العربي يمكن أن

يعرف هذا حين تفسر له معاني القرآن .

وإذا ادرك العربي أن قوله سبحانه { فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء } [المائدة : ١٤] استعملت فيه كلمة الإغراء دون الإلقاء لتدل على الإلصاق والدوام ، فإن هذا يمكن أن يدركه غير العربي حينما يفسر له ، ولا أدل على ذلك من وضعنا نحن اليوم ، فنحن مع كوننا عرباً ، ولكن بعدنا عن العربية سليقة ، يجعلنا لا ندرك هذه الدقائق ولا نتذوق معانيها إلا أذا فسرت لنا ، فنحن العرب وغيرنا سواء.

إن المحققين من العلماء ذهبوا إلى أن الاستعارة والتشبيه وأنواع البديع ليست من جوهر الإعجاز القرآني ، ولكن النظم وحده هو جوهر هذا الإعجاز ، والنظم كما بينا له جانبان اثنان : فكري ونفسي ، لذا فإن القول بأن الإعجاز البياني خاص بالعرب وحدهم - رغم أنه يكاد يكون من المسلمات - بحاجة إلى إعادة نظر ولم أجد من نبه على هذه القضية من قبل .

ولما كانت الكلمة هي أساس النظم فسنبدأ الحديث عن هذه الكلمة مستمدين العون من الله .

الكلمة القرآنية :-

يميز الناس بين الكلام الذي تنشرح له صدورهم ، وبين ما تنقبض منه نفوسهم، بالطريقة التي يتبعها الكاتب ، والأسلوب الذي يصوغ فيه موضوعه الذي يخرجه للناس ، وإذا كان هذا الأسلوب يقوم على دعائم متعددة ، فإن الذي يهمنا هنا من هذه الدعائم أولاها وأولاها بالتقدير ، ونعني بها الأصالة ، وأول لبنة في هذه الأصالة الكلمة ، ذلك أن اللفظة الجيدة تدل على المعنى المراد ، ووقوعه في المكان المناسب .

والكلمة أصل الدقة في التعبير ، والوضوح في المعنى ، والصدق في الدلالة، لأن الكلمة إذا تمكنت في موضعها الأصل دلت على المعنى كله ، فإذا حشرت حشراً،

أو قسرت قسراً ، دلت على بعض المعنى أو ألجأت إلى غيره .

وفي اختيار الكلمة الخاصة بالمعنى إبداع ، والكلمة في الجملة كالقطعة في الآلة إذا وضعت في موضعها على الصورة اللازمة ، والنظام المطلوب ، تحركت الآلة، وإلا ظلت جامدة .

« وللكلمات أرواح » كما قال (موباسان) ، فإذا استطعت أن تجد الكلمة التي لا غنى عنها ، ولا عوض منها ، ثم وضعتها في الموضع الذي أعد لها ، وهندس عليها ونفخت فيها الروح التي تعيد لها الحياة ، وترسل عليها الضوء ، ضمنت الدقة والقوة والصدق والطبعية والوضوح ، وأمنت الترادف والتقريب والاعتساف [(١)] .

قيمة الكلمة في العصور السابقة :

لا عجب إذن أن تجد العرب في عصورهم الأولى يجهدون أنفسهم في اختيار هذه الكلمة والبحث عنها وانتقائها مجندين لها ما منحوه من طاقات العقل ودفقات الشعور وجميل الأحاسيس ، فلقد كانوا في جاهليتهم ، يدركون ما للكلمة من شأن، أو ما تحدثه من أثر سلبي فيقبلونها أو يردونها نتيجة معرفة وذوق .

سمع طرفه بن العبد بيت المسيب بن علس :

وقد أتناسى الهم عند ادكاره   بناجٍ عليه الصيعرية مكدم

فقال : استنوق الجمل ، لأن الصيعرية : سمة في عنق الناقة لا البعير [(٢)] .

---

(١) الأستاذ أحمد حسن الزيات ، مقدمة دفاع عن البلاغة ، مطبعة النهضة ١٩٦٧م .

(٢) البلاغة والتطبيق ، د. أحمد مطلوب ، ود. حسن البصير ، ص ١١ .

ومن ذلك ما يروي عن حسان حينما أنشد :

لنا الجفنات الغر يلمعن في الضحى   وأسيافنا يقطرن من نجدة دماً

فقيل له : لو قلت : (يسطعن في الدجى) ، ولو قلت : (يجرين) ، لكان أولى [1] .

فإذا تجاوزنا العصر الجاهلي وجدنا ذلك واضحاً في العصر الإسلامي من ذلك: ما روي عن أفصح العرب وأبلغهم سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - وهو يوجه معلماً ، مبيناً لأصحابه - رضوان الله عليهم - ولمن بعدهم مكانة الكلمة وأصالتها : (ولا يقل أحدكم خبثت نفسي ، ولكن ليقل لقست) [2] .

وكذلك ما روي عنه ، وهو يعلم أحد صحابته ، البراء بن عازب - رضي الله عنه - أن يقول : (آمنت بكتابك الذي أنزلت ، ونبيك الذي أرسلت) فقال البراء : (ورسولك الذي أرسلت) فقال - صلى الله عليه وسلم - : (ونبيك الذي أرسلت) [3] وما روي عن سيدنا عمرفي قوله : { كنتم خير أمة أخرجت للناس } [آل عمران : ١١] ، « ولو شاء الله لقال : أنتم ، فكنا كلنا ، ولكن قال : كنتم في خاصة أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن صنع مثل صنيعهم ، كانوا

---

(١) تاريخ آداب العرب ، للأستاذ مصطفى الرافعي ، الطبعة الثانية (١٣٧٣ هـ - ١١٥٣ م).

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه (٥١/٨) ، كتاب الادب ، باب : لا يقل خبثت نفسي عن عائشة - رضي الله عنها - وأخرجه مسلم في صحيحه (١٧٦٥/٤) كتاب الألفاظ ، باب كراهة قول الإنسان : خبثت نفسي ورقمه (٢٢٥٠) .

(٣)أخرجه البخاري في صحيحه (٨٤/٨ ، ٨٥) كتاب الدعوات ، باب : إذا بات طاهراً ، وأخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٠١/٤) ، باب : ما يقول عند النوم وأخذ المضجع ، حديث رقم (٢٧١٠) .

خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر »[1] .

وفي العصر العباسي ، كان للكلمة منزلتها كذلك ، ومما يروى في ذلك : أن رجلاً أنشد ابن هرمة بيته :

بالله ربك إن دخلت فقل لها　　هذا ابن هرمة قائماً بالباب

فقال للرجل : ما كذا قلت : أكنت أتصدق (أسأل) قال : فماذا ؟ قال ابن هرمة : واقفاً ثم قال : ليتك علمت ما بين هذين من قدر اللفظ والمعنى[2] .

والمتتبع لآداب العرب ، ومساجلاتهم في أسواقهم يجد كثيراً من ذلك ، والحق أن الذوق السليم يجد فرقاً شاسعاً بين الكلمة الجيدة وغيرها من الكلمات الممجوجة ، وجميل أن أنقل هنا كلمة ابن الأثير ، قال :

« ومن يبلغ جهله إلى أن لا يفرق بين لفظة (الغصن) ولفظة (العسلوج) وبين لفظة (المدامة) ولفظة (الإسفنط) وبين لفظة (السيف) ولفظة (الخنشليل) وبين لفظة (الأسد) ولفظة (الفدوكس) ، فلا ينبغي أن يخاطب ، ولا يجاب بجواب ، بل يترك وشأنه ، كما قيل : اتركوا الجاهل بجهله ، ولو ألقى الجعر في رَحْله ، وما مثاله في هذا المقام إلا كمن يسوي بين صورة زنجية سوداء شوهاء الخلق ذات عين محمرة ، وشفة غليظة كأنها كلوة ، وشعر قطط كأنه زبيبة ، وبين صورة رومية بيضاء مشربة بحمرة ، ذات خد أسيل وطرف كحيل ، وجسم كأنما نظم من أقاح ، وطرة كأنها ليل على الصباح[3] .

---

(١) محمد بن جرير أبي يزيد الطبري أبو جعفر (٢٢٤ - ٣١٠ هـ - ٨٣٩ - ٩٢٣ م) جامع البيان في تفسير القرآن (٢٩/٤).

(٢) الدكتور شوقي ضيف ، البلاغة تطور وتاريخ ، ص٢٦ .

(٣) المثل السائر ، لابن الأثير ، طبعة البابي الحلبي سنة ١٩٣٩م ، ج ١ ، ص ١٤٩ .

خصائص المفردات القرآنية :

وإذا كان هذا في كلام الناس ، فهو في كلام الله المتناهي في البلاغة أكثر وضوحاً وأشد ظهوراً ، يقول الإمام ابن عطية - رحمه الله تعالى :

« وكتاب الله تعالى لو نزعت منه لفظة ، ثم أدير لسان العرب على لفظة غيرها لم يوجد ، ونحن يتبين لنا البراعة في أكثره ، ويخفى علينا وجهها في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب - يومئذ - في سلامة الذوق ، وجودة القريحة[1].

وما قاله ابن عطية ، كلام حري بالتقدير ، جدير بالدراسة ، ذلك أن المفردات القرآنية لها خصائص ومميزات ، جمال وقعها ، واتساقها الكامل مع المعنى ، واتساع دلالتها لما لا تتسع له عادة دلالات الكلمات الأخرى .

فالمفردات القرآنية إذن مفردات مختارة منتقاه ، ولا أدل على ذلك من أننا حين ننظر في المعاجم اللغوية نجدها زاخرة بالألفاظ الكثيرة ، ولكل مادة ، اشتقاقاتها الكثيرة المتعددة ، وهي من حيث الفصاحة والخفة ليست سواء أولاً ، وقد تدار الكلمات الكثيرة على معنى واحد ثانياً ، أما كتاب الله فيخص كل لفظ بمعنى لا يتعداه .

قال الراغب : فألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزبدته ، وواسطته وكرائمه ، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم ، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم ، وما عداها وعدا الألفاظ المتفرعات عنها والمشتقات منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة ، وكالحثالة والتبن بالإضافة إلى لبوب الحنطة » (٢).

---

(١) فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية للحمصي ، حتى عصرنا الحاضر مع نقد وتعليق ، ص ٩٥ .

(٢) المفردات في غريب القرآن ، ص ٦ المقدمة .

القيم التي تعطيها الكلمة القرآنية :

إن اختيار الكلمة القرآنية مع ما لها من قيمة بيانية ، نجد فيها قيماً كثيرة قد تكون اقتصادية كما مر معك في قوله { وارزقوهم فيها واكسوهم } [النساء : ٥] وقد تكون تاريخية كما في قوله { وأغرينا بينهم العداوة والبغضاء} [المائدة : ١٤] كما ستعرف فيما بعد ، وقد تكون علمية، وذلك كما نرى في قوله سبحانه {إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت } [التكوير : ١ ، ٢] ، وفي آية أخرى {إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت } [الانفطار: ١ ، ٢].

ألا ترى أن القرآن استعمل كلمتين اثنتين ، فبجانب النجوم ذكر الانكدار ، وبجانب الكواكب ذكر الانتثار ، ولما كانت النجوم مضيئة كانت الكلمة التي تلائمها وتناسبها ، ما ذكره القرآن الكريم (الانكدار) ، ولما كانت الكواكب ليست كالنجوم وإنما هي أجسام صلبة غير مضيئة بذاتها كانت الكلمة التي تناسبها (الانتثار) لأنها تتحطم أجزاؤها وتتناثر .

وتدبر هاتين الكلمتين المتشابهتين ، وهما كلمة بناء وبنيان ، قال الله تعالى {قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم } [الصافات : ٩٧] وقال { إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص } [الصف : ٤] ، أما كلمة (بناء) فقد جاءت في قوله سبحانه { الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء } [البقرة : ٢٢] . فانظروا أرشدكم الله إلى سر التعبير القرآني ، كلمة (بنيان) جاءت فيما يعرفه الناس ، فهم يبنون بيوتهم بطرق معلومة لهم من وضع الحجارة أو اللبنات بعضها فوق بعض .

لكن كلمة البناء جاءت حديثا عن السماء ، ولا ريب بأن تغاير الكلمتين في كتاب الله ، فضلاً عما له من قيمة بيانية يعطينا قيمة علمية كذلك ، فبنيان الأرض له قواعده وأسسه ، أما الأجرام السماوية ، فتختلف اختلافاً تاماً عما عهده

الناس في الأرض ، فبناؤها ليس باللبنات ، ولا الحجارة ، ولكن يُشد بعضها إلى بعض بما أودعه الله في هذا الكون من قوانين الجاذبية وغيرها .

التغاير بين الكلمتين له دلالاته العظيمة .

وهكذا يمكن أن تكون القيمة البيانية أساساً لقيم كثيرة ، وهذا يؤيد ما قلته من قبل ، وهو أن الإعجاز البياني ، هو أعظم وأهم وأعم وجوه الإعجاز ، لا لأنه ينتظم القرآن كله فحسب ، بل لأنه ينشأ عنه كذلك قيم كثيرة متعددة قيم إنسانية في التاريخ والتشريع والتشريح ، وقيم كونية ، قيم في شتى مجالات الحياة المتعددة .

من هنا كانت كلمات القرآن الكريم مقدرة خير تقدير ، معبرة أصح تعبير وأصدقه ، فاختيار الكلمة في موضع دون آخر ، وتقديمها في موضع دون آخر ، وذكرها في موضع دون آخر ، كل ذلك إعجاز كما سنطلعك عليه إن شاء الله .

أولاً : دعوى الترادف في القرآن :

ولنبدأك الحديث أولاً بقضية شغلت العلماء قديماً وحديثاً ، وهي قضية الترادف ، والترادف هو تعدد الألفاظ بمعنى واحد ، وهو غير المشترك ؛ لأن المشترك اتحاد اللفظ وتعدد المعنى ، وقد بحث العلماء هذين النوعين ، ولهم أبحاث قيمة ، أما قضية الترادف فلقد تحدث عنها أبو هلال العسكري في كتابه الفروق اللغوية ، وابن فارس في " الصاحبي " والسيوطي في " المزهر " وكثير من المحدثين وكذلك قضية المشترك كتب فيها اللغويون والأصوليون ، ومن أوائل من كتب في المشترك المبرد ، فلقد كتب كتاباً بعنوان " ما اتفق لفظه واختلف معناه في كتاب الله " [1].

---

(١) عدّ الدكتور صلاح الخالدي هذا الكتاب من باب ما كتب في الترادف وليس الأمر كذلك فكتاب المبرد إنما هو من المشترك الذي اتحد لفظه واختلف معناه والترادف كما علمنا هو ما تعدد لفظه واتحد معناه .البيان في إعجاز القرآن / ص ١٦٤]

والذي يعنينا الآن قضية الترادف .

والترادف عند مثبتيه أن يكون للكلمتين أو الكلمات معنى واحد ويظهر أن الحديث عن الكلمات التي تبدو لأول وهلة أنها مترادفة ، وتلمس ما بين هذه الكلمات من فروق ظهر مبكراً ، فقد تقدم لنا من قبل قول ابن هرمة :(هذا ابن هرمة قائماً بالباب) .وكيف أن ابن هرمة أنكر على منشده هذا البيت وصوبه له هذا ابن هرمه واقفاً بالباب وبين له أن الفرق بين الكلمتين فرق شاسع .

ومن هذا ما رووه عن النضر بن شميل من أنه دخل على المأمون ، فقال له : أجلس مرتين أو ثلاث فقال النضر ، يا أمير المؤمنين إنما يكون الجلوس بعد اتكاء ، وذكره بما جاء في السنة عن بعض الرواة ، حيث كان – صلى الله عليه وسلم – يعظ أصحابه ويعلمهم فنهاهم عن الشرك بالله وعقوق الوالدين ، قال راوي الحديث وكان متكئاً فجلس[1] ، ثم قال ألا وقول الزور » قال المأمون : فماذا أقول – إذن – قال : قل اقعد فأعجب المأمون ذلك .

ومما هو أصل في موضوعنا هذا واشتهر بين العلماء كلمة الجاحظ :« وقد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها وغيرها أحق بذلك ، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر ، والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع ، في موضع الانتقام ، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث ، ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنه إذا ذكر الأبصار لم يقل الاسماع ، وإذا ذكر سبع سموات لم يقل الأرضين ، ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين ولا السمع اسماعاً ، والجاري على أفواه

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الشهادات ، باب ما قيل في شهادة الزور .

العامة غير ذلك ، لا ينتقون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر ، وأولى بالاستعمال ، وقد زعم بعض القراء أنه لم يجد ذكر لفظ النكاح في القرآن إلا في موضع التزويج(١) .

فوائد تحديد معاني الكلمات :

ولقد كان لهذه الملحوظات وما يشبهها أثر غير خفي في تفسير كتاب الله تبارك وتعالى فيما بعد ، فلماذا استعملت كلمة القيام في مثل قوله تعالى {فإذا أظلم عليهم قاموا }[البقرة : ٢٠] بينما استعملت كلمة الوقوف في مثل قوله سبحانه{ولو ترى إذ وقفوا على ربهم }،{ وقفوهم إنهم مسؤولون } ؟ [الصافات : ٢٤]ولم استعملت مادة القعود كثيراً في كتاب الله في مثل قوله سبحانه { وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين }[التوبة : ٨٦] { وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع }[الجن : ٩] ،{ والقواعد من النساء } [النور : ٦٠] ، على حين لم تستعمل مادة الجلوس إلا في آية واحدة { إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم } ؛[المجادلة : ١١] ولم استعملت كلمة الفعل في آيات وكلمة العمل في آيات أخرى ؟ إلى غير ذلك من أبحاث شيقة مفيدة تحدد لكل لفظ معناه الذي لا يشترك معه غيره فيه .

ولا بد أن نقرر هنا أن عدم التحديد المنضبط لمفهوم الكلمة القرآنية ، قد حرم الناس من فوائد كثيرة ، وحال بينهم وبين إدراك متكامل لمدلول الكلمة القرآنية ، وسد أمامهم أبواب الوعي الدقيق لكثير من الآيات الكريمة، ونعترف أن كثيراً من كتب التفسير والمعاجم اللغوية كانت سبباً في ذلك كله حيث التقت هذه الكتب والمعاجم على أن تعطي المعنى القريب للكلمة القرآنية ، فتشتبه المعاني ، وتختلط

---

(٢) البيان والتبين للجاحظ ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون ، دار الجليل (١/ ٢٠) .

بعضها ببعض .

وإذا كان بعض العلماء يعد الترادف من خصائص اللغة ومفاخرها ، فإن كثيرين وقفوا من الترادف موقف السلبية والانكار [1] ، وقد فطن بعض العلماء والباحثين لهذه القضية الخطيرة ، وما يمكن أن تحدثه من أثر سلبي في فهم المعنى وإدراكه ، فطرحوا قضية الترادف للبحث ، ولم يقتصر ذلك على الأقدمين فحسب ، بل تجاوزه إلى المحدثين كذلك .

لا ترادف في كتاب الله تعالى :

ولا يعنينا تفصيل هذه القضية هنا [2] ، والذي نطمئن إليه ، وقد اطمأن إليه كثيرون قبلنا أن لا ترادف في كتاب الله تبارك وتعالى ، والكلمات التي ظنها بعض الناس مترادفة عندما ننعم النظر فيها ، نجد أن لكل معناها الدقيق ، واليكم طرفاً موجزاً نطلعكم فيه على بعض الكلمات التي يظن أنها مترادفة .

كلمات يظن أنها مترادفة :

١- الخوف والخشية :- لا يكاد كثير من الناس يفرق بينهما مع أن بينهما أكثر من فرق ،منها أن الخشية أعلى من الخوف وأشد منه .

ولذا خصت الخشية بالله في كثير من الآيات (يَخْشَون رَبَّهم ويخافون سوء الحساب) وفرق بينهما أيضاً : بأن الخشية تكون من عظم المخشي ، وإن كان الخاشي قوياً ، والخوف يكون من ضعف الخائف وإن كان المخوف أمراً يسيراً .

ويدل لذلك أن (الخاء ، والشين ، والياء) في تقاليبها تدل على العظمة

---

(١) أنظر : مجلة الثقافة - الأستاذ علي عبد الواحد ، وافي - سنة (١٩٧٣م) .

(٢) من أراد التفصيل فليرجع إلى بحثنا (الكلمة القرآنية وأثرها في الدراسات اللغوية) مجلة مركز بحوث السنة والسيرة ، العدد الرابع (١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م) قطر .

نحو : شيخ : للسيد الكبير ، وخيش : لما غلظ من اللباس [1].

ولذا وردت الخشية غالباً في حق الله تعالى { وإن منها لما يهبط من خشية الله} [البقرة : ٧٤] { إنما يخشى الله من عباده العلماء } [فاطر :٢٨] . وهذا الوجه الأخير هو الذي اقتصر عليه الراغب الأصفهاني حيث قال : " الخشية : خوف يشوبه تعظيم ، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه " .

ولكن السيد رشيد رضا - رحمه الله تعالى - لم يرتض ما ذكره الراغب ، قال رحمه الله :" إن القيد الذي ذكره الراغب لا يظهر في كل الشواهد التي وردت من هذا الحرف في القرآن وكلام العرب " . وبعد أن استشهد على ذلك بشيء من أقوال العرب قال :" فإن كان بين الخوف والخشية فرق فالأقرب عندي أن تكون الخشية هي الخوف في محل الأمل ، ومن دقق النظر في الآيات التي ورد فيها حرف الخشية يجد هذا المعنى فيها ، ولعل أصل الخشية مادة : خشت النخلة تخشو ، إذا جاء ثمرها دقلاً (رديئاً) وهي مما يرجى منها الجيد " .

وإذا تتبعنا الآيات القرآنية الكريمة ، ندرك الفروق سواء ما ذكره الراغب ، أم غيره ، فلا ضير أن يكون هناك أكثر من فرق بين الكلمتين ، فقوله سبحانه وتعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) يشهد لما قاله صاحب المنار ، من أن الخشية خوف في محل الأمل ، ومن أحق من العلماء بهذا الخوف وبذلك الأمل ، ولا يتنافى مع ما قاله الراغب ، من أن الخشية : خوف يشوبه التعظيم ، والعلماء حقيقون بهذا التعظيم ، حريصون عليه .

كذلك قوله سبحانه { فلا تخشوهم واخشوني } [البقرة : ١٥٠] ، وقوله {فلا تخشوهم واخشون } [المائدة : ٣] ، {أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن

---

(١) معترك الأقران للسيوطي (٦٠٢/٣) .

كنتم مؤمنين } [براءة : ١٣].

٢- ومن الكلمات القرآنية التي يظن أنها بمعنى واحد هاتان الكلمتان : جاء وأتى . فالكلمة الأولى : تسند غالباً إلى الجواهر والأعيان ، بينما تسند الكلمة الثانية : إلى المعاني والأزمان .

والمتتبع للآيات القرآنية يجد ذلك واضحاً كل الوضوح ، قال تعالى : { ولمن جاء به حمل بعير } [يوسف : ٧٢] أي : بصواع الملك { وجاؤا على قميصه بدم كذب } [يوسف : ١٨] { وجيء يومئذ بجهنم } [الفجر : ٢٣] ، وقال تعالى {أتى أمر الله فلا تستعجلوه } [النحل :١] ، { أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً } [يونس : ٢٤] .

وقد اجتمعت الكلمتات في قوله تعالى في سياق قصة لوط - عليه الصلاة السلام- {قالوا : بل جئناك بما كانوا فيه يمترون وأتيناك بالحق وإنا لصادقون } [الحجر : ٦٣ - ٦٤] ، فالذي جاؤا به العذاب ، وهو أمر مشاهد ، والذي أتى به الحق . وقد ذهب الراغب إلى أن الإتيان إنما هو : المجيء بسهولة فهو أخص من مطلق المجيء ، ومنه قيل : للسيل المار على وجهه أتى وأتاوي [(١)] .

أما قوله تعالى : { فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه } [هود:٦٦] وقوله سبحانه { فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون } [الأعراف : ٣٤] .

فإن المتحدث عنه في الآية الأولى : هو العذاب ، وفي الآية الثانية هو : الموت ، وكأنه أمر مشاهد ، ولهذا يعبر القرآن الكريم عنهم بالحضور [(٢)] .

(١) المفردات - للراغب الأصفهاني ص ٨ .

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي (٤/ ٨٠) .

٣- وهناك كلمتان في كتاب الله تعالى هما بحق مظهر من مظاهر إعجازه ، وأعني بهما : الفعل ، والعمل ، ويظهر أن الفرق بينهما من جهتين اثنتين :

أما أولاً : فان لفظ (عمل) يستعمل لما يمتد زمانه .

وأما لفظة (الفعل) فعلى العكس من ذلك ، فهو لما يكون دفعة واحدة .

والاستعمال القرآني يؤيد هذا الفرق . والآيات الكريمة تشهد له خير شهادة قال تعالى { وعملوا الصالحات} [البقرة : ٢٥] {يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل } [سبأ:١٣] { وقل اعملوا } [التوبة : ١٠٥] .

أما استعمال مادة الفعل ، فليس لها زمان مستمر ، وانما تحدث دفعة واحدة ، { ألم تر كيف فعل ربك بعاد } [الفجر : ٦] { ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل } [الفيل : ١] { وفعلت فعلتك التي فعلت } [الشعراء : ١٩] .

وهذا الفرق هو الذي اقتصر عليه السيوطي – رحمه الله تعالى – [(١)].

وهناك فرق آخر لا يقل عنه دقة وروعة . وهو ما ذكره الراغب – رحمه الله تعالى – حيث قال : " العمل : كل فعل يكون من الحيوان بقصد ، فهو أخص من الفعل لأن الفعل قد ينسب إلى الحيوانات التي يقع منها فعل بغير قصد ، وقد ينسب إلى الجمادات " [(٢)] .

ولم يذكر الراغب – رحمه الله – من الآيات ما يعدّ تطبيقاً لهذا الفرق وهو ما سنذكره بعون الله .

فالمتأمل في الذكر الحكيم يجد ما يطمئن به قلبه ، وتطيب به نفسه ، قال تعالى في سورة النور : { ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض والطير

---

(١) معترك الأقران للسيوطي (٣/٦٠٤) /

(٢) المفردات / ٣٤٨ .

صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون } [الآية : ٦١] وقال تعالى في سورة الأنبياء : { قال بل فعله كبيرهم هذا } [الآية : ٦٣] ، وفي سورة الإنفطار { وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون } [١٠ - ١٢] .

أما الآية الأولى والثانية : فأمرهما ظاهر ، فالفعل أسند إلى الحيوان من طير وغيره في الآية الأولى ، وإلى الجماد في الآية الثانية .

وأما الآية الثالثة : فإنه يلوح لنا منها سر رائع ، فتعالى المنزل ، وجل الصانع حيث لم يقل : يعلمون ما تعملون . لا من أجل غرض لفظي فحسب ، وهو ما بين الفعلين : يعملون وتعملون ، من تقارب وتشابه في الأحرف ، وإنما لما هو أعمق من ذلك وأدق . وهو أن هؤلاء الملائكة لا يعلمون ما تقصدون اليه من عمل فقط ، وإنما يعلمون ما وراء ذلك من خلجات النفوس ، وطرفة العين ، والخواطر والهواجس ، وكل ما لا يقصده المرء . فما أبدع الجمال القرآني !، وما أجمل بديع كلماته ! .

ويظهر لي أن هذا يشبه قوله تعالى { ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد} [ق : ١٨] ، حيث عبّر بالقول دون الكلام .

ولا شك أن الكلام يشمل ما هو مفيد فقط ، أما القول : فيشمل المفيد وغيره (١) ومن خير الشواهد التي توضح الفرق بين (الفعل) و (العمل) ما قصّه الله علينا من نبأ موسى وفرعون . قال تعالى { وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين ، قال فعلتها إذاً وأنا من الضالين } [الشعراء:١٩ . ٢٠]. والفعلة : هنا هي قتل موسى عليه الصلاة و السلام للقبطي ، وقد كان دفعة واحدة لا تدرج فيه من جهة ، كما أنه من جهة أخرى كان أمراً غير مقصود ولا

---

(١) أبو الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢ هـ - ١٠٠٢ م) الخصائص . تحقيق محمد علي النجار - طبعة دار الهدى للطباعة والنشر - بيروت - طبعة ثانية ج١ ص ٧ .

مراد لموسى عليه الصلاة والسلام ، فكل الذي حدث منه ، وكز القبطي ، والوكز عادة لا يقتل ، لذلك سمّاه القرآن فعلاً .

وفي قصة البقرة عن بني إسرائيل { فذبحوها وما كادوا يفعلون } [آية : ٧١] والمنعم النظر في آي القرآن يجد من ذلك ما يثلج الصدر .

٤- ومن هذا القبيل كلمتا : القعود والجلوس .

والمتأمل لآي القرآن الكريم ، واستعمال هاتين الكلمتين ، يدرك روعة العربية من جهة ، وإعجاز الكتاب الخالد من جهة ثانية ، فالقعود إنما يستعمل لما فيه لبث ومكث ، أما الجلوس فيستعمل فيما ليس كذلك . قال تعالى { والقواعد من النساء } [النور : ٦٠] { وقيل اقعدوا مع القاعدين } [براءة :٤٦] { في مقعد صدق عند مليك مقتدر } [القمر : ٥٥] ، { وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع } [الجن : ٩] ، وهذا يبين حرصهم على استراق السمع .

أما مادة : جلوس ، فلم تأت إلا في قوله تعالى { إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم } [المجادلة : ١١] . وهذه المجالس عادة لا يطول المكث فيها ومنه الحديث الشريف « مثل الجليس الصالح وجليس السوء » (١) والحديث الآخر « إياكم والجلوس على الطرقات » (٢) .

ومن أسرار العربية أن (القاف ، والعين ، والدال) تدل على اللبث والثبات فمنها مادة : قعد التي تحدثنا عنها من قبل ، والدقعاء : للتراب الكثير الدائم الذي يبقى في مسيل الماء ، ومنه : العقد الذي يستعمل لعقدة النكاح ، والعقيدة : وهي قضايا ثابتة .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه / كتاب الذبائح والصيد / باب المسك .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه / كتاب المظالم / باب أفنية الدور والجلوس فيها .

أما (الجيم ، واللام ، والسين) فعلى العكس من ذلك ، ففيها الحركة ، ومنه : السجل للشيء المتحرك الذي لا يبقى عند صاحبه .

والطريف أنهم ضموا عين المضارع في قولهم :" يقعد " وكسروها في قولهم : " يجلس " والكسرة أخف من الضمة ، فاستعملوها لما فيه الحركة ، واستعملوا الضمة الأثقل لما فيه المكث .

٥- الاعطاء والإيتاء : رغم ما بين هاتين الكلمتين من تشابه في اللفظ ، واتحاد في الاستعمال عند كثير من الناس ، ومع ذلك فبينهما فروق ، ويشهد لذلك الاستعمال القرآني ، فما هي الفروق بين الإيتاء والإعطاء يا ترى ؟ .

ينقل صاحب البرهان عن الجويني - رحمهما الله تعالى - أن الإتيان أقوى من الاعطاء في اثبات مفعوله .

وهناك فرق آخر بين الاعطاء والايتاء ، وهو أن الاعطاء انما يكون على جهة التمليك ، قال تعالى { هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب } [ص : ٢٩] وقد لا يكون الايتاء على جهة التمليك .

وفرق ثالث : وهو أن الايتاء لا يكون إلا للشيء الكثير ، والعظيم الشأن ، وقد يكون الاعطاء للقليل ، قال تعالى { أفرأيت الذي تولى وأعطى قليلاً وأكدى} [النجم : ٣٣ ، ٣٤] .

ويمكننا أن نتدبر الآيات القرآنية على ضوء هذه الفروق التي ذكرناها ، وأول ما يخطر للفكر معرفته ليلمح فيه الفرق بين هاتين الكلمتين قوله سبحانه { وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة } [النور : ٥٦] وقوله { حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون } [التوبة : ٢٩] .

فانظر كيف عبّر عن كل من الزكاة والجزية ، ففي جانب الزكاة استعملت كلمة الإيتاء فيمكن أن نلمح الفروق التي ذكرناها من قبل ، فهي عطاء على سبيل

التمليك من جهة ، وهي أكثر قوة في إثبات مفعولها كذلك ، لأن المؤمنين يخرجونها خالصة من قلوبهم ، ولا كذلك الجزية ، ولقد استعمل الايتاء كذلك بجانب الملك والحكمة ، قال تعالى { قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء } [آل عمران :٢٦] وقال تعالى { يؤتي الحكمة من يشاء } [البقرة : ٢٦٩] . {وآتيناه الحكم صبيا } [مريم : ١٢] { وآتيناهم ملكاً عظيماً } [النساء:٥٤].

أما الإعطاء ، فيكفي أن نقرأ فيه هذه الآية { ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون } [التوبة : ٥٨] ، واعطاء المنافقين لا لكونهم يستحقونه ، يقول الرسول عليه الصلاة والسلام (أني لأعطي الرجل وغيره أحب أليّ منه) [(١)].

وقد يتساءل بعضكم : ماذا تقول في قوله تعالى { إنا أعطيناك الكوثر } [الكوثر : ١] { ولسوف يعطيك ربك فترضى } [الضحى : ٥] .

والجواب عن ذلك .. أن هذا الذي أعطيه النبي صلى الله عليه وسلم ، هو قليل في حقه ، وهو قليل كذلك إذا قيس إلى ما هو أعظم منه .

٦- السنة والعام :-

ونقرأ في كتاب الله تعالى آية ذكر فيها كلمتان اثنتان جاءت كل في موضعها لا أقول الذي يناسبها فحسب ، ولكن أقول الذي لا يناسبها غيره ، قال تعالى في سورة العنكبوت (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً) [اية : ١٤] . وتأملاً في كل من الكلمتين على حده نستنتج أن هناك أكثر من فرق بينهما .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب الزكاة - باب قول الله تعالى (لا يسألون الناس إلحافاً) .

فالسنة : تلقي من منطوقها ظلال الشدة والقحط والصعوبة ، والعام : على العكس من ذلك ، قال تعالى { ثم يأتي من بعد ذلك عامٌ فيه يغاث الناس وفيه يعصرون } [يوسف : ٤٩] .

وفي الأثر : { سنين كسني يوسف } (١) . فالسنة تدل على القحط ، والعام يدل على الرخاء .

وهناك فرق آخر وهو أن السنة تستعمل أكثر ما تستعمل في السنة الشمسية على حين يستعمل العام للقمرية ، ونحن نعلم ان بينهما أحد عشر يوما تقريباً ، ومن هنا فلا عجب أن تدهشنا روعة التعبير في اختيار الكلمات ، حيث ذكرت السنة فيما قضاه نوح عليه وعلى نبينا وأنبياء الله صلوات الله وسلامه ، وذكرت كلمة : العام بجانب المدة التي استثنيت من ذلك ، وفي هذا تصوير لما عاناه عليه الصلاة والسلام من شدة في الأمر ، ومقارعة لاعداء الله ، وطول أمد ، وإذا تدبرنا كتاب الله تعالى ، فإننا لن نجد أي كلمة منه تشبه غيرها ، فضلاً عن أن تسد مسدها .

٧- الحمد والشكر :

بدأ الله كتابه بقوله { الحمد لله رب العالمين } ، ولقد ذكرت هذه الجملة (الحمد لله) مرات عديدة فاتحة لسور عديدة ، ولكن كلمة الشكر ذكرت أكثر من كلمة الحمد ، قال تعالى { فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون } [البقرة :١٥٢] { وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم } [ابراهيم : ٧] { رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي } [النحل : ١٩] ولقد ذهب

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الاستشهاد ، باب دعاء النبي : اجعلها عليهم سنين كسني يوسف .

بعض المفسرين إلى أن الكلمتين ذواتا معنى واحد ، والمحققون ذهبوا غير هذا المذهب .

وإذا كان من فرق بين الحمد والشكر فإن الحمد يكون باللسان ، أما الشكر فلا يختص به اللسان وحده ، وإنما يكون بالقلب والجوارح .

أفادتكم النعماء مني ثلاثة   يدي ولساني والضمير المحجبا

وهناك فرق آخر بين الحمد والشكر ، وهو أن الشكر لا يكون إلا مقابل نعمة أما الحمد فإنما يكون لأي شيء حسن ، فأنت قد تحمد إنساناً لشجاعته أو كرمه دون أن ينالك منه شيء ، ومن أجل هذا اختيرت كلمة (الحمد) في فاتحة الكتاب العزيز.

٨- وهاتان كلمتان استعملتا في كتاب الله تعالى ، وهما كلمتا : شك وريب والعجب كل العجب من الذين يحتجون على وجود الترادف في اللغة بقولهم : لو لم يكن هناك ترادف ما صح أن نفسر : الريب بالشك [(١)] .

وإنما نعجب من أمره لأننا لا ندري كيف يفسر الريب بالشك ، واستعمال القرآن شاهد لما بينهما من فرق ، بل فروق ، فالقرآن الكريم ينفي الريب دائماً عن القضايا الكبرى كالكتاب والساعة ، كما أنه ينفيه عن المؤمنين في جميع أحوالهم ، « ذلك الكتاب لا ريب فيه » [البقرة: ٢] ، « وأن الساعة آتية لا ريب فيها » [الحج : ٧] ، « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا » [الحجرات: ١٥] ، « ولا يرتاب الذين أتوا الكتاب والمؤمنون » [المدثر : ٣١] .

وإذا استعملت كلمة الشك مسندة إلى الكافرين ، فإنها غالباً ما توصف بكلمة مريب ، « وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب »

---

(١) المزهر للسيوطي ، حققه محمد جاد المولى والبجاوي وأبو الفضل ، ج١ ، ص ٤٠٤ .

الشورى : ١٤] ، « وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب » [ابراهيم : ٩] .

وقد نجد أن كلمة الشك ، إذا ذكرت وحدها مسندة إلى الكافرين فإنه يضرب عنها ، وينتقل إلى ما هو أكثر منها ضلالاً ، وأشد منها سؤاً ، قال تعالى عن الكافرين « بل ادراك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون » [النخل : ٦٦] ، واستعمل الشك ، دون وصف في قوله تعالى « فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك » [يونس : ٩٤] .

وهذه الآيات الكريمة تجعلنا غير مترددين في أن الريب شيء أكثر من الشك ، فالريب ينم عن القلق في النفس وما يختلج فيها من أسباب الغيظ (١) ، ومن ثم تنافي الطمأنينة ، وهذا بعيد عن ساح المؤمنين ، فضلاً عن قلبه الشريف – صلى الله عليه وسلم – لذلك حيل بينه وبين أن يسند إليه الريب .

أما الشك فمع بعده عنه – صلى الله عليه وسلم – إلا أن الشك ليس فيه ما في الريب من محاذير ، ذلك أنه أي الشك تردد بين شيئين ، قال الراغب : " الشك وقوف النفس بين شيئين متقابلين بحيث لا يترجح احداهما على الآخر بأمارة ، والمرية : التردد في المتقابلين ، وطلب الإمارة : من مرى الضرع أي مسحه للدر ، والريب : أن يتوهم في الشيء ، ثم ينكشف عما توهم فيه (٢) .

ونزيد هنا أننا نجد هذه المادة ، يوصف بها المنافقون ، وأن هذا الفعل يسند إليهم ، قال تعالى في سورة براءة في سياق الحديث عن المنافقين « إنما يستئذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون » [التوبة: ٤٥] ، وقال سبحانه عن الذين اتخذوا مسجدا ضراراً وكفرا وتفريقا بين

---

(١) محمود الألوسي (ت ١٢٧٠ هـ – ١٨٥٤ م) روح المعاني ،الناشر :المطبعةالمنيرية ج١ ص١٠٦ .

(٢) الراغب ، المفردات ، ص ٢٠٥ .

المؤمنين وارصاد لمن حارب الله ورسوله من قبل « لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم » [التوبة : ١١٠] .

وفي التنزيل آية جمعت الكلمتين معاً ، وتدبرها يدل على ما بينهما من بون شاسع قال تعالى في سورة المؤمن وهو يحكي لنا خطاب هذا المؤمن الذي سميت السورة باسمه وقوله لآل فرعون « ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً ، كذلك يضل الله من هو مسرفٌ مرتاب الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم ، كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا ، كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار » [غافر : ٣٤ ، ٣٥] ، ونرى من السياق الكريم الفرق الشاسع بين الكلمتين حيث جاءت كلمة الشك مطلقة دون وصف ، لا يفهم منها أكثر من ترددهم فيما جاءهم به عليه السلام ، أما كلمة مرتاب المشتقة من الريب فقد ذكرت مقترنة بالاسراف والاضلال ، إلى غير ذلك من الأوصاف التي تنم عن سؤ أولئك الذين استقر في قلوبهم الريب ، ولو أننا وقفنا مع الآيات القرآنية التي ذكرت فيها إحدى هاتين الكلمتين لوجدنا أن كل كلمة لا يمكن أن تصلح مكان أختها .

٩- اللوم والتثريب والتفنيد :-

في سورة يوسف عليه الصلاة والسلام جاءت هذه الكلمات الثلاث ، وهي متقاربة من حيث المعنى ، مما جعل بعض المفسرين يفسر بعضها ببعض ، فيقول في قوله سبحانه « لولا أن تفندون » ، لولا أن تلومون .

ولكن الدقة والإحكام في استعمال الكلمات القرآنية ، يحتمان علينا أن نقف مع هذه الكلمات ، وأن ننظر إلى السياق الذي جاءت فيه كل منها ، فاللوم وهو العَذل - ولعله أشدها وأقواها وأكثرها قسوة - جاء من امرأة العزيز رداً على النسوة ، وقد لاكتها ألسنتهن بكل قسوة وفظاعة ، وانتشر حديثها بينهن ، " امرأة

العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً ، إنا لنراها في ضلال مبين " فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن .. " وكان ما حدثنا القرآن الكريم عنه ، ثم قالت لهن « ذلكن الذي لمتنني فيه » . فجاءت كلمة اللوم هنا مستقرة في موضعها أصيلة في مكانها الذي استعملت فيه لايسد عنها غيرها .

أما الكلمة الثانية وهي كلمة التثريب ، فلقد جاءت حديثاً من يوسف عليه الصلاة والسلام لإخوته بعد أن ظهرت لهم الحقيقة ، وشعروا بالذنب (قالوا لقد آثرك الله علينا ، وإن كنا لخاطئين ، قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) .

فانظروا إلى سياق هذه الكلمة في كتاب الله ، فلم يقل لا لوم عليكم ، كما جاء في الآية السابقة ، واستعمال هذه الكلمة يدلنا على ما أكرم الله به نبينا يوسف عليه الصلاة والسلام من حسن الخلق كما من عليه بحس الخلق ، فهو يقول لهم « لا عتب وتأنيب ، دعوا ما مضى ، ولا تؤنبوا أنفسكم بما كان منكم ، فلا تثريب عليكم اليوم ، فكلمة التثريب هنا لا تسد مسدها كلمة أخرى .

أما الكلمة الثالثة وهي التفنيد ، فقد ذكرها القرآن الكريم حديثاً عن يعقوب عليه الصلاة والسلام « ولما فصلت العير قال أبوهم إني لاجد ريح يوسف لولا أن تفندون » ومع أن بعض المفسرين فسرها بقول " لولا أن تلومون " ولكن استعمال القرآن الكريم لها في هذا الموضع يجعل لها كيانها الخاص وظلالها الخاصة كذلك ، فالتفنيد هنا ليس اللوم ، وإنما أصله الإفساد ، قال الراغب :-

" التفنيد : نسبة الإنسان إلى الفند وهو ضعف الرأي قال (لولا أن تفندون) قيل أن تلوموني ، وحقيقته ما ذكرت ، والإفناد أن يظهر من الإنسان ذلك [1] .

---

(١) المفردات : ص ٣٨٦ .

فقد رد الراغب تفسير الإفناد باللوم - كما رأينا - .

هذه كلمات ثلاث استعملت في مكانها اللائق بها ، والموقف الخاص بها ، فالكلمة الأولى كانت من امرأة العزيز للنسوة ، وقد مكرن بها وشهرن ، والثانية كانت حديثا من يوسف عليه الصلاة والسلام تسلية لإخوته ، كي يمحو من نفوسهم الشعور بالتأنيب ، والكلمة الثالثة كانت حديثاً من يعقوب عليه الصلاة والسلام كي لا يتهمه ذووه لشيخوخته بضعف الرأي وفساده .

وأكتفى بما ذكرت في هذا البحث عن تلك الألفاظ التي يظن أنها مترادفة متحدة المعنى . ولندع الكلام في هذا البحث ، لننتقل إلى فصل آخر ، وإلى روضة قرآنية جديدة ، وعلى الله التكلان ، ومنه التوفيق ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

ثانياً : استعمال الألفاظ المختلفة في المواضع المتشابهة :

ومما يتصل بهذه القضية ، استخدام القرآن الكريم ألفاظاً مختلفة في المعنى ، ولكنها جاءت في مواضع متشابهة ، واختص كل موضع بما يلائمه ويناسبه ومن هذه

١- **كلمتا : الإلقاء والقذف** : فقد وردت كل من الكلمتين في سياق الجهاد ومحاربة الأعداء ، مسندتين إلى الله تبارك وتعالى المنعم على عباده بهذا الرعب اكراماً للمؤمنين ، وبأساً على اعدائهم ،ونسأله سبحانه ونحن في هذا الظرف ، الذي تألبت علينا فيه قوي المكر والبغي بقيادة أمريكا الباغية وحلفائها وعملائها ، نسأل الله أن يقذف في قلوبهم الرعب ، وأن يثبطهم ويثبتنا ، فهو سبحانه نعم المولى ونعم النصير ، قال تعالى في سورة الأنفال :(سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب) [الأنفال : ١٢] ، وقال في سورة الحشر (وقذف في قلوبهم الرعب) [الحشر :٢]

ومن كان له أدنى اطلاع ومعرفة في قضايا اللغة يدرك أن كلمة (القذف) تعطي من الدلالة ، وتلقي من الظلال ما لا يوجد في كلمة (القاء) .

فكلمة (القذف) انما تستعمل لما فيه الشدة والقوة والضخامة ، ولهذا يقال

"هم بين خاذف وقاذف " ، فالخذف : هو رمي الخذف ، وهي الحصاة الصغيرة ، أما القذف فلا يكون إلا بما كبر من الحجارة واشتد ضاربه فيه .

وحينما نقف امام النصين الكريمين نتساءل متدبرين ، لم جاءت كل كلمة في هذا المكان دون غيره !؟ والسياق كفيل بالإجابة على هذا التساؤل ، لذلك كان السياق أمراً لا بد منه لفهم الكتاب العزيز وتفسيره ، واذا كانت اللغة والمأثور لاغناء عنهما لمفسر القرآن فإن السياق كذلك . واليك بيان ما نحن بصدده :

الإلقاء جاءت في سورة الأنفال التي تحدثت عن غزوة بدر ، والتي كانت بين المسلمين وبين قريش ، وكان المشركون من أهل مكة يقفون ويتجمعون في ذلك الموضع ، لا يجدون ما يتحصنون به إلا تروسهم وأسلحتهم ، لكن كلمة (القذف) جاءت في سورة الحشر ، سورة بني النضير ، وهم الذين - كما حدثنا القرآن عنهم - كانت لهم حصونهم المنيعة الحصينة ، والقرآن الكريم يحدثنا عن ذلك ، وهو يمتن على المؤمنين (هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله) [الحشر : ٢] .

كانت كلمة الإلقاء إذن في مكانها المناسب ، وجاءت كلمة القذف حيث لا يصلح أن تستعمل كلمة الإلقاء ... وهكذا تتجلى لنا الكلمة القرآنية بهاء ورواء .

٢- حادَّ وشاقَّ هاتان كلمتان في كتاب الله ، استعملت كل واحدة منهما في موضع معين ، فقد استعملت الأولى في سياق الحديث عن المنافقين ، واستعملت الثانية في سياق الكافرين ، كما يشهد لذلك ما جاء في سورة براءة في سياق المنافقين (ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله) [التوبة : ٦٣] ، وفي سورة المجادلة (إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم) [المجادلة : ٥] (إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين) [المجادلة : ٢٠]

ووردت المشاقة حديثاً عن الكافرين في قوله تعالى (ذلك بأنهم شاقوا الله

ورسوله) [الأنفال : ١٣] في سورة الأنفال حديثاً عن المشركين ، و (ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله) [الحشر : ٤] في سورة الحشر حديثاً عن اليهود .

والسؤال : لم اختصت كل كلمة بموضعها ؟ وللإجابة على ذلك نقول :

إن المشاقة أن يكون كل من الفريقين في شق غير الذي فيه الآخر ، ففيها معنى البعد ، أما المحادة : فليس فيها هذا المعنى ، إذ المتحادان يفصل أحدهما عن الآخر حدّ - أي علامة - توضع بين الفريقين كحدّ الأرض ، وهو ما فيها من علامات تميز بين الشركاء ، وهكذا المنافقون يدعون الإسلام بألسنتهم فتجري عليهم أحكامه الظاهرة وليس الكافرون كذلك : لذا استعملت كلمة المشاقة في جانب الكافرين ، وكلمة المحادة في جانب المنافقين : لأن المنافقين يدعون الإسلام بألسنتهم .

٣- وهاتان كلمتان متجاورتان في سورة آل عمران :

إحداهما : في قصة زكريا عليه السلام : (قال رب أنّى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقرٌ ، قال كذلك الله يفعل ما يشاء) [آل عمران : ٤٠] .

والأخرى : في قصة مريم :(قالت ربِّ أنّى يكون لي ولدٌ ولم يمسسني بشرٌ ، قال : كذلك الله يخلق ما يشاء) [آل عمران : ٤٧] .

فلقد عبّر بالفعل (يفعل ما يشاء) في الآية الأولى ، لأن لفظ الفعل غالباً ما يجري على قانون الأسباب المعروفة . وعبّر بـ (الخلق) في الثانية (يخلق ما يشاء) ، فالخلق يجري في الايجاد والابداع . ولما كان ايجاد يحيى من زوجين كسائر الناس ، عبّر عنه بالفعل . لكن إيجاد عيسى - عليه الصلاة والسلام - جرى على غير قانون الأسباب والمسببات فعبّر عنه بالخلق (١) .

---

(١) ولا ننسى أن قصة زكريا ذكر فيها الغلام ، وقصة مريم ذكر فيها الولد ، لأن قضية الولادة هي المعجزة ، أما ذكر الغلام في سورة مريم (قالت : أنّى يكون لي غلام) فموافقة لجبريل حينما قال لها : (إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً) .

٤- الإغراء والإلقاء :

ومما هو جدير بالتدبر ، حريٌ بأ ن تخشع له القلوب ، هاتان الكلمتان من كتاب الله ، وهما كلمتا الإلقاء والإغراء ، ولنستمع :

في سياق الحديث عن أهل الكتاب (ومن الذين قالوا إنّا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ، وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون) [المائدة : ١٤] وفي آية أخرى (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا ، بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلّما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ، ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين) [المائدة : ٦٤] .

وقفت طويلاً عند هاتين الآيتين ، أتساءل عن سر استعمال " أغرينا " في آية و " ألقينا " في أخرى ، وكنت على يقين من أن وجود كل من الكلمتين في موضعها ، لابد له من حكمة . والحقيقة أن الإعجاز البياني للقرآن الكريم لا يختص بالعرب وحدهم - كما بينته لك من قبل - إنما كل من فقه العربية من غير العرب ، أو ترجمت له معاني الكتاب الكريم ، فإنه سيقف على هذا الإعجاز ، كما يقف عنده العربي ذو الطبيعة المسترسلة ، والسليقة المتأصلة .

جاءت كلمة الاغراء حديثاً عن النصارى ، أما كلمة الإلقاء فجاءت في سياق الحديث عن اليهود ، وان كان كثير من المفسرين ذهب إلى أن قوله تعالى (وألقينا بينهم العداوة) أي بين اليهود والنصارى ، وإذا أردنا تفسيراً قريباً للإغراء والإلقاء، فإن الإغراء ببساطة هو الإلصاق بحيث إذا ألصقت شيئين معاً يصعب فصلهما ، فهو مأخوذ من الغرا (بفتح الغين) أو الغِراء (بكسرها) وهي المادة المعروفة عند كثير من الحرفيين ، أما الإلقاء فهو مجرد الطرح .

وبعد هذه المعرفة اللغوية ، إذا أردت أن تتذوق البيان في الآيتين الكريمتين ، فلا بد لك من التاريخ والواقع ، فلقد حدثنا التاريخ أن العداء بين الأمم النصرانية مستحكم ملصق بهم ، وعليك أن تقرأ التاريخ يحدثك عن تلك الحروب الطاحنة ، بين الشعوب الأوروبية والطوائف النصرانية ، ولقد كان آخرها شمولاً الحرب العالمية الثانية ، وإنما قلنا آخرها شمولاً ، لأن هناك عداوات إقليمية بين الكنائس النصرانية كما يحدث في ايرلندا وغيرها لا زال على أشده .

أما الإلقاء : فهو مجرد الطرح كما علمت ، فإذا كان الضمير في قوله تعالى (بينهم) راجعاً لليهود ، فنحن نعلم أن ما بين اليهود من عداوة لم تصل إلى ما هي عليه عند النصارى وإذا كان راجعاً لليهود والنصارى ، - كما ذهب بعض المفسرين - فالأمر فيه ظاهر كذلك ، فأمر العداوة لا يصل إلى ما هو عليه عند النصارى بعضهم مع بعض ، وان خير دليل على ذلك ما حدثنا عنه التاريخ مما كان بين النصارى واليهود ، وبخاصة في أوروبا ، ولكنه تحول اليوم إلى مودة ومعونة ومساعدة لما كان المسلمون طرفاً ثالثاً .

هذه شذرة من شذرات الإعجاز البياني ، كما يصوره الكتاب الخالد،وصدق الله (وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) .

٥- الدثار والتزمل :

قال تعالى { يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً ، نصفه أو انقص منه قليلاً ، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً } [المزمل : ١-٤] وقال تعالى (يا أيها المدثر ، قم فأنذر وربك فكبر ، وثيابك فطهر) [المدثر : ١-٤] ، وكثيرون الذي يفسرون الدثار والتزمل بمعنى واحد ، إلا أن اختيار الكلمة القرآنية في موضعها ، يحتم علينا أن نبحث عن سر هذا الاختيار ، فالدثار هو اللباس الذي يلي البشرة ، أما التزمل فهو يعطي معنى زائداً على ما سبق ، فالتزمل فيه معنى الثقل والكثرة ،

ومنه الزوامل التي تحمل الأحمال الثقيلة ، ولما كان الدثار أمراً لابد منه لكل من يقابل الناس ، جاء قوله سبحانه (يا أيها المدثر قم فأنذر) ولما كان المتزمل المتلفف، المتثقل بما يضعه على بدنه من ثياب وغطاء وغشاء - التزمل عادة إنما يكون في الليل عند النوم - ، جاء قوله سبحانه (يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً) .

وهكذا تجد الكلمات القرآنية كل في موقعها الذي يصلح لها ، وفي موضعها الذي لا تصلح هي إلا به .

ثالثاً : رسالة الحرف في كتاب الله تعالى

وإذا كنّا نتحدث عن الكلمة القرآنية ، فإنما نعني بها الكلمة باصطلاح اللغويين ، اسماً كانت ، أو فعلاً ، أو حرفاً ، من حروف المعاني ، لذلك كان لهذا الحرف نصيبه الأوفى ، وحظه الأوفر في البيان القرآني ، سواء كان ذلك من حيث حذفه وذكره ، أم من حيث وضع حرف مكان حرف آخر .

وأحب أن أشير هنا إلى أن ما ذهب إليه كثير من العلماء من تناوب الحروف بعضها مكان بعض ، قضية غير مسلمة أو مستساغة في كتاب الله تعالى ، فكل حرف له مدلوله الخاص به . فإذا قال تعالى (لأصلبنكم في جذوع النخل) [طه :٧١] فإن حرف الجر (فى) جيء به قصداً ، ولا يسد غيره مسده [1] . وهكذا كل حرف في كتاب الله تبارك وتعالى ، لا ينبغي أن نقول : إنه جاء عوضاً عن غيره ، فعن في قوله تعالى (عن صلاتهم ساهون) [الماعون : ٤] ليس المقصود بها أن تكون بمعنى في أي في صلاتهم .

فلقد ذكر المحدث الخطابي [2] بسنده إلى مالك بن دينار ، قال :جمعنا

---

(١) ذلك لأن الحرف يصور لنا ما في نفس فرعون من حقد وغيظ على أولئك السحرة المؤمنين .

(٢) أنظر : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن - ص ٣٢ .

الحسن – يعني البصري رحمهم الله جميعاً – من أجل عرض المصاحف ، وكان في المجلس أبو العالية ، فسأله أحدنا عن قوله تعالى (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون) فقال أبو العالية : هو الذي يسهو في صلاته ، فقال الحسن : لا ، يا أبا العالية : إن الله يقول (عن صلاتهم) ولم يقل في صلاتهم)[1] فنحن نرى أن الحسن البصري – رحمه الله ورضي عنه – وهو الذي أرضع لبان النبوة فأكرمه الله أيما إكرام – أبى أن يستبدل الحرف القرآني بغيره .

استعمال الأحرف المختلفة في أماكن متشابهة :-

١- في سورة البقرة يقول ربنا تبارك وتعالى (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا) [البقرة : ١٣٦] وفي سورة آل عمران (قل آمنا بالله وما أنزل علينا) [آل عمران : ٨٤] . فنحن نرى أنه عبّر بـ (إلى) حينما كان الخطاب للأمة لأن القرآن إنما أنزل اليهم ، وتجيء (على) حينما كان الخطاب للرسول – صلى الله عليه وسلم – لأن القرآن إنما أنزل عليه وحده .

٢- ومن هذا القبيل ما نقرؤه في سورة النساء (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً وارزقوهم فيها واكسوهم) [النساء : ٥) وبعدها بآيتين نقرأ قوله سبحانه (وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه) [النساء : ٨] .

فلقد عبّر بحرف الجر (في) في الآية الأولى لغرض رائع ، وهدف بديع ، ذلك أن إعطاء أولئك من المال لا ينبغي أن يكون من أصله وعينه ، وإنما من ربحه

---

(١) وهذا هو رأي المحققين اللغويين ما نقله أبو هلال العسكري عن ابن درستويه . أنظر : الفروق اللغوية – لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري ، ضبطه وحققه / حسام الدين القدسي – طبعة دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان (سنة ١٤٠١هـ-١٩٨١م) ص ١٣ .

وثمرته فهي دعوة لاستثمار المال واستغلاله فيما يحل ، هذه الدعوة العريضة - دعوة استثمار المال - حمل لواءها هذا الحرف وحده ، ومن هنا قلت : إن كل حرف قرآني له رسالة يؤديها ، وهذا لا يمكن أن يتصور في الآية الأخرى - آية تقسيم التركة- حيث يأخذ كل نصيبه الذي يستحقه ، على أن يؤتى أولو القربى واليتامى والمساكين شيئاً من هذه التركة .

٣- ونقرأ قوله الله تبارك وتعالى (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) [التوبة :٥١] ولم يقل (علينا) فوضع اللام هنا مقصود ، متفق مع نفسية المسلمين الذين يعدون كل ما من الله تبارك وتعالى خيراً ونعمة .

٤- وحينما نقرأ سورة الفتح نجد ربنا تبارك وتعالى يمتن على نبيه - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه - رضوان الله عليهم - بمنن كثيرة ، منها انزال السكينة ، وهذه المنّة تذكر مرات ثلاث في ثلاث آيات ، تعدّى فعل الإنزال في احداها بحرف الجر (في) ، وفي الآيتين الأخريين بحرف الجر (على) وإليكم هذه الآيات لتتدبروها :-

الآية الأولى :(هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم) [الفتح : ٤] والآية الثانية :(لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم) [الفتح : ١٨] .

والآية الثالثة : (فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) [الفتح:٢٦] .

والمتتبع لأحداث الحديبية يدرك ما أصاب المسلمين من هزات ، وما أقلقهم من أحداث ، كان أولها ، حينما صدهم المشركون عن البيت ، ثم تلا ذلك ما أشيع عن قتل عثمان - رضي الله عنه - وما أعقب ذلك من بيعة الرضوان ، ولعل أشدها ما كان عند إبرام الصلح .

إذن كان المسلمون بحق بحاجة ماسة إلى هذه السكينة في هذه المواطن الثلاثة ، لذا أنزلها الله على رسوله وعلى المؤمنين حينما صدوا عن البيت بسبب حمية الجاهلية ، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة (إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) [الفتح: ٢٦] فالمؤمنون يذكرون مع الرسول عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم لانزعاجهم جميعاً من صد المشركين إياهم ومنعهم من أن يتموا عمرتهم .

ولكن المؤمنين خصوا بهذه السكينة عند بيعة الرضوان كرامة من الله ، كما رأينا في الآية الكريمة (لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم) عدى الإنزال بـ (على).

أما الموضع الأخير ،وهو ما كان عند ابرام الصلح ، وقد وجد المسلمون في أنفسهم من القلق والألم والأضطراب ، فلقد عدى الإنزال بـ (في) ، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة (هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم) فلقد كان المسلمون بحق بحاجة إلى السكينة تتغلغل في قلوبهم في هذا الموطن عند ابرام الصلح ؛ لذا عدى الإنزال بـ (في) دون الموضعين الآخرين ، لأن المؤمنين كانوا أكثر حاجة إلى هذه السكينة في هذا الموطن ، وبدهي أن هناك فرقاً كبيراً بين (في) و (على) إذ تستعمل (في) للظرفية وهذا يدل على تغلغل السكينة في أعماق المؤمنين وقلوبهم .

٥- ومن هذا القبيل ، هاتان الآيتان الكريمتان (قل إن الأمر كله لله) [آل عمران : ١٥٤] وقال سبحانه (والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين) [النمل : ٣٣] .

فالآية الأولى تثبت أن الأمر ثابت لله وحده ، لا يشاركه فيه غيره ، أما الآية الثانية فاذا نظرنا في سياقها ، وجدنا أن لها معنى آخر ، فملكة سبأ حينما جمعت الملأ (وقالت أفتوني في أمري ، ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون) فهي لا تشك في

أن الأمر لها هي وهم لا يشكون كذلك ، ولذا قالوا لها مجيبين (نحن أولو قوة وأولوا بأس شديد ، والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين) [النحل : ٣٣] فهم لا يريدون ان يبينوا أن الأمر ثابت لها ، فهذا لا تجهله هي ، ولا ينازعون هم فيه كذلك، إنما يريدون أن يبينوا - والله أعلم بمراده - أننا مهما أبدينا من آراء ، وأياً كانت المشورة التي نشعر بها ، فإن نهاية ذلك كله إنما هو راجع إليك أنت ، فآراؤنا جميعاً وأقوالنا ومشورتنا ، ليست شيئاً مذكوراً ، فأنت صاحبة القرار الأخير .

وهكذا ندرك أن كلاً من الحرفين اعطى ما لم يعطه الآخر .

٦- ومن هذا ما نجده من أسرار بيانيه في استعمال الحروف بين هاتين الآيتين قال تعالى (وأنزل لكم من السماء ماءً لكم فيه شراب ومنه شجر فيه تسيمون) [النحل : ٦٠] وقوله سبحانه (وينزل عليكم من السماء ماءً ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبكم وليثبت به الأقدام) [الأنفال : ١١] فالآية الأولى التي ذكر فيها اللام وما يشبهها ، جاءت تبين أن الله أنزل الماء من أجلهم ، لتحيا به الأرض ، وليشربوا وأنعامهم وهكذا نجد أن الآيات الكريمة التي ذكرت فيها نعمة إنزال الماء يذكر فيها هذا الحرف اللام (لكم) .

ولعل الآية الوحيدة التي ذكر فيها حرف الجر على ، الآية الثانية (وينزل عليكم) ، وهي كما نعلم جاءت تتحدث عن نعم الله على المؤمنين في بدر . فما سر هذه الهندسة الدقيقة في استعمال الحروف ووضع كل شيء في المكان الذي يتسق معه جمالاً وموضوعاً .

إن إنزال الماء من السماء ، من أجمل نعم الله ، فلا تتم الحياة إلا به « لنحيي به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا انعاماً وأناسي كثيراً » : لذا كانت اللام هي التي تدل هذه الدلالة الواسعة .

أما في آية بدر فكان إنزال الماء لحكمة اقتضاها الظرف الذي يعيشه المؤمنون

في هذه الفلاة من الأرض ، فلقد كان إنزال الماء عليهم : لأن هدفه تطهير أبدانهم مما أصابها من حدث ، وذلك ليقابلوا العدو بنفوس طاهرة ، وأجسام طاهرة كذلك ، وأيد متوضئة . أي بشر ، بل أي أدب ، بل أي عقل وأي دقة وأي إحكام يمكن أن تصل إلى هذه الدقة البديعة ، وصدق الله « قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض ، إنه كان غفوراً رحيما » .

٧- ومن هذا القبيل قوله سبحانه (وأوحى ربك إلى النحل) [النحل : ٦٨] (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه) [القصص : ٧] (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) [الشورى : ٥٢] (وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا) [يوسف:١٢] (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) [النساء:١٦٣] . وهكذا نجد الآيات التي جاء فيها الوحي جاءت على هذا النمط ، ذكر فيها حرف الجر إلى ، ولكن آية واحدة في كتاب الله وجدناها تخرج عن هذا النمط ، ويخالف فيها ، ذلكم السياق ، حيث لا يتعدى الفعل فيها بإلى ، وإنما يذكر حرف آخر وهو اللام ، وهذه الآية هي قوله سبحانه (إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، وقال الإنسان ما لها ، يومئذ تحدث أخبارها ، بأن ربك أوحى لها) [الزلزلة : ١ - ٥] .

وما نظن أن اللام وإلى يتعاقبان - كما قيل من قبل - ولكننا إذا أنعمنا النظر في الآيات ، وجدنا هذه الآية دون غيرها ، كان الوحي فيها للجماد : وهي الأرض ، أما غيرها من الآيات فكانت إما للأنبياء عليهم الصلاة السلام ، وإما لغيرهم من العقلاء ، وإما لغيرهم من ذوي الحياة ، كالنحل مثلاً ، وهكذا نجد أن تغير الحرف إنما جاء يشير إلى أمر وقضية ، حري بها أن تتدبر .

الوحي للجماد عدي باللام ومنه قول الراجز (وحى لها القرار فاستقرت) وذلك أن الأرض سخرت دون أن يكون لها جهد في هذا الوحي أما غير الجماد فليس

كذلك لأن له جهداً فيما أوحي له سواء كان هذا الجهد فكراً وتدبيراً ، كما هو من العقلاء ، أم كان سيراً وإلهاماً كما هو لغير العقلاء و كما تفعل النحل .

ثم إن آيات الوحي كلها كان الحديث عنها في الدنيا ، أما هذه الآية الأخيرة فإن الحديث عنها في الآخرة « يوم يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

حذف الحرف وذكره :

بعد أن حدثناك عن استعمال الأحرف المختلفة في أماكن متشابهة ، ورأيت من ذلك ما نرجو أن يكون قد أطمأن به قلبك وسكنت له نفسك ، سنحدثك عن قضية أخرى من قضايا الحرف ، لا تقل عن سابقتها ، سحر بيان ، ودقة معنى وإحكام نظم ، ونعني بها ذكر حرف في آية وحذفه من أخرى ، مع ما بين الآيتين من تشابه ، فلماذا حذف ؟ ولماذا ذكر ؟ وستدرك أن كل حرف إن ذكرفإنما كان له سره وحكمته ودواعيه ، أما إن لم يذكر فإن لذلك سره وحكمته كذلك .

١- قال تعالى في سورة الشعراء يحكي لنا ما قاله المعاندون لأنبيائهم ، وبالتحديد ما قالته ثمود التي استحبت العمى على الهدى لنبيهم صالح عليه وعلى نبينا وأنبياء الله الصلاة والسلام ، وقد أمرهم بعبادة الله وحده وحذرهم (قالوا إنما أنت من المسحرين ما أنت إلا بشر مثلنا ، فأت بآية إن كنت من الصادقين ، قال : هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم) [الشعراء : ١٥٣ ، ١٥٥] ، أما قوم شعيب عليه الصلاة والسلام فهذه مقالتهم كما جاءت في كتاب الله (قالوا : إنما أنت من المسحرين ، وما أنت إلا بشر مثلنا ، وإن نظنك لمن الكاذبين) [الشعراء : ١٨٥ ، ١٨٦] .فنحن أمام آيتين متحدتين في الجواب : ذكر حرف العطف في إحداهما ولم يذكر في الأخرى ، فما هو السر البياني يا ترى ؟ .

من المفيد أن نستمع إلى ما قاله العلماء أولاً ،ثم نحدثك بما يفتح الله به ،

وهو الفتاح العليم . فالشهاب الألوسي[1] ، وهو خاتمة المحققين في عصره ، يرى أن سبب زيادة الواو يرجع إلى أن شعيباً عليه الصلاة والسلام كان خطيب الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - فأحب القوم أن يجاروه فيما وهب من قول فزادوه هذه الواو.

ومن قبل الشهاب الألوسي - رحمه الله - يقول الكرماني صاحب متشابه القرآن ، ما هو قريب من هذا :أن شعيباً زاد في الحديث ، فزادوا له في القول ، وأن صالحاً قلل فقللوا له[2] .

وما أظن ذلك مقنعاً ، ولا منسجماً مع بيان القرآن الكريم وروعته وإيجازه وإعجازه ، فهل كان شعيب خطيب الأنبياء حقاً ، وهل كام كلام صالح أقل من كلامه عليهما الصلاة والسلام ؟ لعل واقع الآيات التي جا ءت كل من الجملتين بعدها لا يشهد لذلك ولا يقره .

وعلى التسليم بأن كلام صالح كان أقل ، فهل وجود الواو من شأنه أن يكون زيادة في الحديث تتفق مع بلاغة شعيب وخطابه؟ والعجب من الكرماني وغيره حيث عدّ الجملة الأولى (ما أنت إلا بشر مثلنا) بدلاً ، والجملة الثانية {وما أنت إلا بشر } : عطفاً مع اتحاد المعنى ، مع أننا نعرف أن البدل والعطف متغايران تماماً ، فإذا قلنا (قام زيد وأخوك) و (قام زيد أخوك) ففي الجملة الأولى ينبغي أن يكون زيد ليس هو الأخ ، أما الجملة الثانية : فإن زيداً فيها هو الأخ نفسه ، وإذن لا يمكن أن تكون إحدى الجملتين عطفاً ، والأخرى بدلاً، ويكون المعنى واحداً .

---

(١) أنظر : تفسير الألوسي المسمى روح المعاني ، ج ١٩ / ص ١١٩ .

(٢) محمود بن حمزة الكرماني (ت نحو ٥٠٥ هـ - ١١١٠ م) متشابه القرآن ، الذي غيّر محققه اسمه فسماه : أسرار التكرار/ دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا / طبعة دار الاعتصام طبعة ثانية (١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م) ص ١٥٥ .

والذي ظهر لي - ولله الحمد والمنة ، والله أعلم - أن هنا شفافية من الإعجاز التاريخي والبياني معاً وإليكم بيان ذلك ، وحاولوا أن تعدوا أنفسكم لتلقيه وفهمه فهو بحق بديعة من بدائع إعجاز القرآن .

إن كلمة مسحرين لها معنيان : يمكن أن تفسر بالمسحورين الذين أصيبوا بمس واختلط الأمر عليهم ، ويمكن أن تفسر بمن لهم معدة ورئة يأكلون ويشربون ، ومن هذا القبيل ما ورد عن أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - : (توفي رسول الله - صلى الله عليه وسلم- وهو بين سحري ونحري [1]وقد ذكر المفسرون ابن جرير والزمخشري والرازي هذين القولين ، أما الزمخشري والرازي فلم يرجحا قولاً دون آخر ، وأما ابن جرير فقد رجح أن كلمة مسحرين في الآيتين ، تعني أنهم بشر يأكلون ويشربون .

والذي نراه هنا التفصيل فما قاله قوم صالح - عليه الصلاة والسلام - قصد به هذا المعنى الأخير وهو ما رجحه ابن جرير ، وما قاله قوم شعيب - عليه الصلاة والسلام - قصد به المعنى الأول أي من المسحورين ، وحجة ذلك [2] .

أن كلمة مسحر : حينما تفسر بصاحب المعدة والرئة ، الذي يأكل ويشرب فإنها تكون مساوية للبشرية ، أما إذا فسرت بالمسحور ، فإنها لن تكون كذلك ، بل كل منهما فيها معنى غير الذي في الأخرى ، وقد قال قوم صالح (إنما أنت من

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة ، باب في فضل عائشة رضي الله عنه بلفظ (قالت : لما كان يومي قبضه الله بين سحري ونحري) حديث رقم (٢٤٤٣) (١٨٩٣/٤) .

(٢) وليس في ذلك محظور أن تكون اللفظة الواحدة لها أكثر من معنى ، وها هو أحد علماء اللغة وهو المبرد (ت ٢٨٥ - ٨٩٨ م) يكتب كتاباً في هذا ، وهو :" ما اتفق واختلف معناه في كتاب الله " .

المسحرين ، ما أنت إلا بشر مثلنا) فلم توسط الواو بين الجملتين ، لأن معناهما واحد، إذ معنى المسحرين الذي قصده قوم صالح هو أنك ذو رئة تأكل وتشرب ، ثم جاءت الجملة الثانية تؤكد هذا المعنى (ما أنت إلا بشر مثلنا) ، فإن كونه يأكل ويشرب ، معناه أنه بشر ، فالجملة الثانية إذن ليست أجنبية عن الأولى ، بل هي تأكيد لها ، فبين الجملتين كمال اتصال كما يقول علماء البلاغة ، لذا لا يجوز أن تتوسط الواو بينهما ، لأن العطف يقتضي التغاير ولو وسطت الواو لكان لكل من الجملتين معنى يختلف عن معنى الأخرى .

وعلى العكس من هذا ما قاله قوم شعيب « إنما أنت من المسحرين وما أنت إلا بشر مثلنا » فكلمة (مسحرين) يجب أن تفسر بالمسحورين الذين مسهم الشيطان واختلط عليهم الأمر ، وهذا يختلف عن كونهم بشراً ، فقوم شعيب ألصقوا بنبيهم تهمتين : كونه مسحوراً أولاً ، وكونه بشراً ثانياً ، ولا شك أن كلا من التهمتين تختلف عن اختها ، لذا وسطت واو العطف ، لأن العطف يقتضي التغاير كما قلنا ، ذلكم هو الإعجاز البياني في الآية .

بقي نوع آخر من الإعجاز ، وهو إعجاز تاريخي ، لكنه متفرع كما رأينا عن الإعجاز البياني ، فالإعجاز البياني هو الأصل والأساس ، فما هو هذا الإعجاز التاريخي ؟

إننا ونحن نقرأ كتاب الله تعالى ، يحدثنا عما كان يدور بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وأقوامهم ، نجد أن التهمة بفرية السحر ، لم تكن معروفة عند الأنبياء الأول ، وإنما كانت متأخرة ، وكأن قضية السحر لم تكن مشتهرة عند القبائل الأولى : عاد وثمود ، وكل الذي يجيبون به أنبياءهم أنهم بشر يأكلون ويشربون ، وأنهم اتبعهم الأرذلون ؛ لذا لا نستطيع أن نفسر كلمة (مسحرين) التي قالها قوم صالح بمن أصابه السحر ؛ لأن السحر لم يكن معلوماً لهم ولا معروفاً عندهم ، إن

السحر ظهر متأخراً وقد حدثنا القرآن عن السحر عند المصريين القدماء ، ونحن نعلم قرب المسافة بين مصر ومدين منزل شعيب علية الصلاة والسلام ؛ لذا كان السحر معلوماً لهم معروفاً عندهم .

وهكذا ندرك نوعي الإعجاز في الآيتين - أعني البياني والتاريخي [1] كما قرر من قبل ، والله أعلم فلله در هذا التنزيل وما أعظم وأجمل رسالة الحرف ، ونسأله أن يلهمنا الصواب ، وأن يفتح علينا في فهم كتابه .

٢- نقرأ في سورة الواقعة (أفرأيتم ما تحرثون ، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ، لو نشاء لجعلناه حطاماً) [الواقعة : ٦٣] ثم نقرأ قول الله تعالى عقب الحديث عن (الماء) (أفرأيتم ما تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء جعلناه أجاجاً) [الواقعة : ٧] فلماذا جاءت اللام في آية ، وحذفت من الثانية ؟ الآية الأولى جاءت حديثاً عن الزرع ، والثانية عن الماء .

ونحن نعلم أن قدرة الناس فيما يظنون على التحكم بالزرع أكبر من قدرتهم على التحكم في أمور الماء ، لذلك جاءت هذه اللام المؤكدة ، فيما يظن الإنسان أن له قدرة عليه ، وهو الزرع ، لكنها حذفت عند الحديث عن الماء ، حيث يعترف الإنسان بعجزه وتقصيره في هذا المجال ، وتلكم هي دقة القرآن الكريم ، حيث جاءت الكلمة فيه مقدرة بقدرها .

٣- تحدث القرآن الكريم عما خص به أهل الجنة ، وعما أنعم الله به على الناس في الدنيا ، ففي سورة (المؤمنون) يمتن الله على الناس بقوله { فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون } [آية : ١٩] . ونقرأ في

---

(١) فكلمة (مسحرين) التي قيلت لصالح تعني أن يأكل ويشرب ، وهذه هي البشرية بعينها ، فليس هناك مكان للواو ، أما ما قاله قوم شعيب عليه السلام ، فهو من السحر ، وهو زائد عن البشرية ، لذا جاءت الواو .

سورة الزخرف { وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون ، لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون } [الآية : ٧٣] . فلم جاءت هذه الواو في الآية الأولى حديثاً عن نعم الله على الناس في هذه الحياة ، وحذفت عندما كان الحديث عن الجنة وأهلها ؟

إن أدنى تأمل يطلعنا ونحن نتدبر الآيتين الكريمتين على مواطن الإعجاز ودقائق البيان ، وسر التعبير وروعة التقدير . إن جنات أهل الدنيا ليست كلها معدة للأكل ، فهناك أغراض كثيرة ، لعل في مقدمتها التجارة ، ومنها التصدق والإهداء.

أما فاكهة أهل الجنة فليست كذلك فإن الهدف الرئيس والغرض الأساسي منها هو الأكل وحده ، وأظنكم بدأتم تدركون سر وجود الواو في الأولى وحذفها في الثانية ؟ .

إن الواو حرف عطف - كما تعلمون - ولابد لها من معطوف ومعطوف عليه، من أجل ذلك كانت هذه الواو الدالة على أشياء معطوف بعضها على بعض ، فكأنه قيل : أنشأنا لكم جنات ، لتتجروا ، وتدخروا ، وتتصدقوا ، وتعطوا ، ومنها تأكلون كذلك . كان لابد من هذه الواو - إذن - في الحديث عن جنات الدنيا ، لكننا لا نجد لها ضرورة في الآية الثانية ، إذ وجودها يكون زيادة يجل النظم الكريم عنها [(١)].

٤- قال تعالى (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) [آل عمران : ١٣٩] وقال سبحانه (فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم) [محمد : ٣٥] .

وقفت كثيراً مع الآيتين الكريمتين ، أتأمل النظم راجياً من الله أن يكرمني

---

(١) متشابه القرآن للكرماني / ص ١٣٦ .

بنور الفهم ، والفرق بين الآيتين من حيث النظم ظاهر لك ، ففي الآية الأولى ذكرت (لا) مرتين (ولا تهنوا ولا تحزنوا) ، ولكنها في الآية الثانية لم تذكر إلا مرة واحدة (فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم) ، ويعلم الله أن هذا القرآن يحمل حجته على أنه تنزيل ربّ العالمين ، في كل آية من آياته ، وأرجو أن تتدبر الآيتين تدبراً جيداً وما أظنك إلا أنك سيرقص قلبك ، وتتيه نفسك ، ويخشع فؤادك ، ولقد وجدت ذلك كله - يعلم الله صدق ما أقول - .

ولعله قد بلغ بك الشوق مبلغاً ، لتدرك سر النظم في الآيتين الكريمتين ، فالآية الأولى جاءت تحذر المؤمنين من أمرين اثنين ، الوهن والحزن ، والوهن والحزن أمران ليسا من الفضيلة ولا من الخير في شيء ، فلا يجوز للمؤمنين أبداً أن يركنوا إلى واحدة من هاتين الصفتين ، أو من هذين المرضين الإجتماعيين ، اللذين ينخران جسم الأمة ، فيحولان بينها وبين نعمة الأمن ، وحلاوة الاستقرار ، والقدرة على التحفز ، ولذة المقاومة ، مقاومة الشر .

أما الآية الثانية : فكان النهي فيها عن امرين اثنين كذلك : الوهن ، وهو ما تشترك فيه مع الآية الأولى ، وهو الأمر الأول ، أما الأمر الثاني فهو الدعوة إلى السلم ، ولكنه لم يقترن بحرف النهي (لا) الذي اقترن به الحزن ! وما ذلك - والله أعلم بما ينزل - إلا لأن الحزن شر في كل وقت ، أما الدعوة إلى السلم فليس كذلك، إنما هو شر حيناً ، ولكنه قد يكون خيراً حيناً آخر ، ألا ترى إلى قوله تعالى (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله) [الأنفال : ٦١] ولكنه شر حينما يكون استسلاماً وحينما يقترن بالضعف والوهن ، كما هو الشأن في أيامنا هذه ، فلو أنه قيل (فلا تهنوا ولا تدعوا إلى السلم) لكان محرماً على المسلمين في كل حين وعصر ، وليس هذا من شأن الإسلام ، لكن نظم الآية على ما هو عليه (فلا

تهنوا وتدعوا إلى السلم) جاء يحرم على المسلمين الدعوة إلى السلم الناشئة عن الضعف ، والتي هي خضوع وخنوع وذل لا يرتضيه الإسلام ولا يليق بالمسلمين .

أرأيت إلى بديع النظم ، أرأيت إلى رسالة الحرف القرآني التي يحملها للمسلمين ، هذا الحرف (إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) [يوسف : ٢]
(قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً)
[الفرقان:٦] .

رابعاً : الجملة القرآنية :

في الجملة القرآنية مظاهر كثيرة من مظاهر الإعجاز ، ومن هذه المظاهر ما نجده في بعض الجمل من تأكيد على حين نرى غيرها مما يشبهها خالية من هذا التأكيد ، ومن مظاهرها كذلك الحذف والذكر ، فقد نجد جملاً ذكرت فيها بعض الكلمات ، على حين نجد جملاً أخرى مشابهة لها قد حذفت منها هذه الكلمات ، على أننا قد نجد كذلك أن جملاً تامة قد ذكرت في بعض الآيات ، ولكنها لم تذكر في آيات آخر، كذلك التقديم والتأخير ، قد نجد بعض الجمل قدمت فيها بعض الكلمات ، ولكن هذه الكلمات نفسها أخرت في جمل أخرى .

وسنحدثكم هنا عن بعض هذه المظاهر ، راجين أن تتدبروا لتدركوا سمو النظم، وتتذوقوا حلاوة الإعجاز .

أ- التأكيد :

(١)يقول الله تعالى { قل يا عباديَ الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم } [الزمر : ٥٣] ويقول سبحانه { وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة ، أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم } [الأنعام : ٥٤] .

هاتان آيتان من كتاب الله تعالى ختمت الأولى بقوله سبحانه { إنه هو الغفور الرحيم } وختمت الثانية بقوله سبحانه { فأنه غفور رحيم } ، وما أظن الفرق بين الجملتين خافياً عليك ، ففي الجملة الأولى جاء التأكيد بضمير الفصل (هو) وضمير الفصل هذا إنما يؤتى به للتأكيد ، ولفوائد بلاغية ذكرت في كتب القوم ، فإذا أردت أن تؤكد على أن الإسلام هو علاج الأمة من أمراضها جميعاً ، فإنك تقول (الإسلام هو العلاج) فتأتي بهذه الكلمة (هو) .

أما الفرق الثاني بين الجملتين فهو أن الجملة الأولى جاء فيها الخبر معرفاً (الغفور الرحيم) وليست كذلك في الجملة الثانية ، وتعريف الخبر يفيد الاختصاص والقصر ، ألا ترى أنك تتذوق الفرق بين قولك (الله ناصر) وبين قولك (الله هو الناصر) ، لأنك في الجملة الأولى كل الذي أثبته وجود النصر من الله ، إلا أنه لم يفهم من هذا القول أن غير الله لا ينصر ، أما الجملة الثانية فإنها لا تثبت أن الله ناصر فحسب ، بل تثبت أكثر من هذا ، وهو أن النصر من عند الله وحده ، وأنه لا ناصر إلا هو تبارك وتعالى .

وبعد أن عرفت هذا ، يمكنك أن تتساءل عن سر النظم في الآيتين الكريمتين ، فإذا عرفت أن الجملة الأولى كان السياق الذي تحدثت عنه هو مخاطبة أولئك المسرفين على أنفسهم ، الخائفين ، القانطين ، وأن الجملة الثانية إنما جاءت حديثاً عن المؤمنين الذين لم يكن منهم كبير خطأ ولا عظيم ذنب ، ولا كثير معصية ، لرقص قلبك ، وأطمأنت نفسك إلى أن القرآن كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ثم قل لي بربك هل يمكن أن يكون هذا النظم لأمة دون أمة ، أم أنه معنى يشترك فيه كل ذي فكر ؛ لأنه ليس حديثاً عن جمال الصورة وحدها التي تحدث عنها علماء البيان .

التأكيد في الجملة الأولى - إذن - كان متفقاً مع نفسية أولئك الذين خاطبهم القرآن وكأنهم أسرفوا على أنفسهم ولا ضرورة له في الجملة الثانية ، وهكذا ندرك أن ألفاظ القرآن الكريم مقدرة تقديراً دقيقاً في مخاطبة النفوس البشرية ، فتبارك الذي نزل الفرقان على عبده .

(٢) يقول الله تعالى { إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون } [يوسف ٢:] { إنا أنزلناه في ليلة القدر } [القدر : ١] { إنا أنزلناه في ليلة مباركة }

الدخان : ٣] ، { وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم } [النحل :٤٤]
ويقول سبحانه { إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون } [الحجر : ٩] .

قف مع هذه الآية الآخيرة وستجد أن نظمها يختلف عن الآيات السابقة ، فهذه الآية الكريمة كثرت فيها التأكيدات ، ولعلك تلحظ هذا ، ففي الجملة الأولى من الآية الكريمة ذكر ضمير الفصل نحن بعد إن واسمها الذي هو ضمير المتكلم سبحانه ، وفي الجملة الثانية منها { وإنا له لحافظون } ذكر مع إن واسمها لام التأكيد ، ثم جيء بهذه الجملة الإسمية { إنا له لحافظون) . وبالجملة فقد أكدت هذه الآية الكريمة بمؤكدات كثيرة ، وكانت هناك عناية كبيرة بشأنها .

فإذا أنعمت النظر في الآيات وفي الموضوعات القرآنية أدركت سر ذلك ، فهذه الآية الكريمة جاءت تتحدث عن شأن خطير من شؤون هذه الأمة ، بل هو أعظم شؤونها ، ذلكم الشأن هو تكفل الله تبارك وتعالى بحفظ هذا الكتاب ، فلم يكله إلى الناس ليحفظوه كما وكل الكتب السابقة ، وفي هذا إقامة الحجة على الأمة فالأمم أن بدلت وغيرت فذلك لتبدل كتبها ، ولكن القرآن باق لا يتغير ، فأي عذر للأمة إن هجرته وتركته واستبدلت به غيره .

الآية الأخيرة – إذن – لم تأت حديثاً عن إنزال القرآن فحسب ، كالآيات السابقة ، وإنما جاءت تحمل في ثناياها قضية من أخطر بل هي أخطر قضايا الأمة .

(٣) يحدثنا القرآن الكريم عن نبينا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وهو يدعو قومه { قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدوٌ لي إلا رب العالمين ، الذي خلقني فهو يهدين ، والذي هو يطعمني ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين والذي يميتني ثم يحيين والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين } [الشعراء : ٧٥ – ٨٢] إننا ونحن نتدبر هذه الآيات الكريمة نلحظ أمراً لابد أن نقف معه : هذا الأمر يظهر في وجود ضمير الفصل مقترناً ببعض الأفعال دون

بعضها الأخر ، فقد جاء هذا الضمير مقترناً بالأمور التالية : الهداية ، الإطعام والإسقاء ،و الشفاء ، أما الخلق ، والإماتة ، والمغفرة ، فجاءت خالية عن هذا الضمير ولم يكن ذلك ناشئاً عن التفنن في العبارة ، أو الإكتفاء بذكره في بعض المواضع دون بعضها الآخر ، وإنما جاء ذلك لغرض وهدف ؛ ذلك أن قضية الخلق ، والإماتة والإحياء ، والمغفرة لا ينازع فيها أحد ، فلا يستطيعون أن يدعوها لأصنامهم التي يعبدونها ويعكفون عليها { قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين } [الشعراء:٧١] فلم تكن هذه القضايا بحاجة إلى التأكيد بهذا الضمير .

أما الأمور الأخرى وهي الهداية والشفاء ، والإطعام والسقيا ، فهي مما يدعون أن لغير الله فيها شأناً وغيرهم يطلبون منها الهداية والتوفيق والشفاء من أمراضهم ، وإذهاب الفقر عنهم ، ولذلك وجدناها مقترنة بضمير الفصل ، لأنها بحاجة إلى التأكيد ، الذي يزيل شبهات النفس ، ويجعل هذه الأمور جميعاً من شأن الله تبارك وتعالى وحده [١].

(٤) يقول تبارك وتعالى { وأن إلى ربك المنتهى ، وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيا ، وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ، من نطفة إذا تمنى ، وأن عليه النشأة الأخرى ، وأنه هو أغنى وأقنى ، وأنه هو رب الشعرى ، وأنه أهلك عاداً الأولى وثمود فما أبقى } [النجم : ٤٢ ، ٥٠] .

إذا أنعمت النظر في الآيات الكريمة ، وجدت أن الخلق والإهلاك جاءا خاليين من ضمير الفصل ، وما ذلك إلا لأن أولئك لا ينازعون في قضية الخلق { ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله } كما أنهم لا ينازعون في قضية الإهلاك ، فهي من الأمور المستقرة في أذهانهم ، والتي يتناقلها أجيالهم بعضها عن بعض ، أما الأمور

(١) انظر درة التنزيل المنسوبة للإسكافي / ص ٣٣٢ .

التي جاءت مقترنة بهذا الضمير فلم تكن كذلك . أما الإضحاك والإبكاء فأمرهما ظاهر ، وكذلك الإماتة والإحياء ذلك أنهم كانوا يقولون { إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر } .

ولعلك تتساءل ما الفرق بين هذه الآية وبين قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام والذي يميتني ثم يحيين ، حيث اقترنت هذه بضمير الفصل ، ولم تقترن الأولى ؟ وهو تساؤل في محله ، والجواب عن ذلك – والله أعلم – أن ذاك رد على لسان ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، وإبراهيم عاين إحياء الموتى في قوله تعالى { قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك } [البقرة : ٢٦٠] فأمر الإحياء والإماتة عنده عليه السلام بدهي مشاهد ، أما الآية التي معنا فلقد جاءت بادى بدء تقريراً لأولئك القوم ، فكانت بحاجة إلى هذا التأكيد ، كذلك قوله (وأنه هو رب الشعرى) والشعرى كوكب كانوا يعبدونه في الجاهلية ، فهم بحاجة إلى أن يبين لهم أن هذا المعبود إنما هو مربوب ومخلوق لله تبارك وتعالى .

ب- الحذف والذكر :-

(١) قال تعالى حديثاً عن الزوجين اللذين لا يستطيعان مواصلة الحياة الزوجية {وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته وكان الله واسعاً حكيماً } [النساء : ١٣]
وقال تعالى يخاطب المؤمنين ليحافظوا على شخصيتهم وعقائدهم { يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم } [التوبة : ٢٨] .

وأظنك تتساءل كما تساءلت انا من قبلك ، لماذا ذكر في هذه الآية قوله (ان شاء) ولم يذكر في الآية السابقة ؟ مع أن كل شيء بمشيئته سبحانه ؟ والذي يلوح لي – والله أعلم بما ينزل – أن الآية الأولى جاءت خطاباً لبعض الأفراد الذين تعسر عليهم مواصلة المسيرة مع أزواجهم ، رجالاً كانوا أم نساءً ، فأراد الله تبارك وتعالى

أن يبين لهم سعة فضله وواسع رزقه ، وعظيم تيسيره ، أما الآية الثانية فجاءت خطاباً للأمة ، والأمة لابد أن تتعود التضحية ، للمحافظة على عقائدها ومقدساتها مهما كلفها ذلك من ثمن ، وقد يؤدي بها ذلك إلى أن تحرم بعض المكاسب ، وتتحمل كثيراً من الأعباء ، ولذا ذكر فعل المشيئة في هذه الآية التي تتحدث عن الأمة ، فانظر إلى الروعة العظيمة في كتاب الله ، ولقد قلت لك ان الإعجاز البياني ليس حديثا عن جمال الصورة وروعة التعبير فحسب ، بل هو مع ذلك يشتمل على سمو التوجيه ، فهو ينظم شؤون الحياة كلها .

وهذه آية أخرى نستأنس بها لهذا الاستنتاج ، ونستعين بهاعلى ما ذهبنا إليه وهي قوله سبحانه (وأنكحوا الأيامي منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ، والله واسع عليم) فهذه الآية كما نرى لم تتقيد بالمشيئة ، لأنها حديث عن شؤون بعض الأفراد والأسر ، فهي شبيهة بالآية الأولى "وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته " لكن تلك الآية في شأن انفصال كل من الزوجين عن الآخر، وهذه تأمر بتزويج الأيامي ، والأيم من لا زوج له ذكراً أو أنثى .

(٢) يقول الله تعالى :(يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً) [النساء : ١٩] مع أن أكثر المنهيات كانت تلي حرف النهي مباشرة (و لا تقتلوا أولادكم) [الاسراء : ٣١] (و لا تقربوا الزنى) [الاسرا : ٣٢] ، (ولا تقربوا مال اليتيم) [الاسراء : ٣٤] (لا يسخر قوم من قوم) [الحجرات : ١١] (ولايغتب بعضكم بعضاً) [الحجرات : ١٢] .

ولكن آية النساء جاء نسقها غير هذا كله ، فلم يقل فيها (لا ترثوا النساء كرهاً) .

ولقد وقفت عند هذا النص الكريم أبحث عن سر التغاير ، وبضم الآيات التي تشبه هذه الآية بعضها إلى بعض مثل قوله تعالى { ولا يحل لكم أن تأخذوا مما

آتيتموهن شيئاً } [البقرة : ٢٢٩] ، ظهر لي - والله أعلم ، ولله الحمد والمنة - أن هذه الكلمة إنما تجيء بجانب الأمور ، أو بجانب القضايا التي كان الناس يزاولونها دون أن يروا بها بأساً أو حرجاً ، أما غيرها من المنهيات فهي أمور تنفر منها الطباع أو ينكرها العرف ، فالقتل والزنا ، وأكل مال اليتيم ، وأكل أموال الناس بالباطل لا يقرها عقل ولا يحلها شرع ، أما التحكم في النساء ووراثتهن كرهاً فإنها تختلف عن الأمور السابقة حيث رأينا أن بعض التشريعات والقوانين عند الأمم المتمدينة المتحضرة ، كانت تجيز هذه إلى عهد قريب ، وهنا تبرز دقة التعبير في كتاب الله في مخاطبة النفس الإنسانية فالأمور المتفق على تحريمها تلي حرف النهي " لا تقربوا " ، " لا تأكلوا " ، " ولا تقتلوا النفس " أما ما يظنه بعض الناس حقاً لا مرية فيه ولا غبار عليه ، فإننا نجد القرآن يعبر عنه بأسلوب آخر حيث يلي حرف النهي هذه الجملة " يحل " .

قولوا لي بربكم أتكون هذه الدقة والموضوعية ، وهذه الفروق في التعبير في كلام الناس ؟ لا ، لا وألف لا .... إن الله الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً هو الذي أنزل هذا الكتاب محكماً فقدر ألفاظه كذلك تقديراً يتلاءم مع موضوعاته من جهة ، ومع نفوس المخاطبين وعقولهم من جهة أخرى { كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير } .

٣- وهاتان آيتان من كتاب الله تعالى نرجو أن نتدبرهما لنرى سمو التعبير ودقة التقدير : الأولى قوله { ومن يشاقق الله ورسوله ، فإن الله شديد العقاب } [الانفال : ٤] والثانية { ومن يشاق الله ، فإن الله شديد العقاب } [الحشر : ٤].

فإحدى الآيتين : اقتصرت على لفظ الجلالة ، وهي آية الحشر ، التي تتحدث عن اليهود وعن بني النضير خاصة { هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر } ،أما الآية الثانية التي ذكر فيها سيدنا رسول الله صلى الله

عليه وسلم ، فإنها تتحدث عن العرب وعن أهل مكة بخاصة ، فما هو السر البياني وما هي الحكمة البلاغية ؟ حيث ذكر لفظ الجلالة وحده في آية الحشر ، وذكر معه الرسول عليه الصلاة والسلام في آية الأنفال ؟ إن عداوة أهل مكة كانت عداوة مزدوجة ، فهي عداوة للإسلام من حيث هو دين لأنه جاء يبطل عقائدهم وكثيراً من أعرافهم ، ثم هي بعد ذلك عداوة لشخص الرسول عليه وآله الصلاة والسلام ، حيث الحزازات والنعرات والعصبية القبلية ، فهم ينكرون أن يخص الله من بينهم محمداً ، ولم يكن ذا مال ، وكان غيره أولى منه في ظنهم ولهم زعماء ووجهاء ، أفليسوا أولى- بزعمهم - بالنبوة من محمد عليه الصلاة والسلام ، ولقد حدثنا القرآن عن هذا الذي يجول في أنفسهم فقال سبحانه { وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم } [الزخرف : ٣١] وينكر عليهم هذا القول بقوله { أهم يقسمون رحمة ربك} وليست عداوة اليهود كذلك ، إن عداوة اليهود للدين أياً كان نبيه ، هاشمياً أم غير هاشمي ، قرشياً أم غير قرشي ، أظنكم بدأتم تدركون دقة التعبير ، فالقرآن الكريم كما نعلم قدرت ألفاظه تقديراً محكماً يقتضيه المعنى والسياق ، والموقف المتحدث عنه : لذا ذكرت كلمة الرسول عليه وآله الصلاة والسلام في سورة الأنفال ، حيث كان هناك داعٍ وسبب لذكرها ، لكنها حذفت من سورة الحشر . وهكذا ندرك أن لكل من الحذف والذكر في القرآن الكريم دواعيه ومقتضياته .

٤- ذكر الجهاد كثيراً في كتاب الله تبارك وتعالى أمراً للمؤمنين به تارة وثناءً عليهم تارة أخرى .

فمن الضرب الأول قوله تعالى { انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون } [التوبة : ٤١] .

ومن الضرب الثاني قوله سبحانه { الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون يبشرهم ربهم برحمة

منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها ابداً إن الله عنده أجر عظيم) [التوبة : ٢٠ - ٢٢] .

وهكذا نجد الآيات الكريمات في كتاب ربنا وهي تذكر الجهاد ، تذكر له متعلقين اثنين :

- فهو بالأموال والأنفس من جهة .

- وهو في سبيل الله من جهة أخرى .

كل ما في الأمر قد يتقدم المتعلق الأول كما جاء في الآية الأولى ، وقد يتقدم المتعلق الثاني كما جاء في الآية الثانية .

والذي يعنينا الآن هذه الآية الكريمة (لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون ، أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم) [التوبة:٨٨-٨٩] .

فعبارة (في سبيل الله) لم تذكر في هذه الآية الكريمة . وما أظن البحث عن السبب يكلفنا كثير فكر ، وكبير عناء ، فالآية جاءت تتحدث عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه البررة الذين شرفوا بمعيته ، وهؤلاء لا يكون جهادهم -بالطبع - إلا في سبيل الله وابتغاء مرضاته ، من أجل هذا لم تذكر " في سبيل الله" .

أما غيرها من الآيات الكريمات ، فكانت إرشاداً للمؤمنين أن يخلصوا العمل فلا تشوبه شائبة رياء ليكون مقبولاً عند الله - تبارك وتعالى - ؛ ولن يكون كذلك إلا إذا كان في سبيل الله .

٥- نقرأ في كتاب الله - تبارك وتعالى هذه الآيات :

قال تعالى { إن المتقين في جنات وعيون آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون وفي

أموالهم حق للسائل والمحروم } [الذاريات : ١٥ - ١٩] .

و قال تعالى { إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعاً . وإذا مسه الخير منوعاً إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) [المعارج : ١٩-٢٥] .

فكلمة (معلوم) ذكرت في آيات سورة المعارج ، ولم تذكر في آيات سورة الذاريات ، وسبب ذلك فيما يبدو لي - والله أعلم بمراده - أن الصفات التي ذكرت في سورة الذاريات ، لا يبالي أصحابها بالمال الذي ينفقونه ، فهم لا يخشون من ذي العرش إقلالا ، وكلما زكت نفس الإنسان كلما تغلب على شحّه ، ورضي الله عن سيدنا أبي بكر ، وقد قال كلمته الشهيرة المأثورة التي ستظل نبراساً هادياً ، وقد سأله الرسول - صلى الله عليه وسلم - : ما أبقيت لأهلك يا أبا بكر ؟ فيقول : أبقيت لهم الله ورسوله .

أما آية المعارج ، فكل ما ذكر فيها المصلون ، ولسنا مع بعض المفسرين الذين يرون أن آية المعارج قد قصد بها الزكاة ، لأن كلتا السورتين مكية - كما نعلم - والزكاة إنما فرضت في المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ولكنها كلمات القرآن تذكر -إن ذكرت- لهدف وغاية ، وتحذف كذلك لهدف وغاية .

جـ- التقديم والتأخير :

(١) كثير من الآيات الكريمة ختمت بذكر أسماء الله عز وجل وصفات من صفاته ، والمتدبر لهذه الآيات الكريمة يلمس فيها أسرار الإعجاز و ولطائف البيان ظاهرة بينة .

وكثير من هذه الآيات - بل أكثرها - نجدها تجمع بين اسمين أو صفتين لله تبارك وتعالى ، ونجد أن بعض هذه الأسماء يطّرد تقديم بعضها على بعض ، فكثير من الآيات ختمت بقوله سبحانه " عزيز حكيم " و " سميع بصير " و " قوي عزيز " ، " عليم خبير " ، ولا نجد آية خرجت عن هذا النظم البديع ، ليست هناك آية قدمت

فيها الحكمة على العزة ، فلم نقرأ " إن الله حكيم عزيز " ، أو العزة على القوة "عزيز قوي " ، كما لم نجد أي آية قدم فيها البصر على السمع " بصير سميع " ، ولا نجد آية كذلك قدم فيها خبير على عليم ؛ ذلك لأن الترتيب الطبيعي والمنطق البياني يستلزم ما جاء عليه النظم القرآني .

فإذا اجتمعت العزة والحكمة ، فحري أن تقدم العزة ؛ لأن الحكمة لن تؤتي ثمارها ، ولن تكون لها نتائجها إلا إذا سبقتها العزة ، ونقيض العزة الذلة ، وما أبعد الذلة عن الحكمة .

لكننا نجد أن القوة قدمت على العزة في مثل قول الله سبحانه " إن الله قوي عزيز " ذلك لأن العزة بدون قوة دعوى لا تثبت أمام الأحداث ، ولا تقوى على البقاء .

وكذلك السمع والبصر ، نجد السمع يقدم على البصر في القرآن كله ، سواء كان ذلك من أوصاف الله تعالى ، أم من أوصاف الناس التي أنعم الله بها عليهم ، مثل " وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة " .

وكذلك العلم والخبرة ، لأن الخبرة أخص من العلم ، لذا لم نجد آية جاء فيها "خبير عليم " .

لكننا ونحن نتدبر الآيات الكريمة ، حيث نجد أن بعض الأسماء الجليلة ، قدم بعضها على بعض في بعض الآيات ، وأخر في بعضها الآخر ، ونتدبر نماذج من بعض الآيات الكريمة .

الأنموذج الأول : المغفرة والرحمة :

جميع الآيات في كتاب الله تبارك وتعالى ، قدمت فيها المغفرة على الرحمة ، لأن المغفرة ستر للذنوب ، أما الرحمة فتفضل وإنعام زائد على مغفرة الذنوب ، لذا قدمت المغفرة على الرحمة ، والتخلية مقدمة على التحلية .

لكننا نجد آية واحدة من كتاب الله تبارك وتعالى قدمت فيها الرحمة على المغفرة ، وهي قوله سبحانه في أول سورة سبأ { يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو الرحيم الغفور } [سبأ : ٢] ، فلم كانت هذه الآية بدعاً من أخواتها ؟

إن المتدبر للسياق القرآني يمكن أن ينعم بالحكمة البيانية والموضوعية كذلك ، التي جاء عليها نظم الآية القرآنية . إن السياق الذي جاءت فيه سياق القدرة والعلم، سياق العناية بهذه المخلوقات كلها ، ما في السماوات وما في الأرض ، ما يلج في الأرض وما يخرج منها ، ما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، ورحمة الله تبارك وتعالى تتجلى لهذه المخلوقات جميعاً ، الشمس والقمر ، والليل والنهار ، والنجوم والجبال ، والماء والمرعى ، والنار والهواء ، كلها تظهر فيها الرحمة ، لذا كانت الرحمة جديرة بالتقديم في هذه الآية وحدها من كتاب الله .

أما غيرها من الآيات والتي قدمت فيها المغفرة على الرحمة ، فقد ذكرت كلها في سياق ذنوب العباد ، أو في سياق تقصيرهم فيما أمروا به . أما الآية التي قدمت فيها الرحمة على المغفرة ، فليس فيها شيء من هذا كله ، لا من ذنوب العباد ، ولا من تقصيرهم فيما أمروا به .

أرأيتم إلى هذا البناء المحكم ، وهذا النظم البديع ؟

الأنموذج الثاني : العلم والحكمة :

أكثر الآيات الكريمة جاءت على هذا النظم " إن الله عليم حكيم " أو " إن ربك عليم حكيم " ، ولكننا نجد بعض الآيات قدمت فيها الحكمة على العلم ، قال تبارك وتعالى يحدثنا عن أبي الأنبياء وشيخ الحنفاء ، أبينا إبراهيم صلى الله عليه وسلم { فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم ، قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم } [الذاريات : ٣٠] .

والمتأمل في السياق ، والمتدبر للآيات الكريمة ، يجد أن هذا التقديم أو التأخير كان أمراً يحتمه المعنى ويتطلبه الموضوع ، وتقتضيه الحكمة ، فأما تقديم العلم على الحكمة ، فأظنه ظاهراً لا يحتاج إلى بيان ، إذ من مقتضيات الحكمة أن يسبقها العلم ، واليكم بعض هذه الآيات ، قال تعالى { وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب ، كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم } [يوسف : ٦] وقال تعالى { واعلموا أن فيكم رسو ل الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ، ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان ، أولئك هم الراشدون فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم } [الحجرات : ٨ } .

أما تقديم الحكمة على العلم فنجد أن الموضوعات التي جاء فيها هذا النظم ، كانت الحكمة فيها هي الأساس ، فبشارة إبراهيم وامرأته بالغلام ، حيث يتعذر الحمل والإنجاب { أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب } أمر لله فيه حكمة { قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم } .

ولا نود أن نستقصي هنا فنقف مع كل آية ، وما على القارىء إلا أن يتدبر الآيات ، ليدرك بذوقه وإحساسه وفكره وعقله دقة النظم ، وسمو المعنى .

الأنموذج الثالث : المغفرة والحلم :

ختمت بعض الآيات الكريمة بهذين الاسمين الجليلين ، تارة تتقدم المغفرة ، وأخرى يتقدم الحلم ، قال تعالى { لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم } [البقرة : ٢٢٥] ، وقال تعالى {ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله واعلموا أن الله يعلم ما في نفوسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حليم } [البقرة : ٢٣٥] . وقال سبحانه { تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا

تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً } [الإسراء : ٤٤] . وقال { إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً } [فاطر : ٤١] .

تدبر الآيتين الأوليين ، وهما مدنيتان ، تجد فيهما - وهما خطاب للمؤمنين - تحذيراً من مخالفة حدود الله ، والخروج على شرعه ؛ لذلك قدمت فيهما المغفرة ، والمغفرة ستر الذنب كما قلت .

وتدبر الآيتين الأخريين وهما مكيتان ، وليستا خطاباً للمؤمنين ، تجد أنهما تتحدثان عن العناية الربانية ، فالله سبحانه لا يعجل العقوبة للناس ، وهذا هو المراد بالحلم ، إن سياق الآيتين الأخريين بعيد عن سياق الآيتين الأوليين ، كذلك كان نظمهما غير نظمهما .

إن التقديم والتأخير في فواصل الآيات التي ذكرت فيها أسماء الله وصفاته ، موضوع حري بالدرس ، بل يستحق مؤلفاً خاصاً له فهو جدير بهذا و وسيجد الباحثون أسراراً مليئة بالحكم والفوائد .

(٢) صفات المؤمنين :

نقرأ في آخر آية من سورة الفتح { محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم } [الفتح : ٢٩] ، على حين نقرأ في سورة المائدة { يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين } [آية : ٥٤] .

ففي كل من الآيتين ذكر للمؤمنين وصفان اثنان : فالآية الأولى قدمت فيها (الشدة على الكفار) ، أما الثانية فقدمت فيها (الذلة على المؤمنين) ، فلم هذا التقديم والتأخير في الآيتين ؟ وما هو السر البياني ؟

إن الآية الأولى من سورة الفتح ، وهي تتحدث عن الجهاد ومجالدة الأعداء ؛

لذا كان من الحكمة أن تقدم فيها الشدة على الأعداء ، أما الآية الثانية ، فالسياق الذي جاءت فيه وجوب موالاة المؤمنين بعضهم بعضاً ، ونهيهم عن موالاة غير المؤمنين ؛ لذا جاء نظم الآية على ما هو عليه " أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين " .

ويزداد الأمر وضوحاً لك إذا عرفت أن سورة الفتح جاءت تتحدث عن صد المشركين ، صدهم المؤمنين عن المسجد الحرام ، وعن أن يتموا عمرتهم ، وسورة المائدة بدئت بأمر المؤمنين بالوفاء بالعقود ، وهذه العقود تشمل ما بينهم وبين الله ، وبينهم وبين الناس ، ومن أهمها أن يكون ولاء المؤمن لله ورسوله والمؤمنين .

(٣) نقرأ في وصف المنافقين ، وفي وصف الكافرين ، هاتين الآيتين من سورة البقرة (صم بكم عمي فهم لا يرجعون) [البقرة:١٨] (صم بكم عمي فهم لا يعقلون) [البقرة : ١٧١] وتقديم الصم ، هنا جاء في غاية الإحكام ، لأن بداية ضلال أولئك الأقوام ، حينما أصاخوا بسمعهم عن آيات الله التي تتلى عليهم .

ونقرأ في مشهد من مشاهد يوم القيامة عن أولئك الذين ضلوا سواء السبيل (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصما) [الإسراء:٩٧] لقد تغيرت الصورة هنا . لذلك تغيّر معها نسق القول ، ذلك لأن السماع لم ينفع أولئك الناس يوم القيامة شيئاً ولا يعود عليهم بخير ، ثم إن العمى هو من أشد الأمور مشقة وأكثرها صعوبة عليهم في ذلك اليوم (١) .

---

(١) وهناك فرق آخر وهو أن هذه الآية التي تتحدث عن يوم القيامة تحمل على حقيقتها ، فهم يحشرون كذلك ، يفقدون هذه الحواس الثلاث . أما آيتا البقرة ، فالمقصود منهما التشبيه ، لأن الكافرين والمنافقين لم يكونوا كذلك بل لهم أذاناً وأعيناً وألسنة ، لكنهم لم يستعملوا حواسهم فيما هو خير فكأنهم لا حواس لهم .

(٤) ونقرأ قول الله تعالى يحثّ المؤمنين على العدل والقسط { كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين } [النساء : ١٣٥] .
وقوله سبحانه { كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى } [المائدة:٨]. فإذا عرفنا أن هذه الآية نزلت في شأن العدل مع أعداء الإسلام ، وأن الأولى نزلت في شأن تحقيق العدل مع ذوي الرحم أدركنا سر النسق في الآيتين الكريمتين . فعدم العدل مع الأعداء ربما يظن أنه من الأمور المستحسنة التي يتقرب بها إلى الله ؛ لذا تقدمت فيه كلمة (لله) ولا كذلك الآية الأولى لأن القسط فيها هو الأهم .

(٥) نقرأ قول الله تعالى { إذ يغشيكم النعاس أمنة منه } [الأنفال : ١١] ، ونقرأ قوله سبحانه في آية أخرى { ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً } [آل عمران:١٥٤] .

فانظروا كيف قدم النعاس في الآية الأولى على الأمنة ، وأخر في الآية الثانية ، ويقيناً لابد من حكمة بيانية لهذا النظم البديع .

فإذا عرفنا أن آية الأنفال كانت في بدر ، وأن آية آل عمران في أحد ، وعرفنا أن حاجة المسلمين في بدر كانت إلى الراحة والنوم لأن الله قد تكفل لهم بالنصر حيث وعدهم إحدى الطائفتين ، أما في أحد فلقد كانت حاجتهم بعد أن أصابهم ما أصابهم إلى الأمن والطمأنينة ، إذا عرفنا ذلك أدركنا سر التقديم والتأخير في الآيتين الكريمتين ؛ فقدم في كل آية ما يتلاءم مع ظرف الجماعة المسلمة وحاجتهم .

(٦) نقرأ قول الله تعالى { تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم} [الصف : ١١] وقوله { إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة} [التوبة : ١١١] . فالآية الأولى ، وكثير مثلها في كتاب الله تعالى

تتحدث عن الجهاد في دور الاعداد ، ومن مقدماته الضرورية المال . لكن الآية الثانية تتحدث عن القتال في معمعة الوغى ، لذلك قدمت الأنفس بدليل :

{يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون } [التوبة : ١١١] .

(٧) الجن والإنس :-

تحدث القرآن الكريم في آيات كثيرة عن الجن والإنس ، ولكن الذي يلفت الانتباه ، ما نجده في النظم القرآني البديع ، من تقديم الجن تارة ، وتقديم الإنس أخرى ، وهذا ما يستدعيه السياق ، وتوجبه الحكمة البيانية ، ففي سياق التحدي بالقرآن الكريم ، يقدم الإنس على الجن ، لأن الإنس هم المقصودون بالتحدي أولاً وقبل كل شيء ، قال تعالى { قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً } [الإسراء : ٨٨] .

أما في سياق التحدي بالنفوذ من أقطار السماوات والأرض ، فلقد قدم الجن؛ لأنهم أقدر على الحركة من الإنس ، قال تعالى { يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض ، فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان } [الرحمن:٣٣] .

أما قوله سبحانه { وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون } [الذاريات:٥٦] فلقد قدم الجن على الإنس ؛ لأنه قد روعي السبق الزمني ، فإن الجن مخلوقون قبل الإنس .

وهكذا نجد الكلمة القرآنية تقدر في مكانها الذي جاءت فيه { ذلك تقدير العزيز الحكيم } .

(٨) الصبر والتقوى :

ومن جمال النظم القرآني أن نقف مع هاتين الآيتين الكريمتين : أما الآية الأولى فهي قوله سبحانه في سياق تحذير المؤمنين من موالاة أعدائهم ، ونهيهم أن

يتخذوا بطانة من دونهم إن تمسسكم حسنة تسؤهم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا } [آل عمران : ١٢٠] أما الآية الثانية فهي قوله سبحانه حديثاً عن يوسف عليه الصلاة والسلام { إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين } [يوسف : ٩٠] .

ففي مجال مكائد الأعداء ، وعدم موالاتهم ، وعدم اتخاذهم بطانة ، وفي مجال التحذير من الوقوع في شرك الأعداء – وما أكثر الذين يفتتنون فيوالون أعداء الله – في هذا المجال يقول الله { وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا}.

ومثل هذه الآية قوله سبحانه { لتبلون في أموالكم وأنفسكم ، ولتسمعن من الذين أتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً ، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور } [آل عمران : ١٢٠] فانظروا كيف قدم الصبر في هاتين الآيتين لأنهما تتحدثان عن شؤون المؤمنين مع أعدائهم .

أما في الأمور المعتادة بين الناس فقد قدمت التقوى { إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين } فالشأن هنا بين يوسف وإخوته .

وهكذا نجد أن لكلٍ من الحرب والسلم سياقه الخاص به { قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً } .

خامساً : الفاصلة القرآنية :

يقصد بالفاصلة القرآنية ذلك اللفظ الذي ختمت به الآية ، فكلما سموا ما ختم به بيت الشعر قافية ، أطلقوا علي ما ختمت به الآية الكريمة فاصلة .

وقد ذكر الجاحظ في البيان والتبيين " حدثوا أن رجلاً في عهد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قرأ { فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله غفور رحيم } فقال أعرابي لا يكون ، وفي رواية أخرى أنه قال : إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا الحكيم ، لا يذكر الغفران عند الزلل ، لأنه إغراء عليه "[1] .

وروي أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ { وحملناه على ذات ألواح ودسر ، تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر } بفتح الكاف ، فقال الأعرابي : لا يكون فقرأها عليه بضم الكاف وكسر الفاء فقال الأعرابي يكون[2] .

هذا ما ذكره الأعرابي بطبعه وسليقته وسجيته ، ولكننا وجدنا أناساً في القرن العشرين ، وقفوا غير هذا الموقف ، نحن لا ننكر على الناس أن لا يعلموا كل شيء ، ولكننا ننكر أن يدّعوا علم كل شيء ، نحن لا نعجب ولا نستهجن أن يرد الحق خصومٌ ألداء ، عرفوا بتعصبهم وتحيزهم ، نحن لن نفاجأ إن سمعنا من مبشر حاقد ، أو مستشرق جاحد ، إن سمعنا من هذا أو ذاك طعناً على كتاب الله ، ودين الله . لكن الذي كنت لا أوده أنا وأنت أيها القارئ معاً ، أن نجد مصدراً من مصادر المعرفة ، طالما روّج له أصحابه وأحاطوه بهالات فخمة من الإجلال والتبجيل ،

---

(١) البيان والتبيين (٢/٢٦٩) .

(٢) البيان (٢/١٧٤) . قال الزمخشري : كفر هو نوح عليه السلام ، وجعله مكفوراً ؛ لأن النبي نعمة مكفورة . ، قال الله تعالى { وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين } فنوح عليه السلام نعمة مكفورة ، ومن هذا المعنى يحكى أن رجلاً قال للرشيد : الحمد لله عليك ، فقال : ما معنى هذا الكلام ؟ قال : أنت نعمة حمدت الله عليها .] الكشاف : ٤/٤٣٥ [.

وسوروه بأسوار البحث العلمي والنزاهة ، وألبسوه لباس الحقيقة ، بل عدوه حصناً من حصون المعرفة ، أن نجد من وصفوه بهذه الصفات ، بعيداً عن ذلك كله ، بل هو فوق ذلك ممعن في الإفتراء ، بعيد عن النزاهة في البحث ، مناف لقواعد العدل وأسس المنطق ، تلك هي دائرة المعارف البريطانية ، التي استدلت على أن القرآن مجرد إنشاء جاء بطريقة عشوائية ، استدلت على هذه الدعوى بالفواصل القرآنية ، حيث جاء فيها : وكان القرآن يعطي للقارىء انطباعاً بأنه مجرد إنشاء جاء بطريقة عشوائية ، ويؤكد صحة ذلك طريقة ختم هذه الآيات ، بآيات مثل { إن الله عليم }، { إن الله حكيم } ، { إن الله يعلم ما لا تعلمون } ، وإن هذه الأخيرة لا علاقة لها مع ما قبلها ، وأنها وضعت فقط لتتميم السجع والقافية .

ولقد رددنا هذا القول رداً مفصلاً في كتابنا قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية ، وغرضنا هنا أن نبين لكم بإيجاز هذا الإعجاز في اختيار الفاصلة القرآنية ، فالفاصلة القرآنية لم تأت لغرض لفظي فحسب ، وهو اتفاق رؤوس الآي بعضها مع بعض ، وهو ما يعبرون عنه بمراعاة الفاصلة إنما جاءت الفاصلة في كتاب الله تعالى لغرض معنوي يحتمه السياق ، وتقتضيه الحكمة ، ولا ضير أن يجتمع مع هذا الغرض المعنوي ما يتصل بجمال اللفظ وبديع الإيقاع ، ونرجو أن تتذوقوا ذلك كله ، أعني دقة المعنى وجمال اللفظ فيما نمثل به من آيات قرآنية كريمة .

وبادي بدء نبين أن بعض هذه الفواصل القرآنية يمكن أن يدركه القارىء بأدنى تأمل ، فهو لا يحتاج إلى كثير فكر ، وكبير عناء ، على حين نجد بعضها الآخر بحاجة إلى تدبر وتأمل .

فمن النمط الأول بعض الفواصل التي ادعت دائرة المعارف البريطانية أنها منقطعة عما قبلها ، لا صلة لها بها ألبتة .

١- في قوله تعالى { كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون } [البقرة : ٢١٦] .

أي منصف ، بل أي عاقل يدعي أن هذه الفاصلة غير متصلة بما قبلها ، بل أي فاصلة يمكن أن تصلح بدل هذه الفاصلة ؟ يخاطب الله المؤمنين ، وقد كتب عليهم القتال والجهاد ، ويبين أن أمر المستقبل لا يدركونه هم ، فربما يكرهون شيئاً يكون فيه خيرهم ، وربما يحبون شيئاً تكون فيه نهايته شراً لهم ، ووبالاً عليهم ، إن الله وحده هو الذي يعلم ذلك .

أي فاصلة تصلح لهذه الآية غير التي ختمت بها " والله يعلم وأنتم لا تعلمون" .

٢- وفي السورة نفسها تذكر الآيات بعض أحكام الطلاق ، وتنهى أولياء النساء أن يمنعونهن من الرجوع إلى أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ، فبين لهم أن ذلك يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم والآخر ، وأن ذلكم هو أزكى لهم وأطهر ، وتختم الآية " والله يعلم وأنتم لا تعلمون " .

قل لي بربك أي فاصلة يمكن أن تصلح لهذه الآية الكريمة ؟ وهؤلاء الإخوة والاباء يريدون أن يمنعوا أخواتهم أو بناتهم من الرجوع إلى أزواجهن ، وإنما يريدون ذلك أنفة واستجابة لدواعي الحمية أو انتقاماً من أولئك الأزواج ، من غير تفكير في النتائج والعواقب التي يمكن أن تنتج عن مثل هذا التصرف الخاطيء ، ما نظن أن هناك فاصلة ترجع أولئك الأولياء إلى رشدهم ، وتخوفهم من عواقب تصرفاتهم ، أجدى وأولى مما ختمت به الآية الكريمة .

أما النوع الثاني ، وهو ما يحتاج إلى تدبر وتأمل ، فمن هذا القبيل :-

١- قال تعالى في سورة السجدة { أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من

القرون ، يمشون في مساكنهم ، إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون ، أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم ، أفلا يبصرون } [الآيات : ٢٦ ، ٢٧] ، فقد ختمت الآية الأولى بـ (يسمعون) والثانية بـ (يبصرون) فما سر ذلك ؟ ، لن يحتاج الأمر منك إلى كثير تأمل ، فقد تحدثت الآية الأولى عن القرون المهلكة من قبل هؤلاء ، فهو حديث التاريخ - إذن - وتحدثت الآية الثانية عما يشاهدونه على هذه الأرض ، كيف ينزل عليها الماء فتنبت الزرع متاعاً لهم ولأنعامهم ، وأمر التاريخ - لا ريب - يسمع سماعاً ، ولذا ختمت بـ (يسمعون) ، ولكن ما يشاهدونه يبصرونه إبصاراً ، ولذا ختمت بـ (يبصرون) .

قل لي بربك أي دقة تلك التي في الآيتين الكريمتين " إنه تنزيل رب العالمين"

٢- في سورة العنكبوت نقرأ هذه الآيات { مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون } [آية : ٤١] وبعد هذه الآية نقرأ قوله الله { وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون } .

فكر فيما عرفه الناس من أمر العنكبوت اليوم ، من حيث قوة خيوطه ، ومن حيث الفوضى الأسرية ، - إن صح التعبير - والتمزق العائلي وعدم النظام ، فلقد قالوا إن خيوط العنكبوت أقوى من خيوط الحرير ، ولكن الفوضى تدب في بيته ، فربما أكلت الأنثى زوجها ، وبالتالي فالفوضى التي تدب في بيت العنكبوت لا مثيل لها ألبتة في بيت آخر ، إلا أن تكون في أمتنا العنكبوتية في عصرها الحاضر لا في عصورها الماضية ، أليس ذلك يحتاج إلى علم (لو كانوا يعلمون) ، (وما يعقلها إلا العالمون) فانظر كيف ختمت الفاصلة بذكر العالمين لأن قضية العنكبوت لا يدركها إلا أولئك .

٣- ولقد نبه الزمخشري وغيره من الأئمة إلى ما في قوله { وإذا قيل لهم لا

تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون } [البقرة : ١١ ، ١٢] ، { وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ، ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون } [البقرة :]

فلما كانت الآية الأولى تتحدث عن الفساد في الأرض وتلك قضية تتعلق بالحواس الظاهرة ، ختمت بقوله " ولكن لا يشعرون " لأن المشاعر هي الحواس ، ولما كانت القضية الثانية تتعلق بالسفه ، وهو الجهل ناسب أن تختم بالعلم .

قال الزمخشري - رحمه الله - فإن قلت : فلم فصلت هذه الآية بـ (لا يعلمون) والتي قبلها بـ (لا يشعرون) ؟ قلت : لأن أمر الديانة والوقوف على أن المؤمنين على الحق ، وهم على الباطل ، يحتاج إلى نظر واستدلال حتى يكتسب الناظر المعرفة ، وأما النفاق وما فيه من البغي المؤدي إلى الفتنة والفساد في الأرض فأمر دنيوي مبني على العادات ، معلوم عند الناس ، خصوصاً عند العرب في جاهليتهم ، وما كان قائماً بينهم من التغاير والتناحر والتحارب والتحازب ، فهو كالمحس المشاهد ، ولأنه قد ذكر السفه وهو جهل ، فكان ذكر العلم معه أحسن طباقاً له [١] .

٤- كما نبهوا إلى هذه الآيات في سورة الأنعام { وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ، وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع ، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ، وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً } [الآيات:٩٧-٩٩] وختمت الآية بقوله { إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون } فلما كانت قضية النجوم مما يعلمه العرب ويمكن أن تعرفه الأمم الساذجة كذلك ختمت

---

(١) الكشاف (١/٦٥) .

بقوله " يعلمون " ولما كانت قضية النفوس دقيقة ، لا يطلع عليها إلا الخاصة ، ختمت بقوله تعالى " يفقهون " ؛ لأن الفقه أخص من العلم ، فهو العلم بدقائق الأمور ، ولما كانت الآية الثالثة تظهر فيها دلائل القدرة الإلهية ختمت بقوله سبحانه " يؤمنون " .

وأخيراً نذكر لك هذه الفاصلة ، وهي في قوله سبحانه وتعالى حديثاً عن السحرة في سورة طه { فألقي السحرة سجداً ، قالوا آمنا برب هارون وموسى } مع أن غيرها من الآيات قدم فيها موسى { قالوا آمنا برب العالمين ، رب موسى وهارون } فذهب بعضهم إلى أن موسى أخر في هذه الآية مراعاة لفواصل السورة ، حيث أن السورة كلها وهي سورة طه تنتهي بهذه الفاصلة ، ولقد قلت لكم من قبل ، إننا مع تقديرنا لجمال الإيقاع وفنية الجرس ، لكننا لا نراه السبب الذي من أجله جيء بهذه الفاصلة بل لابد من سبب آخر يتصل بالمعنى والسياق .

وذهب بعضهم إلى أن هذه الآية جاءت هكذا ؛ لأنها تحكي لنا ما قاله السحرة فبعضهم قال " رب موسى وهارون " وبعضهم قال " رب هارون وموسى " فحدثتنا كل آية عن فريق من أولئك المؤمنين ، ونرى أن هذا لا يقدم لنا حلاً مقبولاً ، ولا يعطينا جواباً مقنعاً ، فالتساؤل لا يزال باقياً ، لماذا قدم هارون في سورة طه ، وأخر في غيرها من السور القرآنية ؟ إن الأمر - إذن - يحتاج إلى فكر وبحث .

الذي يبدو لي -والله أعلم بما ينزل - أنْ سورة طه هي السورة الوحيدة التي حدثتنا عما كان من موسى عليه الصلاة والسلام من خوف ، وكان حرياً به أن لا يكون منه ذلك ، فهارون أولى بالخوف من موسى عليهما الصلاة والسلام ، لأنه لم يشاهد ما شاهده موسى ، ولم يشرف بمناجاة الحق ، قال تعالى { فأوجس في نفسه

خيفة موسى ، قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى } [طه : ٦٧] [1] ، فكان حرياً أن يكون رابط الجأش ثابت الجنان .

من أجل ذلك يلوح لي أن هارون عليه الصلاة والسلام قدم في هذه السورة، وهي قيمة قرآنية عظيمة حري بنا أن نقف عندها ونتدبرها وهي تقدير كل عامل بعمله .

ولا نود أن نسترسل معكم في الحديث عن الفاصلة القرآنية ، فإن كل فاصلة تظهر فيها الدقة والإحكام ، ويظهر فيها وجه الإعجاز مشرقاً متألقاً ، وإنما نرجو أن نكون وضعنا أيديكم على مكمن السر البياني ، وسلكنا بكم الطريق لتتدبروا ، ولتقفوا مع كل فاصلة في كل آية كريمة ، وسيظهر لكم ما حدثناكم عنه ، وصدق الله { كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير } .

بقيت قضيتان في الإعجاز البياني ، جديرتان بالإشارة إليهما ، حريتان أن ننبه عليهما ، وهما قضية التكرار وقضية الزوائد ، أما قضية التكرار فلنا فيها بحث نشرته مجلة الشريعة الإسلامية الكويتية ،ولقد وفقنا الله حيث توسعنا بالحديث عن هذه القضية ، وزدنا في هذا البحث لنخرجه كتاباً إن شاء الله . أما قضية الزوائد ، فقد كتبنا فيها كتابين أحدهما لطائف المنان وهو مطبوع متداول ، وأما الثاني فهو سلامة الحرف من الزيادة والحذف ، وكان أصله بحثاً نشر في مجلة الشريعة الآنفة الذكر ، وقد زدنا فيه كذلك لنخرجه في كتاب إن شاء الله ، وسنحدثك بإيجاز عن هاتين القضتين :-

---

(١) ولقد ذكر في أول السورة الكريمة من أنه عليه الصلاة والسلام نهي عن الخوف حينما ألقى العصا { قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى } وهكذا جاء في سورتي النمل والقصص ، بل ذكرت سورة النمل { إني لا يخاف لدي المرسلون } ، فما كان ينبغي منه عليه الصلاة والسلام أن يوجس في نفسه خيفة .

سادساً : قضية التكرار :

إن قضية التكرار ذات صلة وثيقة بموضوعنا الذي نتحدث عنه ، وتلك قضية بدهية ، ذلك أننا نجد في النظم مواضع متشابهة ، سماها بعض الباحثين تكراراً ، والحق أن هذه الموضوعات ذات صلة وثيقة بالإعجاز ، فالناظرون في كتاب الله تعالى من أجل تلاوته وتدبره ، أو بهدف التشكيك والطعن ، يجدون لأول وهلة أن هناك قضايا قد ذكرت أكثر من مرة ، وفي أكثر من موضع كالقصص، وموضوعات العقيدة ، وبعض الجمل والآيات ، وسموا ذلك تكرار .

ومع إجماعهم على هذه التسمية إلا أنهم اختلفت فيه مذاهبهم وتعددت مشاربهم ، وتلك طبيعة في أحوال الناس ، بل هي سنة من سنن الله في هذا المجتمع البشري ، فالكثرة الكثيرة من هؤلاء مسلمين كانوا أم غير مسلمين ، رأوا أن في هذا التكرار سحر بيان ، وتثبيت بنيان ، فعدوه بلاغة وإعجازاً ، ووجدوا فيه منهجاً قوياً ، وهدفاً عظيماً من مناهج التربية وأهدافها ، وحاولوا أن يبرهنوا على ذلك ببراهين مما عرفته العرب في كلامها شعراً ونثراً ، وأن يقيموا عليه الأدلة مما قرره علماء النفس وعلماء الاجتماع وأساطين التربية ذوو الاختصاص في فن الإعلام والدعاية .

وفئة قليلة عميت أو تعامت هيمن عليها الحقد ، فعدت هذا مثلبة ومطعناً في كتاب الله ، وهؤلاء لم يظهروا إلا بعد أن فسد الذوق البياني ، وضعفت السليقة العربية ، ولذا رأينا أن أباطيل أولئك لم تظهر مبكرة ، فلم نسمع شيئاً من أعداء القرآن ، الذين كانوا ذوي سلائق سليمة في اللغة بل على العكس من ذلك ، وجدنا أن هذا القرآن يملك عليهم كل شيء ، وإن لم يؤمنوا به ، هذه الأباطيل -إذن- ظهرت فيما بعد ، حينما فسد المزاج اللغوي ، واجتمع الطاعنون على دين الله من كل صوب ، وتألبوا حسداً عليه ، فبدأ الحديث عن شبهة التكرار ، فكان

لابد أن يشمر العلماء عن سواعد الجد ليردوا إلى النحور الظالمة سهام الحقد .

ولا نود أن نطيل الحديث معك عن آراء العلماء قديماً وحديثاً ، ولكننا نوجز لك القول :

ذهب كثير من العلماء إلى أن التكرار في القرآن الكريم إنما يذكر لتأكيد ما يريد القرآن تقريره في النفوس ، فإذا أردت أن تقرر شيئاً في النفوس فينبغي أن تكرره ، ومن هنا قالوا إن آيات العقيدة قد كررت في كتاب الله لتثبت العقيدة في النفوس ، وكذلك القصة القرآنية ، كذلك بعض الجمل القرآنية ، ومع إجلالنا وتقديرنا لأولئك العلماء ، لكن الذي نطمئن لتقريره بعد تدبر لكتاب الله ، وإنعام النظر وإجالة الفكر ، وإطالة الوقوف مع آيات الكتاب أن لا تكرار ألبتة في كتاب الله تبارك وتعالى .

والموضوع متشعب الأطراف متعدد الجوانب ، لا نستطيع أن نجمع مسائله ونضمها بعضها إلى بعض في هذا الكتاب ، لكننا نقف نحن وأنتم بعض الوقفات ، فمما قيل إنه قد كرر في كتاب الله ،

١- آيات العقيدة .

٢- القصص القرآني .

٣- بعض الجمل والآيات .

أما آيات العقيدة فالمتدبر لها ، يجد أنها خالية من التكرار ، لأن كل موضع قررت فيه العقيدة ، نجد فيه معنى ومعلماً وفائدة ، لا نجدها في الموضع الآخر ، وأنقل هنا كلمة جيدة في هذا الموضوع لحجة الإسلام الإمام الغزالي - رضي الله عنه- ، وهو يتحدث عن أسماء يوم القيامة وما فيها من أهوال ، يقول - رضي الله عنه - " وقد وصف الله بعض دواهيها : القيامة وأكثر أساميها ، لنقف بكثرة أساميها على كثرة معانيها ، فليس المقصود بكثرة الأسامي تكرير الأسامي

والألقاب ، بل الغرض تنبيه أولي الألباب ، فتحت كل اسم من أسماء القيامة سر ، وفي كل نعت من نعوتها معنى ، فاحرص على معرفة معانيها [١] .

أما عدم التكرار في القصة القرآنية فهو أوضح وأظهر ، وهذا ما ذهب إليه كثير من العلماء ، وإن الذي يتدبر القصة القرآنية في جميع فصولها والمواضع التي ذكرت فيها يطمئن كل الطمأنينة بأن لا تكرار في القصص القرآني . ولقد استولت علي هذه الفكرة ردحاً من الزمن ، فكانت نتيجة ذلك هذا الكتاب الذي وفق الله تبارك وتعالى لكتابته " القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته " فهو يعالج هذه القضية، ونتيجة هذه الدراسة أن لا تكرار في القصة القرآنية ، وهذا ما سبقني إليه كثير من العلماء والمحققين . يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله .

يرد القصص في القرآن في مواضع ومناسبات ، وهذه المناسبات التي يساق القصص من أجلها ، هي التي تحدد مساق القصة ، والحلقة التي تعرض منها ، والصورة التي تأتي عليها ، والطريقة التي تؤدي بها ، تنسيقاً للجو الروحي والفكري ، والفني الذي تعرض فيه ، وبذلك تؤدي دورها الموضوعي ، وتحقق غايتها النفسية ، وتلقى إيقاعها المطلوب .

ويحسب الناس أن هناك تكرار في القصص القرآني ، لأن القصة الواحدة يتكرر عرضها في سور شتى ، ولكن النظرة الفاحصة تؤكد أنه ما من قصة ، أو حلقة من قصة قد تكررت في صورة واحدة ، من ناحية القدر الذي يساق وطريقة الأداء في السياق ، وأنه حيثما تكررت حلقة كان هنالك جديد تؤديه ينفي حقيقة التكرار [٢] .

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/٥١٦) .

(٢) في ظلال القرآن (١/٦٤) الطبعة الخامسة سنة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧م .

ولنضرب لكم مثلاً عملياً بقصة واحدة من قصص القرآن الكريم ، وهي قصة آدم عليه الصلاة والسلام : يقول الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر الأسبق "إنها – أي قصة آدم – وردت في ست سور ، في البقرة ، والأعراف والحجر والإسراء والكهف وطه [1] ، ففي سورة البقرة وردت القصة في سياق تذكير الناس بنعمة الله، والعجب من أنهم يكفرون به ، فكانت القصة تدور على هذا التذكير من جعل آدم خليفة وتعليمه الأسماء كلها .

وفي سورة الأعراف وردت هذه القصة في سياق أن الناس قليلاً ما يشكرون الله ، الذي مكنهم في الأرض وجعل لهم فيها معايش ، ولذلك أسهبت القصة في موقف إبليس من الإنسان .

وفي سورة الحجر وردت قصة آدم في سياق فتنة الناس ، ولذلك كان الإسهاب فيها في واقعة إبليس وعدائه لآدم وذريته [2] .

أما الإدعاء بوجود تكرار في آيات وألفاظ من كتاب الله ، فلا صحة له ، ونذكر لك بعض هذه الآيات التي ادعي أن فيها تكراراً ، مناقشين لها ، لتدرك ، أن كتاب الله خالٍ من شبهة التكرار .

١- قال تعالى في شأن تحويل القبلة { قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ما كنتم فولوا

---

(١) ولم يذكر سورة ص ، وسورة ص جاءت في عنفوان خصومة قريش للنبي صلى الله عليه وسلم حينما عجبوا أن جاءهم نذير منهم ، وعجبوا أن جعل الآلهة إليها واحداً ، وطلب بعضهم من بعض أن امشوا واصبروا على آلهتكم بدأت القصة فيها بهذه التسلية للنبي عليه وآله الصلاة والسلام بعد قوله { إنما يوحي إلي أنما أنا نذير مبين إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين } [الآيات : ٧٠ ، ٧١] .

(٢) مجلة لواء الإسلام ، العدد السابع ، السنة الرابعة ، ص ٥٣٧ – ٥٥٤ .

وجوهكم شطره } [البقرة : ١٤٤] وبعد هذه الآية يقول ربنا تبارك وتعالى {ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون ، ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ، لئلا يكون للناس عليكم حجة } [البقرة : ١٥٠] .

هذه الآيات الكريمة حينما يقرؤها القارىء ، يجد أن الأمر بتولية الوجه شطر المسجد الحرام قد ذكر أكثر من مرة ، فيذهب الكثيرون إلى أن ذلك للتأكيد .

ولكننا حينما ننعم النظر نجد أن الآيات الكريمة لم تذكر للتأكيد فحسب ، وإنما كان لكل واحدة منها غرضها الذي تؤديه ، وغايتها التي تقصد إليها ، فنحن نعلم خطورة قضية القبلة ، من حيث إنها جاءت تلبية لرغبة النبي صلى الله عليه وسلم ومن حيث ما فيها من استقلال شخصية المسلمين في عباداتهم ، ولقد كان تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة أول نسخ في الإسلام ؛ لذا وجدنا هذه العناية في شأن هذا التحويل ، ومع ذلك كان لكل آية مغزى خاص بها .

فالآية الأولى جاءت تبين للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، إن هذه القبلة التي تمنيتموها – ورغبتم فيها – وقد علم الله ذلك منكم - أجابكم الله لما طلبتم ، وأما الآية الثانية فلقد كان الأمر فيها لبيان قضية أخرى ، وهي أن هذه القبلة التي أمركم الله أن تتحولوا إليها لن تنسخ أبداً وهي القبلة الباقية ، وأما الآية الثالثة فجاءت تبين أن الهدف من هذا الأمر بالتحول إلى القبلة ، من أجل أن تقطعوا دابر كل قول فلا يبقى للناس عليكم حجة .

وهكذا – إذن – نجد أن أمر التكرار لا يستقيم مع غاية الآيات الكريمة ، وإنما اخترنا ذلك القول ، عللنا كل أمر بما يناسبه أخذاً من الآيات نفسها ، فالأمر الأول بالتولية شطر المسجد الحرام جاء عقب قوله تعالى { قد نرى تقلب وجهك في

السماء فلنولنيك قبلة ترضاها } وأما الأمر الثاني فقد جاء بعده قوله سبحانه " وإنه الحق من ربك " ومعنى هذه الجملة الكريمة أنه حق ثابت لن ينسخ أبداً ، أما الآية الثالثة فالأمر فيها ظاهر ، فلقد ذكر عقبها { لئلا يكون للناس عليكم حجة } .

٢- في سورة آل عمران ذكرت هذه العبارة الكريمة ويحذركم الله نفسه مرتين متجاورتين : أولاً : في قوله { لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه والى الله المصير } [آية : ٢٨] وثانياً : في قوله تعالى { يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه ، والله رؤوف بالعباد } [آية : ٣٠] .

الناظر في السياق القرآني يجد أن كلا من التحذيرين جاء عقب قضية خطيرة مهمة ، جاء الأول بعد نهي المؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياء وهي قضية عني بها القرآن الكريم بعامة ، وعنيت بها سورة آل عمران بخاصة ، وما أصاب المسلمين اليوم من ضعف وخور وهزال ما هو إلا بسبب هذه الموالاة ، وجاء الآخر في سياق مشهد من مشاهد يوم القيامة ، فالتحذير الأول يترتب عليه العذاب الدنيوي من تفرق وتمزق وذلة ومسكنة ، أما التحذير الثاني فيترتب عليه العذاب الأخروي {ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون } .

٣- ومن أقوى ما تمسك به القائلون بالتكرار سورة الكافرون { بسم الله الرحمن الرحيم . قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دين } ، السورة الكريمة عدا البسملة ست آيات ، أولاها خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم فيها نداء للكافرين وهي { قل يا أيها الكافرون } وآخر آية حكم ونتيجة وهي { لكم دينكم ولي دين } وما بين هاتين الآيتين آيات أربع يمكن أن نقسمها من حيث المعنى

إلى مجموعتين ، المجموعة الأولى " لا أعبد ما تعبدون " " ولا أنا عابد ما عبدتم " فالآيتان الكريمتان تشيران إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يعبد ما يعبده الكافرون ، والمجموعة الثانية " ولا أنتم عابدون ما أعبد " وهما الآيتان الثالثة والخامسة ، وهما تنفيان عبادة المشركين لما يعبد الرسول عليه وآله الصلاة والسلام .

والذين ذهبوا إلى التكرار قالوا إنه للتأكيد ، وممن ذهب إلى هذا القول ودافع عنه بقوة ، واستدل له بأقوال العرب وبما جاء من أشعارهم الفراء ، ولكن الجمهور من العلماء ذهب إلى غير هذا ، ذهبوا إلى عدم التكرار في السورة الكريمة ، وهؤلاء اختلفوا فيما بينهم في تفسير الآيات تفسيراً يبعد القول بالتكرار .

ولا أود أن أقحمك أيها القارىء الكريم في كل ما ذكروه ، فأدخلك في متاهات قد يصعب عليك الخروج منها ، وتمييز بعضها عن بعض ، ولكننا نود أن نسلك بك إن شاء الله تعالى مسلكاً لا وعورة فيه ، غير حزن ولا متعرج ، وجميل بنا أن نعرف السياق الذي جاءت الآيات الكريمة فيه ، والسبب الذي نزلت من أجله .

فقد ذكر ابن جرير – رحمه الله – وغيره أن المشركين ومنهم الوليد بن المغيرة طلبوا من النبي عليه وآله الصلاة والسلام أن يهادنهم ، أن يعبد آلهتهم ويعبدوا إلهه فأبى عليهم النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ، ونزلت السورة الكريمة ، وعلى هذا فإن ما نرجحه في تفسير الآيات الكريمة ونستأنس له بقول الحذاق الجهابذة من العلماء ، من عدم التكرار في السور الكريمة ما يلي وبالله التوفيق :-

قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم « يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون » أي لا يمكن أن أعبد في مستقبل الأيام معبوداتكم الفاسدة ، كيف وقد أكرمني الله بالنبوة وهداني الصراط المستقيم ؟ وأنتم تعلمون أنه قبل أن يكرمني الله بالوحي ما عبدت آلهتكم ، فكيف ترجون مني أن أعبدها اليوم أو أعبدها فيما بعد ؟ أما أنتم فلا يمكن أن تعبدوا الله الذي أعبده – والسورة خطاب لقوم علم الله أنهم لا

يؤمنون وبخاصة بعد أن استحكم بيني وبينكم العداء ، فأنتم ما عبدتم الله الذي دعوتكم لعبادته يوم أن كنتم تعدّونني فيما بينكم الصادق الأمين ، وقبل أن يحدث بيني وبينكم ما يعكر الصفو .

والخلاصة أن كل آية من المجموعتين جاءت على صورة الدعوى ، وجاءت الآية الثانية على صورة الدليل ، فكأن كلاً من الآيتين دعوى ودليلها ، فالدعوى في المجموعة الأولى " لا أعبد ما تعبدون " أي لا يمكن أن أجيبكم إلى ما طلبتم فأعبد آلهتكم ، والدليل على هذه الدعوى " ولا أنا عابد ما عبدتم " أي قبل أن يكرمني الله بالوحي ما عبدت آلهتكم ، فهل يعقل أن أعبدها الآن أو بعد الأن ؟ وأما الدعوى في المجموعة الثانية فهي " ولا أنتم عابدون ما أعبد " أي لا يمكن أن تصدقوا فتعبدوا الله الذي أعبده وقد حدث بيني وبينكم ما حدث ، ودليل هذه الدعوى " ولا أنتم عابدون ما أعبد " أي حينما دعوتكم لأول وهلة وأنتم لم تجربوا عليّ كذباً ، وعلمتم أن لا مطمع لي في شيء فلم تجيبوني ، فكيف تجيبونني اليوم؟

الآيات الأربع - إذن - اثنتان منهما تشكلان الدعوى ، عدم استجابة كل من الفريقين للآخر ، والآيتان الأخريان كل منهما برهان على الدعوى التي تلائمها . هذا الذي يبدو لنا في فهم السورة الكريمة ، راجين من الله أن نكون قد اهتدينا للصواب وراجين من الله كذلك أن نكون قد بينا لك المقام ووضحناه أيما توضيح ، والله يجزي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خير ما يجزي نبيا عن أمته وآل سيدنا محمد وصحبه .

ونكتفي بما ذكرناه والحق أن قضية التكرار تستحق كتاباً خاصاً ، نرجو أن يظهر قريباً إن شاء الله .

سابعاً : القول بالزيادة :

الزوائد - وهي كلمات وأكثرها حروف - رأى بعضهم أنها لا حاجة لها من حيث الاعراب ، فإذا أسقطت بقي الكلام تاما كالباء في خبر ليس [١] ، حذفها ووجودها سواء ، تقول " أليس الله بقادر " وتسقط الباء فتقول أليس الله قادرا ، فهي إنما يؤتى بها لتأكيد الكلام وتقويته .

وذهب آخرون إلى أنها لا تزيد المعنى شيئاً ، فالمعنى سواء إن وجدت أم حذفت ، وإنما جيء بها لغرض لفظي يتعلق بجرس الكلام ، وجمال إيقاعه وحلاوة نغمه .

ويقيناً أن هذه الزوائد لم تكن معروفة ، ولم يكن لها وجود عند أولئك الذين نزل القرآن فيهم ، ونكاد نجزم أنها لم تكن شائعة مشتهرة في خير القرون كذلك ، بل كان كل حرف من حروف القرآن وكل كلمة تعمل في نفوسهم عملها ، ذلك لأن هذه الكلمات كان لكل منها معنى تؤديه ، ولقد منّ الله سبحانه وتعالى عليّ وله الفضل والمنة بإخراج كتاب (لطائف المنان وروائع البيان في دعوى الزيادة في القرآن) أحصيت فيه ما ادعي أنه زائد في كتاب الله - وهي سبع وعشرون كلمة - والآيات التي ادعي أن فيها زيادة ، ورددت هذا القول رداً نرجو أن نكون قد أصبنا فيه إن شاء الله [٢] ، ولذا فإننا نكتفي بذكر بعض الأمثلة هنا ، ومن أراد الإستزادة فليرجع إلى الكتاب المذكور .

---

(١) مر معنا ذلك عند حدثنا عن بنت الشاطيء .

(٢) إن قضية الزوائد قضية خطيرة ، ولكننا لم نجد كتاباً خاصاً نوقشت فيه هذه القضية على خطورتها - كما قلت - صحيح كان لبعض العلماء رحمهم الله وجزاهم خيرا جهد مشكور . لقد تكلم بعضهم عن بعض هذه الزوائد من ذلك ما نجده في بعض كتب التفسير ، ومن ذلك ما كتبه الأستاذ الدكتور أحمد أحمد بدوي - رحمه الله - ، في كتابه (من بلاغة القرآن) ، وهو جهد=

١- قال تعالى { ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة } [البقرة : ١٩٥] .

قالوا إن الباء زائدة ، ونعجب مما قالوا ؛ لأنه ليس المقصود هنا بالنهي إلقاء الأيدي فيكون المعنى لا تلقوا أيديكم .

وإذا وقفنا مع النص الكريم وجمعنا النصوص بعضها إلى بعض ، ندرك أن ما ذكروه غير مستقيم ، فالآية { وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة} واليد يعبر عنها كثيراً في نصوص الكتاب والسنة بأنها المعطية أو المانعة، قال تعالى { ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط } [الإسراء:٢٩] وفي الحديث " ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه " وما قاله عليه الصلاة والسلام " أسرعكن بي لحوقاً أطولكن يداً " .

=مشكور بحق . ومنه ما كتبه الشيخ عبد الرحمن تاج شيخ الأزهر الأسبق في مجلة الأزهر ، حيث رد زيادة بعض الحروف وناقش القائلين بالزيادة . هؤلاء هم الذين كتبوا في هذا الموضوع الخطير جزاهم الله خيرا . ولقد عرض الأخ الفاضل الدكتور صلاح الخالدي لهذه القضية في كتابه " البيان في إعجاز القرآن " ، وأحال القارىء على كتابين قال " ونحيل - لاستكمال هذا الموضوع - على الكتاب القيم " دراسات لأسلوب القرآن الكريم " لمحمد عبد الخالق عضيمة ، والكتاب القيم الآخر " دفاع عن القرآن ضد مطاعن النحويين والمستشرقين " للدكتور أحمد مكي الأنصاري " ص ١٤٩ ، ونتنبه على ما يلي : أما الكتاب الثاني الذي ذكره الدكتور فهو ردٌّ على النحويين الذين أنكروا بعض القراءات القرآنية الصحيحة ، لم يعرض فيه لقضية الزوائد بكلمة من قريب أو بعيد، ولا تجد في الكتاب إشارة ، بكلمة واحدة .

وأما الكتاب الأول فهو دراسة قيمة لحروف المعاني في القرآن ينقل المؤلف فيها أقوال العلماء السابقين من لغويين ، ونحويين ، وكثير من هؤلاء من القائلين بالزيادة ، ولم ينكر عليهم المؤلف ، فموضوع الكتاب - إذن - ليس قضية الزوائد أولاً ولا يسعفنا في موضوعنا الذي نحن بصدده وهو نفي الزوائد من كتاب الله .

فالآية الكريمة - إذن - تريد أن تبين أن اليد هي سبب التهلكة ، والمعنى إذن أنفقوا وجاهدوا ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم إلى التهلكة ، فتكون اليد سبباً في الهلاك .

شتان بين هذا وبين أن يقال : ولا تلقوا أيديكم إلى التهلكة ،فالباء هنا للتعدية وقد تفيد السببية ، ولعل في سبب نزولها ما يوضح ما ذهبنا إليه ، فقد أخرج أصحاب السنن وغيرهم عن أسلم بن عمران : قال : خرجنا من المدينة نريد القسطنطينية - وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد - فخرج من المدينة صف عظيم من الروم ، وصففنا صفاً عظيماً من المسلمين ، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل عليهم ، فصاح الناس : ألقى بيده إلى التهلكة فقال أبو أيوب :

يا أيها الناس ، نحن أعلم بهذه الآية ، وإنما أنزلت فينا ، صحبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنصرناه ،وشهدنا معه المشاهد ، وآثرناه على أهلينا وأموالنا وأولادنا ، فلما فشا الإسلام وكثر أهله ووضعت الحرب أوزارها رجعنا إلى أهالينا وأولادنا وأموالنا نصلحها ، ونقيم فيها فكانت التهلكة الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد .

٢- قوله سبحانه { فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن } [يوسف : ٣١]

قالوا الباء زائدة ، والتقدير " سمعت مكرهن " ونحن إذا رجعنا إلى الآيات القرآنية الكريمة وجدنا هذا الفعل قد ذكر كثيراً في كتاب الله ، يتعدى بنفسه دون حرف الجر ، قال سبحانه { لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا } وقال { قد سمع الله قول التي تجادلك } وقال { لولا إذ سمعتموهم } ولعل هذا هو الذي أغرى القائلين بالزيادة .

ونحن عندما نقف مع هذه الآيات الكريمة نستشعر الفرق بينها وبين الآية التي

معنا ، فهذه الآيات كلها كان السماع فيها مباشراً دون واسطة ، ولكن الآية التي معنا ليست كذلك ، فامرأة العزيز لم تسمع من هؤلاء النسوة سماعاً مباشراً ، ثم أن المكر بمعناه الظاهر لا يُسمع ، وعلى هذا فلقد جاءت الباء تؤدي رسالة لا يتم الأمر إلا بها .

إن من المعلوم أن أخبار الملوك وأصحاب القصور سريعة الإنتشار ، ثم إن الناس يتحدثون عنهم دون أن يجابهوهم ، فالنسوة في المدينة يتحدثن ، وهناك من تود أن تكون لها حظوة عند امرأة العزيز ، فتنقل لها هذه الأقوال ، فكأن السماع هنا مضمن معنى الإخبار ، أي أخبرت بمكرهن ، وإنما اختير الفعل (سمع) لبيان عناية المرأة ، ورغبتها في أن تستمع لكل ما يقال عنها ، وجاءت الباء لتبين لنا أن هذا السماع إنما كان بواسطة ، وهكذا لا يمكن أن نتصور زيادة الباء ؛ لأن القول بالزيادة لا أقول سيذهب برونق اللفظ وحده بل بدقة المعنى كذلك ، لأنه إذا قيل " فلما سمعت مكرهن " دل ذلك على أنها كانت معهن في مجلس واحد فلا معنى حينئذ لقوله " فأرسلت إليهن " .

الباء في الآية الكريمة – إذن – لها شأنها وشأوها ، وليس وجودها وعدمها سواء ، بل هي من أساسيات النظم الذي هو إنسجام اللفظ مع المعنى .

٣– قال تعالى { ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك } [البقرة : ٣٠] قالوا إن اللام زائدة أي نقدسك .

والتقديس التطهير ، أي نطهر أنفسنا ،وأفعالنا وقلوبنا لك ومن أجلك ، وهذا أحد معنيين للآية الكريمة ، والذي يحسّن هذا التأويل أن قول الملائكة {ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك } جاء في مقابلة قولهم { أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء } فقد ذكروا أمرين اثنين :–

الأمر الأول : الإفساد في الأرض ورأسه الشرك ، فقابل الملائكة هذه المعصية

بالتسبيح ، وهو البعد في تنزيه الله تبارك وتعالى عما لا يليق بجلاله سبحانه ، ويدخل الشرك في ذلك دخولاً أولياً ، لذلك فإن الله تبارك وتعالى " لا يغفر أن يشرك به " .

والأمر الثاني : سفك الدماء ، وهو أبشع الجرائم ، وذكروا في مقابله التقديس وهو التطهير ، أي نطهر أنفسنا من أجل الله . وعلى هذا المعنى لا تتصور زيادة اللام .

وأما المعنى الثاني : فإن التقديس خاص بالله تبارك وتعالى ، وفرقوا بين التسبيح والتقديس ، إذ التسبيح يلاحظ فيه جهة العبد المنزِّه ، أما التقديس فيلاحظ فيه المنزَّه سبحانه وعلى هذا المعنى : نقدسك لا من أجل شيء ولكن لأجلك أنت ، فاللام تعليلية .

٤- قال تعالى { وفجرنا فيها من العيون } [يس : ٣٤] قالوا إن من زائدة والمعنى وفجرنا فيها العيون قياساً على قوله تعالى حكاية عن الطوفان { وفجرنا الأرض عيوناً } [القمر : ١٢] .

والحقيقة أن (من) هنا تبعيضية ، لأن الله لم يفجر عيون الأرض جميعاً ، وشتان بين ما تشير إليه كل من الآيتين فالآية الأولى - أعني آية يس - تتحدث عما أكرم الله به الإنسان من تفجير بعض عيون الماء في الأرض نعمة منه سبحانه ، والآية الثانية تتحدث عما كان أيام الطوفان عقوبة وانتقاماً ، ولقد كانت الأرض كلها كذلك .

٤- قوله تعالى { حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر } [آل عمران :١٥٢]
التقدير عندهم : حتى إذا فشلتم تنازعتم في الأمر ، ولكن الفراء لم يرتض القول بالزيادة فحسب ، بل غير النظم الكريم ، وقدم فيه وأخر ، والتقدير عندهم : حتى إذا فشلتم .. وهذه عبارته ، قال عفا الله عنه :

" يقال إنه مقدم ومؤخر ، حتى إذا تنازعتم في الأمر فشلتم ، فهذه الواو معناها السقوط كما يقال " فلما أسلما وتله للجبين وناديناه " معناه ناديناه ، وهو في (حتى إذا) ، (فلما أن) مقول لم يأت في غير هذين ، قال الله تبارك وتعالى {حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون } ثم قال {واقترب الوعد الحق } [الأنبياء : ٩٦ ، ٩٧] معناه : اقترب ، وقال الله تبارك وتعالى { حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها } [الزمر : ٧٣] ، وفي موضع آخر {فتحت } [الزمر: ٧١] [١] .

فقد ذكر الفراء هنا عدة آيات عد الواو فيها زائدة ، وقال إن الواو مآلها السقوط ، والحق أن كلامه هو الذي يجب أن يكون مآله السقوط .

ولقد كان الفراء قد توعد أبا عبيدة صاحب " مجاز القرآن " أن يضربه إن هو لقيه على ماله من تأويلات لكتاب الله تعالى لا تستقيم ، ولا أدري أكان أبو عبيدة وحده الذي يستحق أن يضرب على تأويلاته ، وتأويلات الفراء لا تقل عنها حيث ادعى أمرين خطيرين الأول الزيادة والثاني التقديم والتأخير .

والواو في هذه الآيات جميعها ليست زائدة ، بل لا يتم المعنى إلا بها ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فهي في محلها غير قلقة ولا نابية ولا تقديم فيها ولا تأخير ، أما آية آل عمران : حتى إذا فشلتم " فقد قال الزمخشري فيها :

" فإن قلت : أين متعلق (حتى إذا) ؟ قلت : محذوف ، تقديره : حتى إذا فشلتم منعكم نصره [٢] ، فالواو - إذن - عاطفة ، عطفت بعض الأمراض على بعض ، فالفشل - الضعف - والتنازع مرضان في حياة الأمم في حربها وسلمها ،

---

(١) معاني القرآن للفراء (١/٢٣٨) .

(٢) الكشاف (١/٤٢٧) .

وهما لا ريب من شر ما أصيبت به هذه الأمة ، فمن ضعفنا لاتهابنا الأمم ، بل إنها تزدرينا ، كذلك التنازع جعلنا في مؤخرة الركب .

ونكتفي بما ذكرناه فيما ادعي أنه زائد ، فليس غرضنا الاستقصاء ، ولكن غرضنا بيان الإعجاز في كل آية ، بل في كل كلمة وكل حرف في كتاب الله ، فكل حرف جاء مكانه الذي لا يسد حرف آخر مكانه ، ولا يستقيم المعنى بدونه .

الفصل الثاني
الإعجاز العلمي

ونتحدث فيه عن آراء العلماء في تفسير الآيات تفسيراً علمياً .

المانعون في القديم والحديث هم :

الشاطبي رحمه الله .

الشيخ محمود شلتوت .

الأستاذ محمود شاكر .

المثبتون في القديم والحديث هم :

الإمام الغزالي .

الإمام الرازي .

الإمام السيوطي .

الإمام محمد عبده .

الشيخ محمد رشيد رضا .

الأستاذ مصطفى صادق الرافعي .

الدكتور محمد عبد الله دراز .

الأستاذ عبد الوهاب حموده .

الأستاذ محمد أحمد الغمراوي .

رأينا في القضية .

نماذج من التفسير العلمي .



الفصل الثاني

الإعجاز العلمي

القرآن الكريم كتاب الله ووثيقة السماء الخالدة ، أنزله الله ليكون موعظة وشفاء وهدى ورحمة وبرهاناً ونوراً ، { يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به ، فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً } [النساء : ١٧٥] . { يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين } [يونس: ٥٧] .

فالقرآن كتاب الإنسانية كلها ، ونوره سيبقى يشع ما دامت الحياة ، لتهدى به قلوب غلف وتبصر به عيون عمي ، وتفتح به آذانٍ صم . وكما جاء القرآن دعوة صريحة للإيمان الصحيح ، ومكارم الأخلاق ، فإنه جاء كذلك دعوة صريحة للعلم والنظر والتفكر ، ويكفي أن أول ما تلألأ من آياته ، كان الأمر بالقراءة باسم الرب الذي خلق ، الرب الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ، ولا نجد كتاباً سماوياً أو أرضياً ، كرم العلم والعلماء ، ودعا في مواضع كثيرة منه ، للتزود من منهل هذا العلم كهذا القرآن { ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف السنتكم وألوانكم ، إن في ذلك لآيات للعالمين } [الروم:٢٢] { قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون } [الزمر:٩] { إنما يخشى الله من عباده العلماء } [فاطر:٢٨] {وإذا قيل أنشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات } [المجادلة : ١١] .

وشرف الله العلماء بمعيته { شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة واولو العلم

قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم } [آل عمران : ١٨] .

ومن عظيم شأن هذا القرآن ، وعجيب أمره أنه جعل دعوته للعلم مفتوحة للبشر جميعاً ، لم يفرق بين غني وفقير ورجل وامرأة احراراً كانوا أو مملوكين . ولقد ظهر أثر ذلك في وقت مبكر في ظل حكومة القرآن . وإذ بهذه الأمة المنطوية على نفسها ، المنحصرة في مضاربها تفجر طاقات الكون ، وهي تجوب آفاق الأرض التي جعلها الله لها ذلولاً ، لتمشي في مناكبها غير معتدية أو سالبة ، وإنما هي فاتحة للعقول قبل البلاد . لقد نمت دعوة القرآن للعلم ، فأحيت أمة من أجداثها ، وإذ بهذه الأمة الأمية ، والتي منّ الله عليها بالهداية ، يصبح كل بيت من بيوتها ، ومسجد من مساجدها ، موئلاً للعلم ، يأتيه الناس على اختلاف لغاتهم وأديانهم من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم . هذه حقيقة لا يختلف فيها اثنان ، ولا يشك فيها عدو.

وهناك بدهية أخرى ، وهي أن هذا القرآن ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ورغم اكتشاف كثير من المجاهيل ، ورغم تقدم الإنسان في مضمار العلم ، وآفاق الكون الفسيحة - لا يتعارض مع المسلمات الصحيحة التي وصل إليها الإنسان فضلاً عن أن يناقضها . وهذه البديهة التي لا يختلف فيها اثنان كذلك ، نجد مع كل أسف بعضاً ممن ينتسبون لهذه الأمة بأسمائهم فحسب ، ممن رانت نخالات الأفكار الغريبة على عقولهم ، يمارون فيها ، لأنهم حجبوا بالهوى وأسروا بالتقليد .

والخلاصة أن القرآن بدعوته المفتوحة للعلم ، بنى حضارة شامخة سعدت بها الإنسانية حيناً من الزمن ، وأن هذا القرآن لن يناقضه علم كوني صحيح .

هل يمكن أن تفسر ايات القرآن تفسيراً علمياً ؟ وهل هناك إعجاز علمي :

اختلفت كلمة العلماء قديماً وحديثاً في هذه القضية ، ولكن خلافهم هذا

منبعث من حرصهم على هذا القرآن ، وناشيء عن اجلالهم له ، ودفع كل شبهة تقوم حوله . ولا نود أن نتعجل الإجابة في هذه القضية الخطيرة ، قبل أن نعرض لآراء العلماء المجوزين والمانعين ، الأقدمين منهم والمحدثين ، ونناقش أدلة كل من الفريقين ثم نقفي على ذلك ، بإثبات ما يترجح عندنا ، سائلين الله أن يوفقنا للسداد ويهدينا للصواب ، وأن يجنبنا الخطأ والخطل ، وأن يحفظنا من الزلل ، فلله الحمد وله المنة ، وله الحمد في الأولى والآخرة

أولاً : المانعون من الأقدمين :

إن العَلَم الذي يعول عليه ويرجع إليه ، وهو المحور الذي يدور كل من بعده حوله ، إمام من أئمة الشريعة ، ومفكر من مفكري الإسلام ، يعد من أبرز من أنتجتهم هذه الأمة ، ذلكم هو الإمام أبو إسحاق الشاطبي إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المتوفي عام (٧٩٠ هـ) ، من علماء الأندلس ، وما أكثر ما جاءت به الأندلس من أعلام ، وأئمة ومفكرين رحمهم الله .

إن من أعظم ما أنتجه الفكر الإسلامي كتاب الموافقات للشاطبي ، ولقد عرض الإمام الشاطبي في هذا الكتاب ، لهذه القضية ونعني بها تفسير القرآن الكريم بما جدّ من علوم ، ويعقد مسألة خاصة بهذه القضية ، نذكرلكم خلاصة مفيدة إن شاء الله لما قاله ذلكم الإمام العظيم - رحمه الله - .

أولاً : يقول الإمام الشاطبي : إن الأمة التي أرسل فيها النبي صلى الله عليه وسلم أمة أمية ، وهذا ما أرشد إليه القرآن الكريم ، قال تعالى { هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم } بل إن الله وصف نبيه صلى الله عليه وسلم فقال { الذين يتبعون الرسول النبي الأمي } وقال { فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون } ويقول النبي صلى الله عليه وسلم " نحن أمة

أمية لا نكتب ولا نحسب ، الشهر هكذا وهكذا " .

وإذا كانت الأمة أمية ، فإن الشريعة التي نزلت فيها أمية كذلك .

ثانياً : إن العرب الأميين الذين نزل فيهم القرآن الكريم ، وتحداهم الله أن يأتوا بمثله ، كان لهم معرفة ببعض العلوم كعلم النجوم ، قال تعالى { وبالنجم هم يهتدون } وقال { وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر } ، وكعلم الأنواء وهو ما يتصل بالرياح ونزول المطر ، وبعض مسائل الطب الناشئة عن تجربة ، وقضايا الأخلاق وما يتصل بها مما نجده في كتاب الله تبارك وتعالى .

ثالثاً : لقد جدت علوم بعد القرآن الكريم على هذه الأمة لم تكن معروفة لدى الصحابة رضوان الله عليهم ، وذلك كعلوم الطبيعيات والفلسفة ، والفلك ، إلى غير ما هنالك من علوم ، وحينما تحدى القرآن الكريم العرب أن يأتوا بمثله ، إنما تحداهم بما كان معلوماً عندهم ، ولا يجوز أن يكون قد تحداهم بما ليس كذلك ، إذ لو تحداهم بشيء منه لقالوا : كيف تتحدانا بشيء لا نعرفه ، ومن هنا فلا تقوم الحجة عليهم ، ويستدل بمثل قول الله { ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي } .

رابعاً : يرى الإمام الشاطبي - رحمه الله - بعد هذه المقدمات أنه لا يجوز لأحد أن يفسر آي القرآن الكريم ، بما لم يكن معروفاً عند الصحابة مما جدّ فيما بعد. يقول :

"إن كثيراً من الناس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحدّ ، فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين : من علوم الطبيعيات ، والتعاليم : والمنطق ، وعلم الحروف ، وجميع مانظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها ، وهذا إذا عرضناه على ما تقدم لم يصح ، وإلى هذا فإن السلف الصالح -من الصحابة والتابعين ومن يليهم - كانوا أعرف بالقرآن وبعلومه وما أودع فيه ، ولم يبلغنا أنه

تكلم أحدٌ منهم في شيء من هذا المدعى ، سوى ما تقدم وما ثبت فيه من أحكام التكاليف ، وأحكام الآخرة وما يلي ذلك . ولو كان لهم في ذلك خوض ونظر ، لبلغنا منه ما يدلنا على أصل المسألة ؛ إلا أن ذلك لم يكن ، فدل على أنه غير موجود عندهم . وذلك دليل على أن القرآن لم يُقصد فيه تقريرٌ لشيء فيما زعموا ، نعم تضمن علوماً هي من جنس علوم العرب ، أو ما ينبني على معهودها مما يتعجب منه أولو الألباب ، ولا تبلغه إدراكات العقول الراجحة دون الإهتداء بأعلامه والاستنارة بنوره ، أما أن فيه ما ليس من ذلك فلا [1] .

ثم يناقش الشاطبي أدلة الفريق المعارض ، الذي يرى جواز تفسير آيات القرآن تفسيراً علمياً ، ويرد عليهم فيقول " وربما استدلوا على دعواهم بقوله تعالى { ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء } ، وقوله { ما فرطنا في الكتاب من شيء } ونحو ذلك ، وبفواتح السور - وهي ما لم يعهد عند العرب - وبما نقل عن الناس فيها ، وربما حكى من ذلك عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره أشياء .

فأما الآيات فالمراد بها عند المفسرين ما يتعلق بحال التكليف والتعبد ، أو المراد بالكتاب في قوله { ما فرطنا في الكتاب من شيء } اللوح المحفوظ ، ولم يذكروا فيها ما يقتضي تضمنه لجميع العلوم النقلية والعقلية .

وأما فواتح السور فقد تكلم الناس فيها بما يقتضي أن للعرب بها عهداً ، كعهد الجُمَّل الذي تعرفوه من أهل الكتاب ، حسبما ذكره أصحاب السير ، أو هي من المتشابهات التي لا يعلم تأويلها إلا الله تعالى ، وغير ذلك،وأما تفسيرها بما لا عهد به فلا يكون ولم يدّعه أحد ممن تقدم ، فلا دليل فيها على ما ادعوه، وما ينقل

---

(١) الموافقات للشاطبي (٧٩/٢) .

عن علي أو غيره في هذا لا يثبت ، فليس بجائز أن يضاف إلى القرآن ما لا يقتضيه ، كما أنه لا يصح أن ينكر منه ما يقتضيه ، ويجب الاقتصار - في الاستعانة على فهمه - على كل ما يضاف علمه إلى العرب خاصة ، فبه يوصل إلى علم ما اودع من الأحكام الشرعية ، فمن طلبه بغير ما هو اداة له ضل عن فهمه وتقول على الله ورسوله فيه ، والله أعلم ، وبه التوفيق [1] .

ذلكم هو الإمام الذي اقترن اسمه بهذه القضية ، فلا نجد أحداً قديماً وحديثاً يعرض لهذه القضية ، دون أن يذكر أول ما يذكر رأي هذا الإمام .

المانعون من المحدثين :

والعلماء المحدثون الذين منعوا تفسير آي القرآن الكريم تفسيراً علمياً ، لم يخرجوا عما قاله الإمام الشاطبي ، ومن هؤلاء الشيخ أمين الخولي زوج الدكتورة بنت الشاطيء - رحمه الله - وقد نقله عنه وارتضاه الشيخ محمد حسين الذهبي في كتابه التفسير والمفسرون ، أما أبرز أولئك المانعين فهو الشيخ محمود شلتوت ، شيخ الأزهر الأسبق ، وهو إمام ذو عقلية فذة - رحمه الله - ، يقول الشيخ .

وأما الناحية الثانية : فإن طائفة أخرى هي طائفة المثقفين الذين أخذوا بواف من العلم الحديث ، وتلقنوا أو تلقفوا شيئاً من النظريات العلمية والفلسفية وغيرها أخذوا يستندون إلى ثقافتهم الحديثة ، ويفسرون ايات القرآن على مقتضاها .

نظروا في القرآن فوجدوا الله سبحانه وتعالى يقول { ما فرطنا في الكتاب من شيء } فتأولوها على نحو زين لهم أن يفتحوا في القرآن فتحاً جديداً ، ففسروا

---

(١) الموافقات (٢/٨١) .

على أساس من النظريات العلمية المستحدثة ، وطبقوا آياته على ما وقعوا عليه من قواعد العلوم الكونية وظنوا أنهم بذلك يخدمون القرآن ، ويرفعون من شأن الإسلام ، ويدعون له أبلغ دعاية في الأوساط العلمية والثقافية .

نظروا في القرآن على هذا الأساس ، فأفسد ذلك عليهم أمر علاقتهم بالقرآن، وأفضى بهم إلى صورمن التفكير لا يريدها القرآن ، ولا تتفق مع الغرض الذي من أجله أنزله الله ، فإذا مرّت آية فيها ذكر للمطر ، أو وصف للسحاب ، أو حديث عن الرعد أو البرق ، تهللوا واستبشروا وقالوا : هذا هو القرآن يتحدث إلى العلماء الكونيين ويصف لهم أحدث النظريات العلمية عن المطر والسحاب وكيف ينشأ وكيف تسوقه الرياح وإذا رأوا القرآن يذكر الجبال أو يتحدث عن النبات والحيوان وما خلق الله من شيء قالوا : هذا حديث القرآن عن علوم الطبيعة وأسرار الطبيعة ، وإذا رأوه يتحدث عن الشمس والقمر والكواكب والنجوم ، قالوا : هذا حديث يثبت لعلماء الهيئة والفلكيين أن القرآن كتاب علمي دقيق !

ومن عجيب ما رأينا من هذا النوع أن يفسر بعض الناظرين في القرآن قوله تعالى { فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ، يغشى الناس هذا عذاب اليم } بما ظهر في هذا العصر من الغازات السامة ، والغازات الخانقة التي انتجها العقل البشري بعيداً عن قوله تعالى { ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون } ، { أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ، ثم تولوا عنه وقالوا معلّم مجنون } .

ويعرض الشيخ بعض الآيات التي فسرت ببعض النظريات العلمية ، ثم يقول إن هؤلاء في عصرنا الحديث لمن بقايا قوم سالفين فكروا مثل هذا التفكير ولكن على حسب ما كانت توحى به إليهم أحوال زمانهم ، فحاولوا أن يخضعوا القرآن لما كان عندهم من نظريات علمية أو فلسفية أو سياسية .

ولسنا نستبعد - إذا راجت عند الناس في يوم من ما نظرية - دارون

مثلاً- أن يأتي إلينا مفسر من هؤلاء المفسرين الحديثين فيقول : إن نظرية داروين قد قال بها القرآن منذ مئات السنين ! [1] .

جوانب الخطأ في هذا الاتجاه :

هذه النظرة للقرآن خاطئة من غير شك ؛ لأن الله لم ينزل القرآن ليكون كتاباً يتحدث فيه إلى الناس عن نظريات العلوم ودقائق الفنون وأنواع المعارف .

وهي خاطئة من غير شك ؛ لأنها تحمل أصحابها والمغرمين بها على تأويل القرآن تأويلاً متكلفاً يتنافى مع الإعجاز ، ولا يسغيه الذوق السليم .

وهي خاطئة ؛ لأنها تعرض القرآن للدوران مع مسائل العلوم في كل زمان ومكان ، والعلوم لا تعرف الثبات ولا القرار ولا الرأي الأخير ، فقد يصح اليوم في نظر العلم ما يصبح غداً من الخرافات .

فلو طبقنا القرآن على هذه المسائل العلمية المتقلبة ، لعرضناه للتقلب معها وتحمل تبعات الخطأ فيها ، ولأوقفنا أنفسنا بذلك موقفاً حرجاً في الدفاع عنه .

فلندع للقرآن عظمته وجلالته ، ولنحفظ عليه قدسيته ومهابته ، ولنعلم أنَّ ما تضمنه من الإشارات إلى أسرار الخلق وظواهر الطبيعة إنما هو لقصد الحث على التأمل والبحث والنظر ، ليزداد الناس أيماناً مع إيمانهم ، وحسبنا ان القرآن لم يصادم - ولن يصادم - حقيقة من حقائق العلوم تطمئن إليها العقول] تفسير القرآن : ص١١) .

---

(١) رحم الله الشيخ فقد جاء من فسر بعض آيات القرآن بنظرية دارون ، وهو الدكتور مصطفى محمود . فيقول في كتابه القرآن محاولة لفهم عصري : إن دارون قد أحسن ووفق فيما توصل إليه من اكتشاف وشائج القربى بين المخلوقات جميعها ، فها هي ذي نفس عضلات الأذن التي كانت تحرك آذان (أجداده) الحمير ، وقد تليفت وضمرت حينما لم تعد لها وظيفة " ص ٤٤ .

الأستاذ محمود شاكر :

وبعد أن تحدثنا عن علمين من أعلام الأمة قديماً وحديثاً ، يجدر بنا أن نتحدث عن رأي عالم آخر من علماء اللغة والأدب ، وذو باع طويل وقدم راسخة في هذا ، وهو الأستاذ محمود محمد شاكر ، صاحب الكتب المفيدة والمقالات العميقة في مادتها ، والمنافح عن لغة القرآن الكريم .

وإن كان رأي الأستاذ يختلف عن سابقيه ، فإن هناك روابط تربط آراءهم بعضها ببعض ، عرفنا أن رأي الشاطبي ومن بعده الشيخ شلتوت - رحمهما الله - وقد نقلنا عنهما - منعهما التفسير العلمي ، أما الأستاذ محمود شاكر فهو يفرق بين قضيتين : الأولى أن تفسر آي القرآن الكريم بحقائق العلم الثابتة لا بنظرياته .

الثانية : أن تكون هذه الحقائق العلمية والدقائق الكونية وجهاً من وجوه الإعجاز وقع بها التحدي .

فيرى أن لا مانع من القضية الأولى ، وهي أن يكون القرآن الكريم أشار في بعض آياته إلى حقائق ودقائق تشريعية وتاريخية ، وعلمية ، وكونية ، وبهذا يختلف عن سابقيه ، ولكنه يرى بعد ذلك أن هذه الحقائق والدقائق ليست من وجوه الإعجاز ؛ لأنها لم يقع بها التحدي ؛ وإنما التحدي كان بأسلوب القرآن ونظمه ، كان بما يعرفه العرب ، الإعجاز - إذن - الذي وقع به التحدي ، هو ما كان بلغة القرآن نظماً وأسلوباً ، ونتيجة ما قاله الأستاذ محمود شاكر أن حقائق التشريع ودقائق العلم ، يصح أن تكون دليل صدق على أن القرآن الكريم كتاب الله ، وعلى أن الذي جاء به من عند الله سيدنا محمد رسول الله حقاً .

وهكذا يفرق الأستاذ محمود شاكر بين أن نأخذ من القرآن الكريم بعض

القضايا ، فذلك أمر لا محذور فيه ، وبين أن نجعلها وجهاً من وجوه الإعجاز [1].

ذلكم أبرز ما قيل في منع تفسير القرآن الكريم تفسيراً علمياً ، وبالتالي إنكار أن يكون ذلك وجهاً من وجوه الإعجاز ، وننتقل الآن للحديث عن المثبتين وما استدلوا به لما ذهبوا إليه .

المثبتون للإعجاز العلمي :

الأقدمون :

إن أكثر علماء الأمة ومنهم علماء الكلام وجمهور المتصوفة لا يرون مانعاً من تفسير القرآن تفسيراً علمياً فرأيهم أن آيات القرآن فيها من دقائق العلوم ما لا يحصى ، وسنذكر لكم بعض هؤلاء .

١- الإمام الغزالي :

حجة الإسلام الغزالي - رضي الله عنه - ممن ذهبوا إلى هذا الرأي ودافع عنه بحزم وقوة ، يقول" إن العلوم كلها داخلة في أفعال الله عز وجل وصفاته ، وفي القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته ، وهذه العلوم لا نهاية لها ، وفي القرآن إشارات إلى مجامعها ، والمقامات في التعمق في تفصيله راجع إلى فهم القرآن ، ومجرد ظاهر التفسير لا يشير إلى ذلك ، بل كل ما أشكل فيه على النظارة ، واختلف الخلائق في النظريات ، والمقولات ففي القرآن رموز ودلالات عليه ، يختص أهل الفهم بدركها ، فكيف يفي بذلك ترجمته وتفسير ظاهره [2] .

---

(١) مقدمة الظاهرة القرآنية / ص ٢٤ .

(٢) إحياء علوم الدين (٢٥٨/١) .

٢-الإمام الرازي :

ينعى الإمام الرازي على من اعترض عليه لإيراده في تفسيره ما أورد من مسائل العلم وقضايا الكون ، يقول : وربما جاء بعض الجهال والحمقى ، وقال : إنك أكثرت في تفسير كتاب الله من علم الهيئة والنجوم وذلك خلاف المعتاد ، فيقال لهذا المسكين : إنك لو تأملت في كتاب الله حق التأمل ، لعرفت فساد ما ذكرته ... إن الله تعالى ملأ كتابه من الاستدلال على العلم والقدرة والحكمة ، بأحوال السموات والأرض وتعاقب الليل والنهار و كيفية أحوال الضياء والظلام وأحوال الشمس والقمر والنجوم ، وذكر هذه الأمور في أكثر السور ، وكررها وأعادها مرة بعد أخرى ، فلو لم يكن البحث عنها والتأمل في أحوالها جائزاً لما ملأ الله كتابه منها ... "[1] .

ويأتي الإمام السيوطي بعد هذين العلمين ، في كتابه " الإتقان في علوم القرآن " بالعجيب مما قاله ونقله عن هذا الفريق ، الذين توغلوا في التفسير العلمي إلى حد بعيد ، فينقل عن أبي الفضل المرسي وعن غيره ، كثيرا مما فيه مبالغة ومغالاة .

ومنهم الحكيم داود الأنطاكي المتوفي عام (١٠٠٨ هـ) ، حيث نقل عنه الرافعي رحمه الله تفسير قوله سبحانه { ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلنا نطفة في قرار مكين }[2]. وغير اؤلئك كثير،ونكتفي بهؤلاء الأئمة رحمهم الله

---

(١) الرازي ١٤/١٢ - ١٢٢ .

(٢)يقول الرافعي رحمه الله : ولقد قرأنا هذه الآية الكريمة على طبيب مسيحي محقق فاضل من أصدقائنا ، ونبهنا إلى هذه الدقائق ، فقال :آمنت بما أنزل على محمد [إعجاز القرآن/ص ١٣٦]

المحدثون :

١- ومن أوائل اؤلئك المحدثين الإمام محمد عبده - رحمه الله - يقول الأستاذ محمد أحمد الغمراوي : واللطيف البديع أن كبير المفسرين المحدثين الإمام الشيخ محمد عبده - رحمه الله - فسر بناء السماء طبق قانون الجاذبية فكان فتحاً في التفسير ، وفتوى عملية يتيح تفسير الآيات الكونية في القرآن طبق ما ثبت أو يثبت على أيدي علماء الفطرة من الحقائق الخاصة والعامة [١].

يقول الأستاذ في تفسيره جزء عم عند قول الله تعالى (والسماء وما بناها) (السماء اسم لما علا وارتفع فوق رأسك) ، وأنت إنما تتصور عند سماعك لفظ (السماء) هذا الكون الذي فوقك فيه الشمس والقمر وسائر الكواكب تجري في مجاريها ، وتتحرك في مداراتها . وهذا هو السماء ، وقد بناه الله أي رفعه وجعل كل كوكب من الكواكب منه بمنزلة لبنة من بناء سقف أو قبة جدران تحيط بك ، وشدت هذه الكواكب بعضها إلى بعض برباط الجاذبية العامة . كما تربط اجزاء البناء الواحد بما يوضع بينهما مما تتماسك به " [٢] . ويقول عند قوله " الأرض وما طحاها" وطأها وجعلها فراشاً ، كما قال " الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً" وليس في ذلك دليل على أن الأرض غير كروية ، كما يزعم بعض الجاهلين ، والذي طحاها هو الله " .

ويقول عند قول الله تعالى (إذا السماء أنشقت) : " انشقاق السماء مثل انفطارها وهو فساد تركيبها واختلال نظامها ، عندما يريد الله خراب هذا العالم

---

(١) الوعي الإسلامي ، عدد ٤٤ سنة ١٩٦٨م .

(٢) تفسير جزء عم ص ٩٥ .

الذي نحن فيه وهو يكون بحادثة من الحوادث التي قد ينجر إليها سير العالم ، كأن يمر كوكب في سيره بالقرب من آخر ، فيتجاذبا فيتصادما فيضطرب نظام الشمس بأسره ، ويحدث من ذلك غمام وأي غمام ، يظهر في مواضع متفرقة من الجو والفضاء الواسع فتكون السماء قد تشققت بالغمام واختل نظامها حال ظهوره [١].

٢- الشيخ محمد رشيد رضا :

يقول السيد رشيد رضا وهو يتحدث عن الإعجاز العلمي : قال تعالى (وأرسلنا الرياح لواقح) ، وكانوا يقولون فيه انه تشبيه لتأثير الرياح الباردة في السحاب ، بما يكون سبباً لنزول المطر ، بتلقيح ذكور الحيوان لإناثه . ولما اهتدى علماء أوروبا إلى هذا ، وزعموا أنه مما لم يسبقوا إليه من العلم ، صرح بعض المطلعين على القرآن منهم بسبق العرب إليه قال مستر " اجنيري " المستشرق الذي كان أستاذ اللغة العربية في مدرسة اكسفورد في القرن الماضي :" إن أصحاب الإبل قد عرفوا أن الريح تلقح الأشجار والثمار قبل أن يعلمها أهل أوروبا بثلاثة عشر قرناً " نعم إن أهل النخيل من العرب ، كانوا يعرفون التلقيح ، إذ كانوا ينقلون بأيديهم اللقاح من طلع ذكور النخل إلى إناثها ، ولكنهم لم يكونوا يعلمون أن الرياح تفعل ذلك ، ولم يفهم المفسرون هذا من الآية بل حملوها على المجاز [٢].

ثم يقول وقوله تعالى (والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي ، وأنبتنا فيها من كل شيء موزون) إن هذه الآية أكبر مثال للعجب بهذا التعبير :" موزون " فإن علماء الكون الأخصائيين في علوم الكيمياء والنبات ، قد أثبتوا أن العناصر التي

---

(١) تفسير جزء عم ص ٤٩ .

(٢) تفسير المنار ، ج١ ص ٢١٠ .

يتكون منها النبات ، مؤلفة من مقادير معينة ، في كل نوع من أنواعه ، بدقة غريبة لا يمكن ضبطها ، إلا بأدق الموازين المقدرة من أعشار الجرام والميلجرام. وكذلك نسبة بعضها إلى بعض في كل نبات ، أعني أن هذا التعبير بلفظ " كل " المضاف إلى " شيء " ، الذي هو أعم الألفاظ العربية ، الموصوف بالموزون – تحقيق لمسائل علمية وفنية – لم يكن شيء منها يخطر ببال بشر قبل هذا العصر ، ولا يمكن بيان معناها بالتفصيل إلا بتصنيف كتاب مستقل " [1] .

ويقول كذلك في قوله تعالى " والشمس تجري لمستقر لها " إلى قوله "وكل في فلك يسبحون " فهو موافق لما ثبت في الهيئة الفلكية ، مخالف لما كان يقوله المتقدمون ، ومنه الآيات المتعددة الواردة في خراب العالم عند قيام الساعة ، وكون ذلك يحصل بقارعة تقرع الأرض قرعاً وتصخها فترجها ، وتبس جبالها بسا فتكون هباء منبثاً ، وحينئذ تتناثر الكواكب لبطلان ما بينهما من سنة التجاذب ، والآيات في هذا وفيما قبله ، تدل دلالة صريحة على بطلان ما كان يقوله علماء اليونان ، ومقلدتهم من علماء العرب في الأفلاك والكواكب والنجوم ، وعلى إثبات ما تقرر في الهيئة الفلكية العصرية في ذلك ، وفي نظام الجاذبية العامة ، ويجد القارىء تفصيل هذا في عدة مواضع من هذا التفسير . فهذا النوع من المعارف التي جاءت في سياق بيان آيات الله وحكمه ، كانت مجهولة للعرب ، أو لجميع البشر في الغالب، حتى إن المسلمين أنفسهم ، كانوا يتأولونها ويخرجونها عن ظواهرها لتوافق المعروف عندهم في كل عصر من ظواهر وتقاليد ، أو نظريات العلوم والفنون الباطلة. فإظهار ترقى العلم لحقيقتها المبينة في ما يدل على أنها موحى بها من الله تعالى" [2] .

---

(١) تفسير المنار ج١ ص ٢١٠ .

(٢) تفسير المنار ج١ ص ٢١١ .

٣- الأستاذ مصطفى صادق الرافعي :

ذكرنا من قبل عند حديثنا عن الرافعي - رحمه الله - قوله إن القرآن معجز من نواحي ثلاث ، إحداها ما فيه من أنواع العلوم ، ونزيد هنا ، يقول الرافعي بعد أن ذكر بعض العلوم التي ذكرها القرآن :

وإنما أوردنا هذا القول لنكشف لك عن معنى عجيب في هذا الكتاب الكريم ، فهو قد نزل في البادية على نبي أمي وقوم أميين لم يكن لهم إلا ألسنتهم وقلوبهم ، وكانت فنون القول التي يذهبون فيها مذاهبم ويتواردون عليها ، لا تجاوز ضروباً من الصفات ، وأنواعاً من الحكم وطائفة من الأخبار والأنساب ، وقليلاً مما يجري هذا المجرى ، فلما نزل القرآن بمعانيه الرائعة التي افتن بها في غير مذاهبهم ، ونزع منها إلى غير فنونهم ، لم يقفوا على ما أريد به من ذلك ، بل حملوه على ظاهره وأخذوا منه حكم زمانهم ، وكان لهم في بلاغته المعجزة مقنع ، وما درى عربي واحد من أولئك لم جعل الله في كتابه هذه المعاني المختلفة ، وهذه الفنون المتعددة ، التي يهيج بعضها النظر ، ويشحذ بعضها الفكر ، ويمكن بعضها اليقين ، ويبعث بعضها على الاستقصاء ، وهي لم تكن تلتئم على ألسنتهم من قبل ؟

بيد أن الزمان قد كشف بعدهم عن هذا المعنى ، وجاء به دليلاً بيناً على أن القرآن كتاب الدهر كله ، وكم للدهر من أدلة على هذه الحقيقة ما تبرح قائمة ، فعلمنا من صنيع العلماء أن القرآن نزل بتلك المعاني ، ليخرج للأمة من كل معنى علماً برأسه ، ثم يعمل الزمن عمله فتخرج الأمة من كل علم فروعاً ومن كل فرع فنوناً ، إلى ما يستوفي هذا الباب على الوجه الذي انتهت إليه العلوم في الحضارة الإسلامية ، وكان سبباً في هذه النشأة الحديثة من بعد أن استدار الزمان ، وذهبت الدنيا مستديرة ، وأنشأ الله القرون والأجيال لتبلغ هذه الحادثة أجلها ويتناهى بها

القضاء ، وإن من شيء ، إلا عند الله خزائنه ، ولكنه سبحانه وتعالى يقول { وما ننزله إلا بقدر معلوم } (١) . وكأن الرافعي في كلامه هذا يرد على ما قاله الشاطبي رحمهما الله .

٤- الدكتور محمد عبد الله دراز :

قلنا من قبل عند حديثنا عن الأستاذ - رحمه الله - أنه قد بنى كتابه على أبواب ثلاثة ، منها أن القرآن معجزة علمية ، ولكنه انتقل إلى رحمة الله قبل أن يتم كتابه ، وكنا نتمنى أن نقرأ ما كتبه الأستاذ ، فإنه يختلف عن كثير من الناس، وحري بما كتبه أن يقرأ كله ، ولكننا لحسن الحظ وجدنا بعض إشارات ذكرها أستاذنا الفاضل في بعض كتبه ، وكل كتبه قيمة طيبة ، يقول :

" ولكن القرآن في دعوته إلى الإيمان والفضيلة لا يسوق الدروس من التعاليم الدينية والأحداث الجارية وحدها ، وإنما يستخدم في هذا الشأن الحقائق الكونية الدائمة ، ويدعو عقولنا إلى تأمل قوانينها الثابتة - لا لغرض دراستها وفهمها في ذاتها فحسب - وإنما لأنها تذكر بالخالق الحكيم القدير .

ونلاحظ أن هذه الحقائق التي يقدمها تتفق مع آخر ما توصل إليه العلم الحديث ، مثل المنبع الخفي الذي يخرج منه العنصر الجنسي للإنسان { خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب } [الطارق : ٦ ، ٧] والمراحل التي يمر بها الإنسان وهو في بطن أمه { فإنا خلقناكم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة } [الحج : ٥] .

وعدد التجويفات المظلمة التي يتم الخلق بداخلها { يخلقكم في بطون

---

(١) إعجاز القرآن / ص ١١٩ .

أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث } [الزمر : ٦] ، والمنشأ المائي لجميع المخلوقات الحية { وجعلنا من الماء كل شيء حي } [الأنبياء : ٣٠] ، وتكوين المطر { الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله } [الروم : ٤٨] ، ودائرية السماء والأرض {ويكرر الليل على النهار ويكور النهار على الليل } [الزمر : ٥] ، وكروية الأرض غير المكتملة عند الأقطاب { أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها } [الأنبياء : ٤٤] ، ومسيرة الشمس إلى نقطة معلومة { والشمس تجري لمستقر لها} [يس : ٣٨] ، وتعايش الحيوانات في جماعات تشبه المجتمعات الإنسانية {وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم } [الأنعام : ٣٨]، ووصف حياة النحل بصفة خاصة { وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا } [النحل : ٦٨ ، ٦٩] وثنائية النباتات والمخلوقات الأخرى ، وهي حقيقة علمية كان يجهلها عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى { سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون } [يس:٣٦] والتلقيح بواسطة الرياح { وأرسلنا الرياح لواقح } [الحجر : ٢٢] إلى آخره [1].

---

(١) مدخل إلى القرآن الكريم / د. دراز / ص ١٧٦ .

٥- الأستاذ عبد الوهاب حمودة :

يقول " والرأي الذي نميل إليه ، هو أننا في حاجة شديدة إلى أضواء العلم ، تكشف لنا عن حكم وأسرار جاءت بها الآيات الكريمة ، ولا ضرر من عدم قصر فهمه على ما كان عند العرب في علمها ، ومألوف معارفها ، لأن القرآن أنزل للناس كافة يأخذ منه كل على قدر استعداده وحاجته ، ما دام ذلك لا يتنافى مع ما قصه القرآن من الهداية ، وما يهدف إليه من الإرشاد . فكم من حكمة فيه إذا ما مستها يد العلم أسفرت أسرارها ، فظهرت أنوارها عن سر إعجازها وسحر بيانها ... " ثم يذكر أمثلة عن بعض مدلولات الآيات التي يستعان على فهمها بشتى العلوم ويقول: فالحق أن كل ما يساعد من العلوم على الكشف عن الأسرار الكونية والدلالة على قدرة الصانع الحكيم ، الإبانة عن مبلغ آياته ونعمه ولا يتعارض مع أسلوب اللغة ، ومألوف تعبيرها ، من غير إغراب ولا تكلف ، ولا إغراق في التأويل وإسراف في التحديد ، فهو مما يجوز أن يستخدم في فهم آيات القرآن الكريم ، فهو لا تفنى عجائبه ولا تحصى أسراره " [1] .

الأستاذ محمد أحمد الغمراوي :

يقول رحمه الله " الواقع أن موضوع إعجاز القرآن لا يزال بكراً برغم كل ما كتب فيه لكني لست أريد أن أتناوله إلا من تلك الناحية التي لا يتوقف تقديرها والتسليم بها على معرفة لغة لا تتيسر معرفتها لكل أحد ، هذه الناحية هي الناحية العلمية من الإعجاز .

وإذا فهمنا الناحية العلمية على أوسع معانيها شملت كل ما عدا الناحية

---

(١) مجلة لواء الإسلام ، العدد (١٠) سنة (٢) بعنوان التفسير العلمي .

البلاغية من النواحي : تشمل الناحية النفسية ، وكيف اقتاد القرآن النفس ويقودها طبق قوانين فطرتها ، وتشمل الناحية التشريعية ، وكيف نزلت أحكام القرآن طبق الفطرة للأفراد والجماعات، وتشمل الناحية التاريخية التي لم يكن يعلمها البشر عند نزول ما اتصل بها من الآيات القرآنية ثم كشف عنها التنقيب الأثري فيما بعد ، ثم تشمل الناحية الكونية ، ناحية ما فطر الله عليه غير الإنسان من الكائنات في الأرض ، وما فطر عليه الأرض وغير الأرض في الكون .

هذه النواحي هي التي ينبغي أن يشمر المسلمون للكشف عنها وإظهارها للناس في هذا العصر الحديث ، ولن يستطيعوا ذلك على وجهه حتى يطلبوا العلوم كلها ليستعينوا بكل علم على تفهم ما اتصل بالعلوم جميعاً ، ولا غرابة في أن يتصل القرآن بالعلوم جميعاً ، فما العلوم إلا نتاج تطلب الإنسانية أسرار الفطرة، والقرآن ما هو إلا كتاب الله فاطر الفطرة ، فلا غرو أن يتطابق القرآن والفطرة ، وتتجاوب كلماتها وكلماته ، وإن كانت كلماتها وقائع وسنناً وكلماته عبارات وإشارات تتضح وتتبهم طبق ما تقتضيه حكمة الله في مخاطبة خلقه ليأخذ منها كل عصر على قدر ما أوتي من العلم والفهم ، وكذلك دواليك على مر العصور .

هذا التدرج في إدراك تمام التطابق بين القرآن والفطرة أمر لا مفر منه في الواقع ، ثم هو مطابق لحكمة الله سبحانه في جعله الإسلام آخر الأديان ، وجعله القرآن معجزة الدهر ، أي معجزة خالدة متجددة : يتبين للناس منها على مر الدهور وجه لم يكن تبين ، وناحية لم يكن أحد يعرفها أو يحلم بها من قبل ، فيكون هذا التجدد في الإعجاز العلمي هو الجديد للرسالة الإسلامية ، كأنما رسول الإسلام قائم في كل عصر يدعو الناس إلى دين الله ، ويهديهم دليلاً على صدقه آية جديدة من آيات تطابق ما بين الفطرة وبين القرآن .

هذا النوع من الإعجاز يعجز الإلحاد أن يجد موضعاً للتشكيك فيه إلا أن

يتبرأ من العقل ، فإن الحقيقة العلمية التي لم تعرفها الإنسانية إلا في القرن التاسع عشر أو العشرين مثلاً والتي ذكرها القرآن ، لابد أن تقوم عند كل ذي عقل دليلاً محسوساً على أن خالق هذه الحقيقة هو منزل القرآن .

وقبل أن نورد بعض الأمثلة الإيضاحية ، يجب أن ننبه إلى أمرين مهمين الأول أنه لا ينبغي في فهم الآيات الكونية من القرآن الكريم أن نعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا إذا قامت القرائن الواضحة تمنع من حقيقة اللفظ ، وتحمل على مجازه. إن مخالفة هذه القاعدة الأساسية الأصلية البسيطة قد أدى إلى كثير من الخطأ في التفسير ، وسنرى أن من أعجب عجائب القرآن أن المطابقة بين آياته وآيات الفطرة تكون أتم وايسر كلما أخذنا بتلك القاعدة في فهم كونيات القرآن .

هذا أمر ، أما الأمر الثاني فهو أنه ينبغي إلا نفسر كونيات القرآن إلا باليقيني الثابت من العلم لا بالفروض ولا بالنظريات التي لا تزال موضع فحص وتمحيص إن الحقائق في سبيل التفسير الحق ، هي كلمات الله الكونية ، فينبغي أن يفسر بها نظائرها من كلمات الله القرآنية ، أما الحدسيات والظنيات فهي عرضة للتصحيح والتعديل ، إن لم يكن للإبطال في أي وقت ، فسبيلها أن تعرض على القرآن بالقاعدة الثابتة لتبين مبلغ قربها منه أو بعدها عنه ، وعلى مقدار ما يكون بينها وبينه من اقتراب يكون مقدار حظها من الصواب .

أما الأستاذ سيد قطب – رحمه الله – فقد تحدثنا عنه من قبل ، وعرفنا رأيه في هذه القضية، وهو رأي معتدل ، لا إفراط فيه ، ولا تفريط ، ولا جمود ولا مغالاة.

ونكتفي بما ذكرنا من آراء وأقوال هؤلاء الأئمة – رحمهم الله – والآن وقد انتهينا من عرض آرائهم ، يجمل بنا أن نناقش هذه الآراء مناقشة علمية هادفة هادئة وأكرر ما قلته من قبل إن آراء هؤلاء جميعاً منبثقة عن حرصهم على كتاب الله

وإجلالهم له .

مناقشة ما ذهبوا إليه :

ولنبدأ بمناقشة المانعين ، وقد عرفنا أن من أبرز هؤلاء وأسبقهم الشاطبي -رحمه الله - وتتخلص دعواه في :-

أمية العرب وأمية الشريعة ؛ لذا لا يجوز لنا أن نفسر الآيات بما لم يكن معروفاً عند الذين نزل القرآن فيهم ، وقد ذكرنا خلاصة لأقواله من قبل ، فارجعوا إليها إن شئتم . ونناقش دعوى الشاطبي رحمه الله بتقرير ما يلي :-

١- ينبغي أن لا ننسى أن القرآن الكريم وإن نزل في العرب لكنه لم ينزل لهم وحدهم ، وإنما نزل للناس جميعاً { قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً } وقال { وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ } وقال { وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً } وقال النبي صلى الله عليه وسلم " أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود " والنصوص في ذلك كثيرة ، فالقرآن الكريم والشريعة - إذن - لا ينبغي أن نضيق دائرتها لنحصرها في الأمة الأمية وحدها .

٢- إن قول الشاطبي - رحمه الله تعالى - بأن الشريعة أمية جدير بالمناقشة، إذ لا يلزم من أمية الأمة ، أمية التشريع ، فهذه الشريعة التي أكرمنا الله بها نجدها - ونحن على أبواب القرن الحادي والعشرين - تفوق كل ما وصل إليه الإنسان المتمدين في مجالات الحياة وأنواع التشريع ، فليست أمية الشريعة وأمية الأمة سواء .

٣- ليس معنى كون الأمة أمية أنها ستبقى كذلك ، فلقد أكرم الله الإنسانية بهذا الدين ، وبهذا الكتاب الخالد ، وبهذا النبي العظيم عليه وآله أفضل الصلاة وأتم التسليم ، لتسعد الإنسانية وتصعد ، وتنهض الأمة بأعباء هذه الرسالة الخالدة،

فينقطع دابر الجهل ، ونصل إلى أسرار هذا الكون الذي سخره الله لنا سماءه وأرضه، وفي ذلك آيات كثيرة منها قول ربنا { هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة } فليس من منطق التاريخ أن تظل الأمة أمية في عصورها كلها ، ثم ماذا نقول عن أولئك الذين دخلوا في الإسلام من غير الأميين ، كيف يتأتى لهم في مجالات حياتهم ، أن تكون الشريعة التي يدينون بها ويخضعون لها أمية لا تتسق مع أوضاعهم ، ولو كان ذلك مقبولاً لرفض أئمة المسلمين وعلماؤهم ومفكروهم جميع العلوم والمعارف التي تتنافى مع هذه الأمية ، إن الواقع والتاريخ يشهدان لغير ذلك ، لقد هضم المسلمون أنواع المعارف جميعها فانتجت لهم نوعاً من المعرفة المتصلة بكيانهم ، والتي صارت فيما بعد جزءاً من هذا الدين .

٤- إن دعوى تفسيرنا للقرآن بما لم يكن معلوماً لساداتنا الصحابة رضوان الله عليهم ، أمر لا يجوز : لأنه فيه انتقاصاً من قدر الصحابة رضوان الله عليهم كما يقول الشيخ رحمه الله دعوى غير جائزة ، بل هي مردودة تردها نصوص هذا الدين الحنيف ، فنحن نعلم أن الله تبارك وتعالى أوجب على المسلمين أن يتدبروا القرآن الكريم ، ولذا لم يفسر منه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا آيات قليلة ، ليعيش المسلمون دائماً على مائدته ، ولو وجب علينا أن نقف عند ما وقف عنده الصحابة رضوان الله عليهم ، لم يكن أي معنى للتدبر ، صحيح يجب أن نهتدي بما وصلوا إليه ، ولكن ليس معنى هذا أن نحرم على أنفسنا كل ما يفتح الله به من حقائق في فهم هذا الكتاب المبين .

بقي أمرٌ حري بالبحث جدير بالمناقشة ، وهو ما نقلناه عن الأستاذ محمود شاكر ، فهو لا ينكر أن القرآن الكريم قد أشار إلى بعض الحقائق ، لكنه يمكن أن يكون هذا من وجوه الإعجاز ومما تحدي به ، ويرى أن التحدي بالبيان وحده ،

والأستاذ يرى أن هذه الحقائق في الآيات إنما تدل على صدق النبي صلى الله عليه وسلم في أنه نبي ، وأن القرآن من عند الله ، ومناقشتنا الدعوى من جهتين اثنتين:

الجهة الأولى : إن المقصود من التحدي إثبات أن القرآن من عند الله ، وأن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم هو رسول الله فإذا كانت الحقائق العلمية وغيرها - كما يرى الأستاذ الفاضل - تدل على هذا ، فذلكم هو الإعجاز .

الجهة الثانية : إننا حينما درسنا مراحل التحدي وجدنا أن بعضها كان خطاباً للعرب وحدهم ، وكانت المرحلة الأخيرة للناس جميعاً ، ولو أن مراحل التحدي كلها كانت خطاباً للعرب فحسب ، لكان ماذهب إليه الأستاذ الفاضل حرياً بالقبول ، أما وقد وجدنا المرحلة الأخيرة تختلف عن سابقاتها من حيث المخاطبون ، لأنهم الناس جميعاً ، ومن حيث التنزل لأنها نزلت في المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، ومن حيث الأسلوب كما شرحناه من قبل ، ونحن نعلم الدقة المحكمة في ألفاظ القرآن الكريم ، فهذا يدل دون أدنى شبهة على أن التحدي كان عاماً للناس جميعاً ، ولا يعقل أن يتحدى الناس جميعاً بالأسلوب وحده ثم أليس حديث بعض آي القرآن الكريم عن حقائق في الكون والتاريخ والتشريع لم تكن معروفة من قبل، من أبين الأدلة على إعجازه ؟ ، ما دمنا نتفق جميعاً على أن إعجاز القرآن ليس محدوداً بعصر أو زمن من الأزمان ، أوخاصاً بمصر أوبلد من البلدان .

ونرجو أن لا يفهم أحد أننا نفتح الباب على مصراعيه ، ليتطاول الناس فيما لا ينبغي لهم ، وأن نفسر آي القرآن الكريم تفسيراً يقوم على الظن والحدس وأن نلهث وراء كل قول وخلف كل نظرية ، إن ذلك أمر لا يجوز أبداً ، ولقد نقلنا من قبل ما قاله كثير من العلماء في هذا المعنى ، ولسنا مع كثير ممن فسروا آي القرآن الكريم تفسيراً بعيداً عن لغته ، بعيداً عن سياق آياته ، وإليكم خلاصة ما ارتأيناه في هذه القضية .

رأينا في التفسير العلمي :

والذي أختاره في هذا الموضوع أوجزه فيما يلي :

أ) إن التفسير العلمي ضرورة تتطلبها هذه الفترة الزمنية التي نعيشها ، شريطة أن يتهيأ لذلك ذوو الإختصاص .

ب) إن القول بأن التفسير العلمي فيه غض من قدر الصحابة رضوان الله عليهم لا أخاله متفقاً مع منطق الواقع ومسلمات العقل .

جـ) إن القرآن ليس ديوان شعر ، كما أن سوره وآياته ليست قصائد وأبياتاً يقولها الشاعر في ظرف معين ، وإنما القرآن كتاب الله ما دامت الإنسانية . وإذاً فلابد من أن تكون فيه الجدة دائماً ، وهو الذي لا تنقضي عجائبه ، ولذا فإن الله تبارك وتعالى ، لا إله إلا هو يفتح لمن أراد أبواباً في فهم هذا الكتاب .

من كل ما سبق فإن التفسير العلمي إذا توفر له مناخه الصالح ، واستجمع الشروط فلا مانع منه أبداً وهذه الشروط كما ارتأيها :

١- موافقة اللغة موافقة تامة بحيث يطابق المعنى المفسر المعنى اللغوي .

٢- عدم مخالفة صحيح المأثور عن الرسول عليه وآله الصلاة والسلام ، أو ما له حكم المرفوع .

٣- موافقة سياق الآيات بحيث لا يكون التفسير نافراً عن السياق .

٤- التحذير من أن يتعرض التفسير العلمي لأخبار وشؤون المعجزات .

٥- أن لا يكون التفسير حسب نظريات وهمية متداعية ، بل لابد أن يكون حسب الحقائق العلمية الثابتة .

ونحن نرى أن الخروج عن هذه الشروط ، يعرض المفسر لخطر وخطل لا تحمد عقباهما . فمن مخالفة اللغة مثلاً ، ما رأينا لبعضهم من تفسير الطير بالحجارة في

قوله تعالى { وأرسل عليكم طيراً أبابيل } [الفيل : ٣] ، وتفسير " الغثاء الأحوي " بالفحم الحجري . ومن مخالفة صحيح المأثور ما رأيناه لبعضهم في تفسير قوله تعالى { فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين } [الدخان : ١٠] ، حيث فسروه بما يدل على نهاية الأرض . وأما تعرض التفسير العلمي لأخبار الغيب ، فكما رأينا لبعضهم من تفسير قوله تعالى { ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدُّون } [السجدة : ٥] ، بأن هذا يقصد به ما بين نفختي الصور وأن المدة ألف سنة . وأما التفسير حسب النظريات المتداعية الواهية فكما نراه عند بعضهم من تفسير " الخلق " حسب نظرية دارون في التطور ، كما ذهب إليه الطبيب مصطفى محمود .

وهذا الذي ذهبت إليه قرره كثير من العلماء : علماء الدين ، وعلماء الطبيعة وأنقل هنا نصين اثنين ، أحدهما لأحد علماء الأزهر وهو أستاذنا الشيخ محمد الصادق عرجون ، والآخر الأستاذ محمد أحمد الغمراوي أستاذ الكيمياء بكلية الصيدلة سابقاً .

يقول فضيلة الأستاذ محمد الصادق عرجون " فالبحث عن حقائق الموجودات سماوية أو أرضية ، هو في نظر القرآن ، مهمة الإنسان ما دام على ظهر هذه الأرض لأنه وسيلته إلى استخلاص أكبر قسط من المنافع المادية والروحية ، التي يحيا بها حياة طيبة و يعمره فيها الإيمان بجلال الخلاق العظيم . إن الجانب الكوني في آيات القرآن الحكيم – وهو جانب مهم جداً ، لأنه عماد الدلائل الإلهية على وجود الله تعالى ، وتوحيده وباهر قدرته وواسع علمه ، ولطيف حكمته وسائر ما يجب له تعالى من الكمال – في حاجة ماسة إلى إعادة النظر فيه ،للتفسير والبيان بأسلوب علمي ، يبرز عن طريق ملاحظة الظواهر الكونية ، حجة الله على خلقه ، ويكشف عما في الآيات من أسرار وحقائق ، ناط الله بها كثيراً من منافعنا ومصالحنا في

الدين والدنيا ، وقد أشار إليها القرآن ، وبدأ العلم يكشف عنها الحجب ، ولكن على شرط أن نحذر ، فلا نخضع القرآن لنظريات لا تزال في مهب التجارب ، وقد تعصف بها فتصبح من قبيل الأساطير ، فنقول إنها تفسير لآيات القرآن ، كما صنع ذلك بعض المتحمسين ، وبعض المخدوعين ببريق العلم التجريبي . والقرآن كتاب الله الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، فهو لا يخضع لأسلوب حديث ولا أسلوب قديم ، وإنما تفسره الحقائق والبراهين ، التي يحققها البحث العلمي المستند إلى الأصول الإسلامية ، وقضايا العقول المستقيمة [1] .

ويقول الأستاذ الغمراوي :" إن القرآن عربي ، فعلى الناظر فيه أن يلتزم معاني كلماته ، كما كان يفهمها العرب حين تنزل بها الوحي ، وأن يلتزم قواعد العربية في الناحيتين النحوية والبلاغية كما قعدها العلماء .

والقرآن حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فعلى الناظر فيه ألا يطابق إلا بينه وبين ما ثبت أنه حق لا شك فيه ، وهذا يخرج النظريات العلمية والنفسية ، وما إليها من ميدان التطبيق . اللهم إلا أن تعرض تلك النظريات على القرآن ، مع الدقة في الفهم والمطابقة ، فما وافقه منها كان القرآن مؤكداً لها وما خالفه منها كان القرآن شاهداً عليها بالبطلان .

والقرآن من عند الله ، فمستحيل أن تتناقض آياته فيما بينها ، أو مع ما يثبت في العلوم الكونية أنه حق . فحقائق العلوم ويقينياتها - لا نظرياتها - هي التي تفسر بها الآيات الكونية في القرآن . وكل فهم لآيات القرآن يؤدى إلى تنقض بينها ، أو بينها وبين حق ثابت في العلم هو فهم خطأ لا محالة ، ينبغي أن يجتنب،

---

(١) القرآن العظيم / ص ٢٦٦ و ٢٧٤ .

وإن اشتهر وسار بين الناس .

ثم بعد ذلك على الباحث عن معاني القرآن وعجائبه ، أن يتبع المنطق الصارم في استنباطه وعجائبه وتطبيقاته ، خصوصاً في المطابقة بين آياته وبين حقائق الفطرة ، كما ثبت في علوم الفطرة أو العلوم الطبيعية كما يسميها الناس [1] .

---

(١) الوعي الإسلامي ، عدد ١٥ ، سنة ١٩٦٦م .

نماذج من التفسير العلمي

خلق الإنسان :

(١) قال تعالى { والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون } [النحل : ٧٨] .

يقول المفسرون القدامى ، إنه قدم السمع على البصر ، وأفرد السمع لأفضليته ، ولأنه مصدر لا يثنى ولا يجمع فإذا جاءت حقائق العلم تثبت أن حاسة السمع يمنحها الله للطفل قبل حاسة الإبصار ، وأن السمع إنما يدرك به شيء واحد ، وهو الأصوات بينما يدرك بالبصر أكثر من شيء كالألوان والأشكال ، وكان هذا لا يتعارض مع مفهوم الآية ومنطوقها ، ولا يعارض أثراً عن الرسول عليه وآله الصلاة والسلام ، فما المانع - إذن - أن يكون هذا تفسيراً علمياً للآية فيكون إعجازاً قرآنياً خالداً .

أطوار خلق الإنسان :

(٢) قول الله تعالى { ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين } [المؤمنون : ١٤] انظروا إلى دقة التعبير القرآني حيث عبر عن الرحم بالقرار مكين والقرار بهذه الصفة عرف تماماً وصفه في عصر العلم .

جاء في كتاب " بين الإسلام والطب " للدكتور حامد الغوابي قوله عن القرار المكين " هو رحم المرأة ، وحقاً إنه لقرار مكين ، إذ تربطه ألياف قوية في موضعه وتثبته أربطة متينة في جوسقه (بيته الصغير) ويحمله حوض من عظام متينه . ففوقه الحجبتان (العظمتان فوق العانة) وعلى جانبيه الحرقفتان (العظم الجانبي

في الحوض) وعظام العجز (أسفل العمود الفقري) والعصعص (أسفل العجز) من خلف له سنادات ، ثم أنه ليغطى من أعلى بالمثانة ومن أسفل بالمستقيم " (١) .

ثم يقارن بين هذه الآية ومثيلتها في سورة الحج فيقول :

" وقد يسأل سائل : لماذا قال تعالى في الآية الكريمة السابقة "فخلقنا العلقة مضغة" وقال في آية الحج { يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة } [آية: ٥] حيث ذكر ت الفاء في الآية الأولى، فخلقنا العلقة مضغة ، وذكرت (ثم) في هذه الآية الكريمة ؟ " ثم من علقة ثم من مضغة"؟ فنجيب بأن الله سبحانه هنا يبين أدوار النشأة بتسلسل متبوع " من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة " ليبين الأطوار التي يمر بها الإنسان ، فالنطفة تمر بأطوار والعلقة لا تبلغ المضغة إلا بعد أن تنقسم في أدوار ، أما في الآية السابقة،فقد أرانا الله نصيب كل دور ووقت كل طور فجاء بالعطف بالفاء ليبين قصر الدور وبالعطف بـ " ثم " ليبين التعقيب مع التراخي ، أي طول هذا الطور" (١) .

(٣) قال تعالى { يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث } [الزمر : ٦] ، والمفسرون القدامى يعدون هذه الظلمات الثلاث ظلمة البطن ، والرحم ، والمشيمة ، ويأتي علم التشريح الحديث ليثبت بما لا يقبل الريبة أن هذه الظلمات إنما هي أغشية ثلاثة ، تحيط بالطفل غشاء فوق غشاء ، وهذه الأغشية لا تظهر بالعين المجردة ، وهي : المنبارى ، الخريوتي ، اللفائفي ، أو كما يقول توماس إيدن هي الكوريون وهو الغشاء الخارجي ، يليه الميزودورم فالامنيوس (٢) .

---

(١) بين الطب والإسلام / ص ٢٦ . (٢) بين الطب والإسلام / ٢٨ .

ويقول الدكتور محمد علي البار : " قال بعض المفسرين رحمهم الله : إن الظلمات الثلاث هي ظلمة البطن وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة ، والمعنى الصحيح في ذاته، فلجدار البطن ظلمة ثم يليها ظلمة جدار الرحم ، ثم تليها ظلمة الأغشية المحيطة بالجنين ، ومع هذا فالآية قد حددت أن الظلمات الثلاث هي في مكان الخلق من بطون الأمهات وذلك لا يكون إلا في الرحم ذاته ، وإذا دققنا النظر في الأغشية المحيطة بالجنين وجدناها ثلاثة هي :

غشاء السلى أو الأمنيون ، ويحيط بالجنين مباشرة من كل جوانبه وفي مائه يتحرك الجنين ، ثم يليه غشاء الكوريون (الغشاء المشيمي) ، ثم يليه الغشاء الساقط وهو غشاء الرحم الذي يسقط بعد الولادة أو الإجهاض ، وسمي بالساقط لأن الرحم يسقطه مع الأغشية " (١) .

(٤) ويقول تعالى { وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيا ، فكلي واشربي وقري عينا } [مريم : ٢٥] ولله أن يخلق ما يشاء ، ولكم تساءلت في نفسي : لم خصت النخلة يا ترى دون التين مثلاً ، مع أن تلك البلاد يكثر فيها التين ؟ ولله أن يخلق ما يشاء .

كما قلت :

لقد أثبت العلم أخيراً أن للبلح تأثير على خفض ضغط الدم عند الحوامل ، وبذلك تقل كمية الدم النازلة منها ، وهو يحتوي على نسب عالية من السكاكر البسيطة السهلة الهضم والإمتصاص ، والسكاكر هو الغذاء المفضل للعضلات وعضلة الرحم من أضخم عضلات الجسم ، وتقوم بعمل جبار أثناء الولادة التي

---

(١) خلق الإنسان بين الطب والإسلام / ص ٢٠١ ، ٢٠٣ .

تتطلب سكاكر بسيطة بكميات جيدة ، ونوعية خاصة سهلة الهضم والامتصاص كتلك التي في الرطب .

وأثبت العلم أن ثمر النخيل الناضج يحتوي على مادة مقبضة للرحم تقوي عمل عضلات الرحم في الأشهر الأخيرة من الحمل وتساعد على الولادة (١) .

وقد قدم الدكتور عبد العزيز شرف رئيس المركز القومي للبحوث الأسبق في مصر بحثاً عن البلح ، أثبت فيه أن البلح يقوي انقباض عضلات الرحم وخصوصاً في الشهور الأخيرة من الحمل ، ويقول الدكتور شرف إنه استرشد في بحثه هذا بالآية القرآنية { وهزي إليك بجذع النخلة } .

تكوين المطر :

(٥) يقول الله تعالى { ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله } .

يقول الأستاذ رشيد رشدي العابري رحمه الله :" لحصول المطر عوامل ثلاثة لاغيرها ، إذا توافرت لابد من نزول المطر وإن نقص عامل واحد منها فلا إمكان لحصوله ، وتلك العوامل هي :

أولاً :- التبخر حتى يؤدي إلى تكوين سحاب . ثانياً - وصول الهواء إلى درجة الإشباع بكمية البخار . ثالثاً - التكاثف . وهذا الترتيب على التعاقب لا مفر منه لتكوين المطر .... ولكن الآية قد جاءت بوصف موجز مدهش للألباب ، إذ عبرت بكلمة " يزجي سحاباً " عن عملية التبخر ، ثم عبرت عن تشبع الهواء ببخار

---

(١) مع الطب في القرآن / د. عبد الحميد ذياب / ص ٢٨ ، الإعجاز الطبي في القرآن للدكتور الجميلي / ص ١٩١ .

الماء بقولها على سبيل التعاقب (ثم يؤلف بينه) . إذ أن درجة الإشباع كما ذكرناها آنفاً ، تتوقف على تساوي تبادل الجزئيات بين الماء والهواء . وما هذه الظاهرة إلا التآلف بين تلك الجزئيات . ومن ناحية أخرى أنه لا يحصل التشبع إلا بالتعادل والتآلف ، بين ضغطي بخار الماء وبخار الهواء ، أو الإتحاد بين نوعي الكهربائية وائتلافها كما قد سبق بيانه . وعلى ذلك فإن أصدق وأصح وأبلغ تعبير لهذه الظاهرات ، هو التأليف الذي وصفه العلم بالتشبع وليس لها تفسير آخر .

ثم جاءت بقولها { ثم يجعله ركاماً } على سبيل التعاقب أيضاً فأبلغ تعبير للتكاثف هو الركام . ولا نفسر كلمة " الركام " بغير التكاثف . فجاء في معجمات اللغة في تفسير كلمة الركام بأنه (سحاب كثيف) ويقصد بالسحاب الكثيف البخار ، والذي قد تشبع الهواء منه فتكاثف .

ثم تقول الآية ... " فترى الودق " - أي المطر " يخرج من خلاله " . فعندما بينت الآية العوامل الثلاثة لحصول المطر ، فصلت بينها بكلمة " ثم " للترتيب والتراخي " لأن كلا من عوامل التبخر والتشبع والتكاثف التي ذكرناها آنفاً ، يستغرق وقتاً مهماً كان ضئيلاً . وبعدها بكلمة " فترى الودق " بحرف الفاء السببية والتعقيبية . أي أنها تقول بعدما تتوافر العوامل الثلاثة فلابد أن يحصل المطر فوراً. فهذا الترتيب الطبيعي الثلاثي لحصول المطر ، لم يحققه العلم ، ولم يطلع عليه العلماء على الوجه العلمي الآنف الذكر إلا من مدة قصيرة ولكن القرآن عرفه، قبل ما ينوف على ثلاثة عشر قرناً " [1] .

(٦)وهذه جوهرة أخرى من جواهر الإعجاز القرآني ، صافية في مزنها

---

(١) بصائر جغرافية ص ٢١١ .

متلألأة في بريقها متصلة بما قبلها كذلك ، ننقلها من كتاب قيم لعالم مؤمن . أما الكتاب فهو سنن الله الكونية [1] . وأما الكاتب فهو الأستاذ الغمراوي الذي مر ذكره من قبل . وأما الجوهرة فهي قول الله تعالى { أفرأيتم الماء الذي تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ؟ لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون } [الواقعة : ٦٨ - ٧٠] حيث يقول الأستاذ :" وتستطيع - بعد أن عرفت العوامل المتعددة التي لابد من تعاونها على تكوين المطر - أن تدرك شيئاً من سر الحجة في هذا السؤال العجيب { أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون } ؟ . لكن الإشارة التي أردنا أن نلفت النظر إليها هي قوله تعالى { لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون } والناس طبعاً يسلمون بالقدرة الإلهية على قلب العذب أجاجاً . ويظنون أن هذا يكون عن طريق الخوارق ، ولا يتساءلون - هل في سنن الله ما يسمح بهذا ؟

ولو تساءلوا وتطلبوا الجواب في العلم ، لوجدوه قريباً ، ولعرفوا أن عذوبة الماء الذي يسقيهم الله إياه من السحاب هي بمحض رحمة الله ، إن الماء طبعاً عذب بطبيعته . وماء المطر معروف أنه أعذب المياه ، ولكن طبيعة تكونه من السحاب ، تعرضه لأن ينقلب أجاجاً لا ينتفع به الإنسان .

إن الهواء كما تعرف أربعة أخماسه آزوت ، والازوت كما تعرف أيضاً لا يكاد يتحد في العادة بشيء ، ولا بالاوكسجين الذي يكاد يتحد بكل شيء . لكن الكيماويين وجدوا أنهم يستطيعون بالكهربائية ، أن يحولوا الآزوت غير الفعال إلى آزوت فعال ، يتحد بأشياء كثيرة في درجة الحرارة العادية ، كما وجدوا أنهم يستطيعون أن يحملوا الآزوت على الاتحاد بالأوكسجين ، بامرار الشرر

---

(١) وهي مذكرات أملاها المؤلف على طلبة كلية أصول الدين ، وجمعها الدكتور أحمد بن عبد السلام الكرداني في كتاب سماه " الإسلام في عصر العلم "

الكهربائي ، في مخلوط منهما ، ومن هذا الاتحاد ينشأ بعض أكاسيد للآزوت ، قابل للذوبان في الماء . وإذا ذاب فيه اتحد به ، وكون حامضين آزوتيين ، أحدهما حامض الازوتيك ، أو ماء النار ، كما كان يسميه القدماء . وإليه يصير الحامض الثاني ، وقليل من حامض الآزوتيك في الماء كاف لافساد طعمه .

أظنك الآن قد بدأت تدرك الطريق ، الذي يمكن أن ينقلب به ماء المطر ماءً أجاجاً ، من غير خرق لأي سنة من سنن الله ، فهو نفس الطريق الكهربائي الذي يتكون به المطر . وكل الذي يلزم - أن يتعدل التفريغ الكهربائي ، ويتكرر في الهواء، وما يتكون به من الأكاسيد الآزوتية ، يذوب في ماء السحاب ، ويحوله حامضياً لا يسيغه الناس .

وهذا هو موضع المن من الله تعالى على الناس ، أنه يكيف التفريغ بالصورة التي ينزل بها المطر ولا يُؤَج بها الماء » (١) .

هذا هو الإعجاز العلمي في الآية كما أبانت عنه ، بعبارة موجزة وكما وضحه الأستاذ الغمراوي ويقيني أنه قد وفق وأجاد ، وهذا يؤيد ما حدثناكم عنه من قبل من الإعجاز البياني في الآية ، وهو خلوها من اللام ، على حين جاءت اللام في الآية السابقة « لو نشاء جعلناه حطاما .

---

(١) الإسلام في عصر العلم / ص ٤٠٨ .

علم الفلك :

وما دمنا قد تكلمنا عن خلق الإنسان والمطر الذي تحيا به الأرض ، يحيا به الإنسان يحسن بنا أن نتكلم عما في الآيات الكريمة من إشارة إلى السماوات ذلكم العالم العلوي .

(٧) قال تعالى { الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ... } [الرعد : ٢] .

" النظرة العلمية لهذه الآية : أنه كلما نظر الإنسان إلى نجوم السماء وكواكبها يراها متماسكة وثابتة في مواضعها ، وهي سابحة في أفلاكها طبقاً لنظام بديع لا يحيد عنه أبداً ، وقد فسر العلم هذه القوة الكونية التي تحفظ السماء والأرض والكون من التفكك وتصونه من الاضطراب والخلل بأنها قوة الجاذبية التي اكتشفها عالم رياضيات إنجليزي هو « نيوتن » في أوائل القرن السابع عشر عندما لاحظ يوماً تفاحة سقطت عن شجرتها على الأرض ، فأخذ يفكر في أسباب سقوطها ، هي وغيرها من الأجسام التي تقع تلقائياً على الأرض ، وهداه تفكيره العميق إلى الوصول إلى استنباط نظرية الجاذبية ، واستطاع أن يضع لها قوانين دقيقة أثبتت صحتها بالتجارب العلمية ، ووضع بما لا يقبل الشك أن هناك علاقة بين كتل الأجسام المتجاذبة وبين المسافات التي بينها ، وقد ساعد قانون الجاذبية علماء الفلك على فهم الكثير من الحقائق الكونية التي كانت مجهولة تماماً من قبل "[1].

ويؤخذ من الآية حقيقة علمية أخرى وهي أن الشمس والقمر غير مستقرين لهما يجريان لأجل مقدر لهما ، ويؤكد هذه الحقيقة قوله تعالى { والشمس تجري

---

(١) أنظر (القرآن وإعجازه العلمي) لمحمد إسماعيل إبراهيم / ص ١٤٧ .

لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون} [يس : ٣٨ ، ٤٠] .

" كان المعتقد قديماً أن الشمس ثابتة ، فجاء بعض علماء المسيحيين وقالوا إن الشمس تتحرك ، وحكمت عليهم الكنيسة بالإعدام لأن كلامهم كفر في نظر الكنيسة ، وتقدمت الأجيال ، وآخر ما توصل إليه العلم الحديث أن الشمس تجري بحركة دورية لولبية " (١) .

يقول الدكتور منصور محمد حسب النبي عن آية يس في جريان الشمس :

" هذه الآية الكريمة تمثل إعجازاً علمياً رائعاً للقرآن ، فالفعل (تجري) ينطبق في أعين الناس والمفسرين الذين لم يعيشوا عصر العلم على حركة الشمس الظاهرية اليومية من المشرق إلى المغرب ، ولكن الحقيقة أن الفعل (تجري) يعبر عن حركة واقعية أثبتها العلم الحديث للشمس التي اتضح أنها تنتقل في الفضاء وتجر معها بالجاذبية كواكبها التي تدور حولها ، والفعل يدل ليس فقط على حركة إنتقالية ذاتية للشمس ولكن يدل أيضاً على عظم تلك الحركة لأن الجري طبعاً يدل على السرعة في المشي أو السير .

ولقد تمكن العلماء من تحديد سرعة هذه الحركة للشمس ومعها النظام الشمسي بحوالي تسعة عشر كيلو متراً في الثانية في الفضاء الكوني ، نحو نقطة في كوكبة هرقل مجاورة لنجم يدعى (فيجا) في الافرنجية (والنسر الواقع) في العربية . وهذه النقطة تدعى علمياً مستقر الشمس ، وهكذا يثبت علمياً باستخدام

---

(١) القرآن والعلوم / سعيد ناصر الدهان / ص ٩٢ .

أحدث آلات الرصد ومقاييس الطيف بأن للشمس جرياً حقيقياً في الفضاء محدد المقدار والاتجاه، مما يثبت بالدليل القاطع أن القرآن الكريم من عند الله وأن محمداً رسول الله ، إذ كيف يتسنى لمحمد النبي الأمي أن يأتي بكل هذه الحقائق ، وهو مجرد من كل وسائل العلم ، ومنذ أربعة عشر قرناً من الزمان ، إلا إذا كان القرآن وحياً من الله سبحانه وتعالى خالق الشمس " (١) .

ومما ينفي مقصود الآية بجريان الشمس تلك الحركة الظاهرية التي نراها قوله تعالى { والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها } [الشمس : ١ - ٤] .

" ويتلخص معنى الآيات في أن النهار هو الذي يظهر الشمس ، وأن الليل هو الذي يخفيها ، فأي دقة في التعبير أكثر إحكاماً من هذه ؟ فما هو ثابت أن حركة الشمس اليومية من الشرق إلى الغرب إنما هو حركة ظاهرية سببها دوران الأرض لا تحرك الشمس ، فالشمس بالنسبة لنا ثابتة لا تتحرك ، إذ هي لا تدور حول الأرض وبذلك فإن الليل والنهار لا ينتجان من دورانها حولنا حسب ما كان القدماء يعتقدون ، وإنما دوران الأرض حول نفسها هو الذي ينتج عنه أن يتعرض إحدى نصفيها لضوء الشمس فيصير نهاراً ، ويبتعد النصف الآخر عن مدى الضوء فيصير ليلاً ، فدوران الأرض إذن هو الذي يظهر الشمس فيكون النهار ، وهو الذي يخفيها فيكون الليل ، وهذا هو نص القرآن ، فلو كان من عند بشر كما يدّعون لقال إن الشمس هي التي تسبب النهار بظهورها لا أن النهار هو الذي يظهرها ، ولقال إنها

---

(١) (الكون والإعجاز العلمي للقرآن) ص ١١٩ . وهذا كلام مأخوذ باختصار وتصرف من الإسلام في عصر العلم للغمراوي / ص ٢٧٨ .

تختفي فتسبب الليل لا أن الليل هو الذي يخفيها " [1] .

ويقول سبحانه { والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم }

" لابد أن ينزل القمر منازل مختلفة من أن ينتقل من مكان لآخر وبذلك فالقرآن يعلل أوجه القمر بأن سببها هو انتقال القمر في أمكنة مختلفة بالنسبة للأرض ، وهو في انتقاله يتغير مظهره ، فيزيد حتى يصير بدراً ، ثم يعود فيتناقص تدريجياً حتى إذا كان في آخر منازله دق واستقوس وصار هلالاً ، وهذا يطابق ما وصل إليه العلم أخيراً ، وهو أن سبب ظهور القمر بأوجه مختلفة هو دورانه حول الأرض مع مواجهته لها بوجه واحد " [2] .

(٨) وعن الجبال يقول سبحانه وتعالى { والجبال أوتادا } [النبأ : ٧]

يقول الغمراوي " الجبال فيما يتبادر إلى الذهن تشبه الأوتاد من ناحية البروز عن سطح الأرض ، ومن ناحية الرسوخ فيها ، لكن التشابه والتناظر بينهما أشمل وأدق من هنا ، فالأوتاد تختلف من ناحية البروز في مداه وفي درجات الميل ، والجبال تختلف في الإرتفاعات وفي درجات الميل كذلك . والأوتاد يختلف رسوخها باختلاف صلابتها وشكلها ومدى ذهابها في الأرض وطبيعة تلك الأرض ، وكذلك تختلف الجبال من ناحية الرسوخ في ذلك ... لكن هناك عوامل في اتخاذ الأوتاد تدل بذلك التشبيه البليغ على نظائر لها في نشأة الجبال لم تكن تخطر ببال إنسان عند نزول القرآن ، فالأوتاد لابد في إنشائها من تشكيلها ثم من تثبيتها في الأرض بقوة ما ، وإذن فجعل الجبال أوتاداً ، فيما أنبأ الله في كتابه ، من شأنه أن يقتضي

---

(١) القرآن والعلم : أحمد محمود سليمان / ص ٣٤ .

(٢) القرآن والعلم / أحمد محمود سليمان / ص ٣٠ .

أن تكون الجبال قد أنشئت بفعل قوة أخرى ، وهذا وحده حقيقة علمية حديثة دل عليها القرآن عن طريق ذلك التشبيه البليغ .

إن أهم أنواع الجبال وأعظمها من غير شك سلاسلها ، وسلاسل الجبال عند علماء طبقات الأرض ، قد نشأت نتيجة لقوى عظيمة عملت جانبيا في القشرة الأرضية لما هبطت بثقلها ، حين خلا ما تحتها بانقباض باطن الأرض وإنكماشه لما برد بالتدريج في الأحقاب الطويلة ، وشبهوا ذلك بتضغن جلد التفاحة لما ينقبض باطنها وينكمش تدريجياً بالجفاف البطيء ، تلك القوى الهائلة لها نظائر على قدر عند دق الأوتاد ، فالدق من أعلى لأسفل يناظر فعل التثاقل عند هبوط قشرة الأرض ، والضغوط الجانبية على التربة من حوالي الوتد عند دقه تناظر تلك القوى الجانبية العاملة في القشرة الأرضية على خطوط الضعف فيها ، حتى تتموج إلى نجاد هي الجبال والهضاب ، ووهاد منها الوديان ، أليس هذا التشابه والتناظر بين القوى بعجيب ؟ .

وفي علم طبقات الأرض أن ما يسمى بعوامل التعرية - من نحو الرياح والأمطار والتمدد بحرارة الشمس والتقبض بالبرودات المختلفة حتى تتفتت بتعاقبها المستمر على طبقات الصخر طبقة بعد طبقة ، وتأتي الرياح السافية والأمطار الجارفة فتزيل ما تفتت ، ويتجدد ذلك هكذا دواليك حتى قد يتضاءل به نسبياً في نهاية الجبل الأشم ، فيدل تضاؤله على أنه في العمر أسن وأقدم من مثله المحتفظ بشموخه - هذه العوامل تعمل في انتقاص الجبال في الوقت الذي تنشأ فيه أخرى بفعل تلك القوى . وما نراه اليوم من الجبال هو حاصل تنافس قوى هذين النوعين ، فحتى تناقص الجبال بفعل قوى التعرية هذه له نظير في تآكل الأوتاد بنفس العوامل وغيرها في الزمن المتطاول ، إذ المقارنة والمشابهة ينبغي أن تكون بين الجبال وبين ما يترك من الأوتاد قائماً غير منزوع .

ويذكر الدكتور الغمراوي أن في الآية ناحية أخرى وهي ناحية الدلالة على حكمته سبحانه متمثلة في وظيفة الجبال المناظرة لوظيفة الأوتاد عند الناس ، ويذكر أن هذه تقتضي شيئاً فوق الأرض يعلو سطحها ويمسه في أطرافها كما يكون من الخيمة وتكون الجبال معينة على ثبيته فما هو هذا الشيء يقول :

" الشيء الذي فوق الأرض يعلو الناس ويعمل عمله في وقايتهم كما تعلو الخيمة أهلها وتقيهم أشعة الشمس والمطر ، وهو الغلاف الهوائي الذي يحيط بالأرض من جميع الجهات ، ويرتفع فوق سطح الأرض مئات الكيلو مترات ويكفي الناس على الأقل شر الشهب ، وشر القدر المؤذي من أشعة الشمس البنفسجية وفوق البنفسجية وهذا كاف في تحقيق الشبه الكبير في الوضع والمنفعة بينه وبين خيام لاعداد لها تغطي وجه الأرض ، فالله سبحانه يلفتنا بآية النبأ إلى أن الجبال تعمل في الإحتفاظ بتلك الخيمة الجوية الهائلة عمل الأوتاد ، أما الذي يعمل عمل العماد متمماً عمل الجبال ، أو الجبال متممة عمله ، فهو قوة الجاذبية بين الأرض وجملة الهواء . - العماد لم يرد لها ذكر في الآية ولكن الآية تفيدها عن طريق اللزوم إذ لا تقوم الخيام بالأوتاد إلا مع العماد ، وهذا مثل عجيب للإكتفاء البلاغي في القرآن ، ثم هو مثل أعجب للإشارة إلى حقيقة كونية كبرى حقيقة التجاذب بين الأرض والطبقة الهوائية ذات الكتلة الهائلة - ذلك التجاذب العمودي الاتجاه على سطح الأرض بالضبط كاتجاه العماد .

وقوة الجاذبية هذه ينسب العلماء إليها سر احتفاظ الأرض بهوائها الجوي ولا يزيدون ، ولكن خالق الأرض والهواء يشير إلى القوة التي عرفها العلماء تلك الإشارة اللزومية العجيبة في آية النبأ ويزيد عباده علما بعامل ثان يجهلونه يتمم عم الجاذبية التي يعرفونها ، وهذا معناه أو هذا مقتضاه حقيقة أخرى غير معروفة . إن جاذبية الأرض وحدها غير كافية لاحتفاظ الأرض بهوائها ، فهاتان حقيقتان

قرآنيتان لم يكشفهما علماء الفلك والطبيعة إلى اليوم وعلى مسلميهم المؤمنين بالقرآن البحث عنه علمياً حتى ينكشفا ويثبتا ، فينكشف بهما ويثبت للعالم الإسلامي وغير الإسلامي معجزتان كونيتان جديدتان للقرآن " (1).

(9) أما عن باطن الأرض وما فيها من مياه فقد ذكر القرآن تلك المياه المستترة ، قال تعالى { ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه } [الزمر : 21] .

فهذه الآية تفسر لنا بأجلى المعاني المياه الأرضية التي تغور في القشرة ، فهي تجري في مسالك تحت غطاء من القشرة الأرضية ، وتزداد عليها الضغوط حتى تتمكن من الخروج على هيئة ينابيع دافقة بين الصخور ، قال تعالى {... وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ...} [البقرة:74] .

وإذا تفهمنا مسالك المياه الأرضية ، وعرفنا كنهها ، لأصبحت موارد لا يستهان بها لمياه الشرب والري ، لتنتج لنا زرعاً مختلفاً ألوانه ، يسقى بماء واحد وتختلف في الأكل ، فسبحان ربّي رب العزة وسع كل شيء علماً (2) .

البرازخ المائية :

(10) وآخر النماذج التي نذكرها من نماذج التقسيم العلمي ، ما فسر به قول الله تعالى { مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان } [الرحمن :19-20]

---

(1) الإسلام وعصر العلم / ص 331 - 335 .

(2) اعجاز القرآن في علم طبقات الأرض - محمد محمود إبراهيم / ص 18 - 19 .

قال الزمخشري: " مرج البحرين " أرسل البحر المالح والبحر العذب متجاورين متلاقيين ، لا يفصل بين الماءين في مرأى العين ، (بينهما برزخ) حاجز من قدرة الله تعالى " لا يبغيان " لا يتجاوزان حديهما ولا يبغي أحدهما على الآخر بالممازجة[1] والذي قاله لم يخرج عنه المفسرون القدامى .

ولكن الأستاذ العابري - رحمه الله - بعد أن ذكر أقوال المفسرين في الآية ، وشرح ما أثبته التحليل العلمي عن المحيطات والمضائق والبرازخ المائية قال[2].

وعلى ضوء التحليل العلمي الحديث الذي سبق تلخيصه ، نعود إلى تدبر الآية الكريمة فيظهر لنا مفهومها منسجماً مع الحقائق المتوصل إليها ، في برزخي مضيق باب المندب ، ومضيق هرمز ، أكثر من البرازخ المائية الأخرى وذلك لأمرين :

الأول : أن الآية التي عقبت الآية المذكورة مباشرة ، وهي يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان " تدلنا على تحديد الموضع ، إذ يكثر اللؤلؤ والمرجان بدرجة هائلة في البحر الأحمر وخليج البصرة ، وخليج عمان من المحيط الهندي ، حيث تعيش الحيوانات المرجانية واللؤلؤية في المياه الحارة ، بينما ينعدمان تقريباً حوالي مضيق طارق ، ومضيق البسفور والدردنيل ، حيث المناطق المعتدلة التي لا تعيش فيها تلك الحيوانات .

الثاني : أن الآيات القرآنية التي جاءت بأحداث تاريخية أو ظواهر طبيعية ، هي التي وقعت في الجزيرة العربية أو حواليها غالباً ، وذلك للفت أنظار المخاطبين بالقرآن عند أول نزوله ، وهم العرب المجاورون لسواحل البحر الأحمر وخليج البصرة

---

(١) الكشاف (٤/٤٤٥) .

(٢) بصائر جغرافية / ص ١٧٥ .

من المحيط الهندي ، وإثارة الرغبة الشديدة للتعمق في معاني الآيات التي تنطوي عليها الألفاظ ، والوصول إلى حقيقة الغرض منها ، فإذا تفكر المتأمل المتدبر في قوله تعالى { مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان } يتجه تفكيره حتماً إلى إزاحة النقاب عن المفهوم المتضارب من التقاء البحرين واختلاطهما ، ثم وجود برزخ بينهما ، فلا يتجاوز أحدهما الآخر .

وبعد أن يستنير بالمعلومات التي توصلت إليها الأبحاث العلمية على الحياة المائية المتولدة في البحرين الملتقيين بواسطة البرزخ المائي ، مثل " باب المندب " يتضح له أن تلك الحياة قد انفصلت في البحر الأحمر عن الهندي ، بوجود ذلك البرزخ الذي كان حاجزاً بسطحه إلى عمق (٢٠٠ متر) ، فتغيرت الحياة في كل منهما فلا يتماثلان ، ولا يبغي أحدهما بمواليده وأملاحه وتياراته وحرارته على الآخر بما يسايره في تلك النواحي ، فيتجلى مفهوم الآية بنور التدقيق والبحث العلمي الصحيح .

ولكن الأستاذ عبد المجيد الزنداني يذهب في تفسير الآية الكريمة تفسيراً آخر يقول:

" في سنة ١٨٧٣ م ، أدركت (الأكاديمية العلمية البحرية) في بريطانيا أن معلوماتها عن البحار قليلة ، فبعثوا سفينة للكشوف العلمية البحرية مزودة بالأجهزة الدقيقة ، ومعها الخبراء ، وقضت هذه السفينة واسمها (تشالنجر) ثلاث سنوات في البحار والمحيطات ، فجاءت بوفرة كبيرة من المعلومات ، وجدوا أن البحار المالحة (المحيطات) ، المحيط الواحد نفسه ، تختلف فيه المياه عن بعضها في الحرارة والكثافة والملوحة والأحياء المائية وقابلية الذوبان للأكسجين ، إنها تلتقي في مكان واحد ، ولكنها تختلف في الخصائص والصفات .

فمثلاً البحر الأحمر يختلف في خصائصه عن المحيط الهندي ، وكانت هذه من أعجب الحقائق التي عرفت .

ثم تجدد البحث عام ١٩٦٢م حيث جاءت بعثة أوروبية إلى باب المندب لتدرس السر الذي يجعل البحار رغم التقائها متمايزة ، على الرغم من وجود ظاهرة المد والجزر ، وهذا من شأنه أن يمزج بين البحار ، ويجعلها متجانسة ، متحدة في الحرارة والكثافة والملوحة ... الخ ، واستعملت هذه البعثة الأوروبية سفينة كالتي سبقت ، قالوا : هذا البحر أزرق ، ومن الجهة الأخرى نفس البحر ، فكانوا إذا أنزلوا أجهزتهم من هذه الجهة دلتهم على أن هذا البحر الأحمر ، وإذا أنزلوا أجهزتهم من الجهة الأخرى دلتهم على أن هذا هو المحيط الهندي ، تحركوا من الشاطيء إلى الشاطيء وجدوا نفس النتيجة ، أنزلوا الأجهزة إلى أعماق معينة فوجدوا نفس النتيجة ، تحركت السفينة وزحزحت من مكانها لتدرس هذا الحد ، ما طبيعته فوجدوه ماءً ثالثاً ، يختلف في حرارته وكثافته وملوحته عن كلٍّ من الماءين في البحرين .

قلّبوا كتب علم البحار ستجدونهم يتحدثون عن هذا الماء الثالث باسم (فرنت) جبهة لقاء بين كتلتين مائيتين يمثلونه باللقاء بين جيشين بينهما منطقة فاصلة وحد فاصل ، وكم كانت دهشة الكابتن (جاكستو) وهو من أشهر علماء البحار الفرنسيين وهو يتكلم عن هذه الحقيقة التي أسفر عنها البحث ، فقال له أحد سامعيه لستم أول من عرف هذا ، لقد ذكر القرآن هذا قبل ألف وأربعمائة عام ، قال إن كان هذا قد ذكر في القرآن فأشهد أن محمداً رسول الله .

ونكتفي بهذه النماذج ، فليس غرضنا أن نستقصي كل ما في كتاب الله تبارك وتعالى ، فلقد ألفت في ذلك كتب كثيرة وللعلماء مقالات وموضوعات في كثير من المجلات العلمية . ونكرر هنا ما قلناه من قبل وهو وجوب التفرقة بين الحقائق العلمية والنظريات ، ودعوى أنه ليس في العلم حقائق ثابتة ما نخالها دعوى مبنية على أسس ثابتة صحيحة ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الفصل الثالث
الإعجاز التشريعي

ونتحدث فيه عن :

الإعجاز التشريعي لا ينفصل عن الإعجاز البياني

تشريعات الرومان وقصورها .

كيف نفهم الإعجاز التشريعي .

جوانب التشريعات القرآنية .

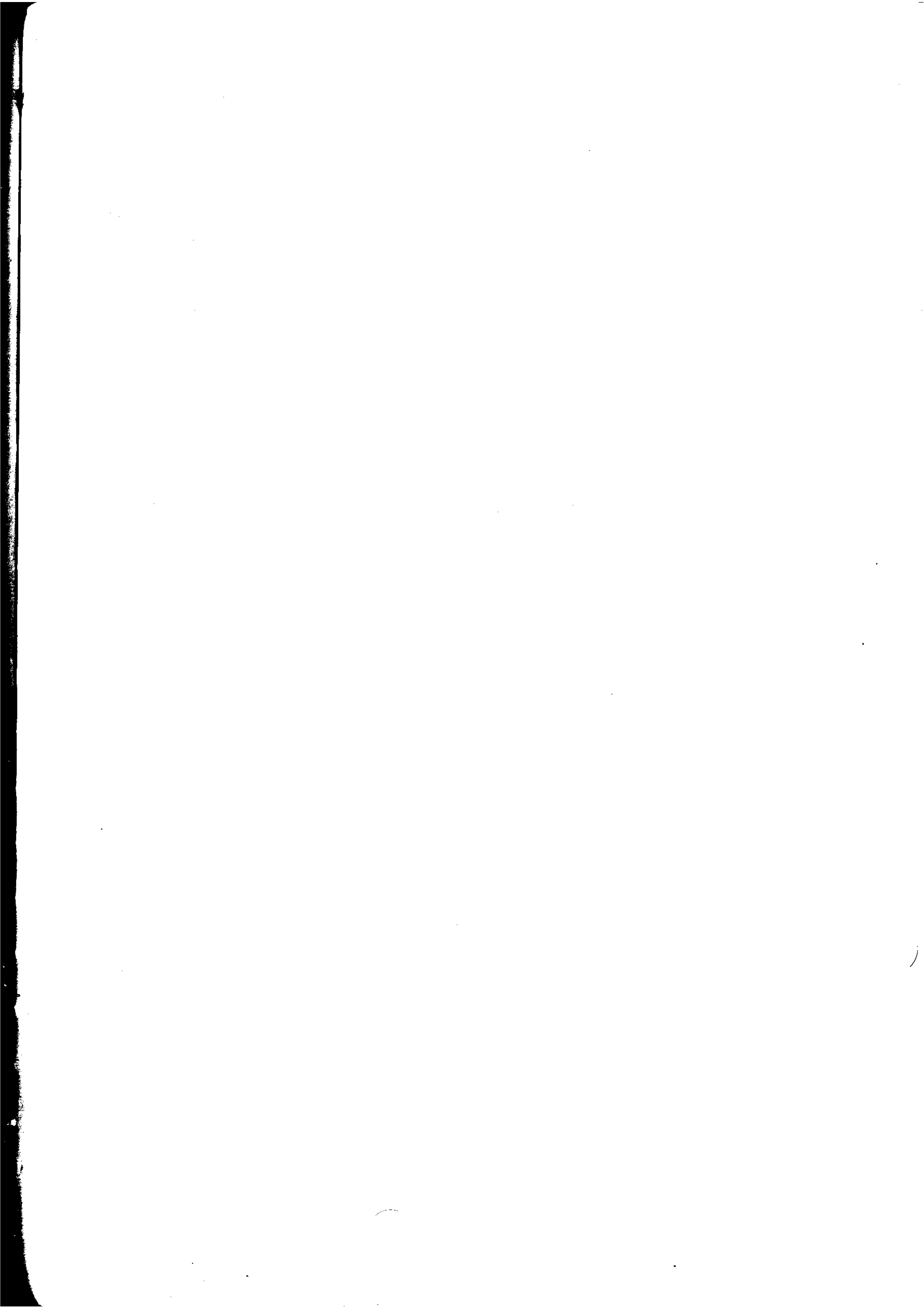
نماذج من تشريعات القرآن مقارنة مع غيرها .

الأول : الزكاة .

الثاني : الرق .

الثالث : الميراث : الميراث في الشريعة الإسلامية مقارنة مع تشريع الميراث في الجاهلية وعند اليونان والرومان .

الرابع : الطلاق .



الفصل الثالث

الإعجاز التشريعي

القرآن كتاب الله تبارك وتعالى الذي أنزله على نبيه عليه وآله الصلاة والسلام ، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وليهديهم صراطاً مستقيماً ، وصدق الله « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » ، ومعنى هذه الآية الكريمة أن هداية القرآن هي أعظم الهدايات وهذا ما يفهم من قوله سبحانه « للتي هي أقوم » وتظهر هذه الهداية في أحكام القرآن وقيمه الخلقية ، وقواعده التربوية ، ونظمه التشريعية.

والحق أن بيان القرآن وتشريعاته لا ينفصل بعضهما عن بعض ، وإذا عرفنا أن القرآن معجزة بيانية ، فيجب أن نعلم أنه معجزة تشريعية كذلك .

وقد اقتضت حكمة الله ومشيئته – وقد أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله – أن ينزل هذا القرآن الكريم ، وقد بلغت اللغة العربية غاية في نموها وتهذيبها ، سعةً وإحكاماً ودقة وضع ، وبلغ العرب الناطقون بها مبلغاً في المهارات اللغوية فطنة ورقة طبع ، وذلك من أجل أن يكون القرآن الكريم معجزة لغوية يتحدى فحول الفصحاء ، وجهابذة البلغاء .

واقتضت مشيئة الله وحكمته كذلك أن ينزل القرآن الكريم ، وقد مر على القانون الروماني ، الذي كان مرجع البلاد المتمدينة وقد بلغ من الإصلاح والتهذيب ، فكان نتيجة إصلاحات لكبار الفلاسفة ورجال العلم والقانون والاجتماع مدة ثلاثة عشر قرناً ، إبتداءً من سنة سبعمائة وأربعة وأربعين قبل الميلاد إلى سنة خمسمائة وثلاث وثلاثين ميلادية في عهد (جوستنيان) ، فكان القرآن كذلك معجزة تشريعية يتحدى القوانين والمقننين ، والفلسفة والفلاسفة ، كما تحدى اللغويين .

كيف نفهم الإعجاز التشريعي للقرآن :

والمتحدث عن الإعجاز التشريعي جدير به أن يقف أولاً مع تشريعات القرآن الكريم في شتى مناحي الحياة ومختلف جهاتها ، وقد يجد نفسه مضطراً إلى الإلمام بما جاء في السنة المطهرة من تشريعات ، فإن القرآن الكريم كثيراً ما تذكر فيه الأحكام مجملة ، فتأتي السنة لتشرح هذه القواعد وتفصل ذلك الإجمال ، فالسنة -إذن - ليست أجنبية عن القرآن ، بل هي شارحة مبينة .

وجدير به ثانياً أن يدرس ما وصل إليه العقل البشري من قوانين وأنظمة في مناحي الحياة المختلفة ، وجوانبها المتعددة .

وجدير به ثالثاً أن يعقد موازنات منصفة بين التشريعات القرانية ، التي جاء بها سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- النبي الأمي في بلد لم تكن فيه معاهد ومدارس وفي أمة لم تنعم بما نعمت به الأمم الكثيرة من أنواع المعارف .

وسيجد أي باحث منصف، البون الشاسع بين تشريعات القرآن الكريم من حيث سموها وشمولها ، وما فيها من نظرة إنسانية ، وخلو من السلبيات والثغرات والمآخذ، أقول سيجد فرقاً بين تشريعات القرآن الكريم وبين غيره من القوانين التي بُذلت في تنقيحها طاقات ، وعملت أفكار وعقول . ولسنا نحيف على هذه القوانين، فنجردها من كل خير ، ولكننا - ونحن لا نبخس الناس أشياءهم - سنجدها غير بالغة من حيث مقرراتها ومضامينها ما بلغه كتاب الله ، لا وهي قريبة منه في كثير من الشؤون والأحكام . ولا نتعجل الحكم ، وسندعك أيها القارئ تستنتج بفكرك ، وتخلص بفطرتك إلى سمو التشريعات القرآنية ، لتدرك أن شريعة القرآن برهان صدق ودليل حق على أنه من عند الله .

يقول الشيخ محمد أبو زهرة : ومن أجل أن نتبين قيمة ذلك الشرع في ذاته،

وطر الناس يجدر بنا أن نرجع إلى الماضي السحيق ونتطلع إلى المستقبل البعيد.

أما في الماضي فنجد أن الشرع الذي اقترن بظهور محمد الرسول الأمين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم هو قانون الرومان، فقد كان الشرع المسيطر في التطبيقات العملية والقضائية في الشام ومصر وغيرها من البلدان التي تعاقبت البلاد العربية، وتحيط بها من الغرب والشمال، ويقول علماء القانون اليوم إنه من أكمل الشرائع التي تفتق عنها العقل البشري، ولا زال يعتبر أصلاً لكثير من الشرائع القائمة انفرعت وقامت على دعائمه.

وإن من يريد أن يعرف منزلة الشريعة الإسلامية، وأنها في درجة فوق مستوى العقل البشري فليوازن بينها وبين ذلك القانون الروماني، لأن قانون الرومان قد استوى على سوقه، وبلغ نهاية كماله في عهد جوستنيان سنة ٥٣٣ بعد ميلاد المسيح عليه السلام، وهو في هذا الوقت كان صفوة القوانين السابقة، وفيه علاج لعيوبها، وسد لخللها من يوم أن أنشئت روما سنة ٧٤٤ قبل الميلاد إلى سنة ٥٣٣ بعده، أي أنه ثمرة تجارب قانونية لنحو ثلاثة عشر قرناً ظهرت منها الفلسفة اليونانية، وبلغت أوجها، وقد استعانوا في تلك التجارب القانونية بقوانين (سولون) لأثينا، وقوانين (ليكورغ) لإسبارطة، والنظم اليونانية عامة، والمناهج النظامية والفلسفية التي فكر فيها الفلاسفة اليونان لبيان أمثل النظم التي يقوم عليها المجتمع الفاضل، كالذي جاء في كتاب القانون وكتاب الجمهورية لأفلاطون وكتاب السياسة لأرسطو وغيرها من ثمرات عقول الفلاسفة، والعلماء في عهد اليونان والرومان.

وإن شئت فقل إن القانون الروماني هو خلاصة ما وصل إليه العقل البشري في مدى ثلاثة عشر قرناً في تنظيم الحقوق والواجبات، فإذا وازنا بينه وبين ما جاء على لسان محمد النبي الأمي، وأنتجت الموازنة أن العدل فيما قاله محمد، وما

استنبط الفقهاء من بعده ، يكون من الحق علينا أن نقول إن أساس شريعة الإسلام ليس من صنع بشر ، بل من صنع العليم الحكيم اللطيف الخبير سبحانه »[1].

« إن ما اشتمل عليه القرآن من أحكام تتعلق بتنظيم المجتمع وإقامة العلاقات بين آحاده على دعائم من المودة والرحمة والعدالة ، لم يسبق به في شريعة من الشرائع الأرضية ، وإذا وازنا بين ما جاء في القرآن ، وبين ما جاءت به قوانين اليونان والرومان وما قام به الإصلاحيون للقوانين والنظم بما جاء في القرآن وجدنا أن الموازنة فيها خروج عن التقدير المنطقي للأمور .... فجاء محمد -صلى الله عليه وسلم- ومعه القرآن الذي ينطق بالحق عن الله سبحانه وتعالى من غير درس درسه، وكان في بلد أمي ليس فيه معهد ولا جامعة ولا مكان للتدارس ، وأتى بنظام للعلاقات الاجتماعية والتنظيم الإنساني ، لم يسبقه سابق ولم يلحق به لاحق »[2]

ذلكم أن أول ما نلحظه ونلمحه في التشريعات البشرية ، أنها تشريعات محددة يلائم كل منها البيئة التي وضع فيها ، والمجتمع الذي وضع له مع كثير من الثغرات والسلبيات ، ولكن القرآن الكريم أراده الله للناس جميعاً ، صدق الله [قل أي شيء أكبر شهادة ، قل الله شهيد بيني وبينكم ، وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ] [الأنعام : ١٩] .

« إن تعاليم القرآن موجهة للعالم بأسره ، فهي للناس في شتى أرجاء العالم كافة بغض النظر عن أصلهم ، أنزلت إليهم لتدخل السرور والبهجة في قلوبهم وتطهر نفوسهم وتهذب أخلاقهم ، وتوجه مجتمعهم وتستبدل سطوة القوي بالعدل

---

(١) شريعة القرآن ، دليل على أنه من عند الله ، مجلة المسلمون ، العدد الأول / السنة الأولى ص٣ .

(٢) المعجزة الكبرى ، ص ٣٨٥ .

والأخوة ، وقد أكد الله عز وجل أن في القرآن حلولاً لجميع قضايا البشر « وأنزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء ، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » [النحل :٨٩]

يعالج القرآن - قبل كل شيء - الحق الأسمى والفضيلة ، وكل ما تبقى من محتوياته ونصوصه - كمعرفة الروح وعلوم طبيعة السماوات والأرض والتاريخ ، والنبوة ، والنذر ، وما شابه ذلك - ليست سوى رسائل لتقوية القرآن وإعطائها وزناً أكبر وإقناعاً أشد . لقد أشار الغزالي - الفيلسوف الديني الكبير المتوفى عام ٥٠٥هـ في كتابه (جواهر القرآن) إلى أن ٧٦٣ آية تبحث في المعرفة (٧٤١)آية في الهداية للفضيلة ، وهذه الألف وخمسمائة وأربع آيات تمثل - في نظره - أثمن ما في الكتاب ، وما تبقى - وهي (٥١٢) آية - بمثابة المظروف أو الصدفة التي تغلف تلك الجواهر (أي التعاليم) »[1] .

«ولهذا السبب فالقرآن له أعلى حظوة لدى المسلمين ، وهو ليس مجرد كتاب صلوات أو أدعية نبوية ، أو غذاء للروح ، أو تسابيح روحانية فحسب،بل إنه أيضاً القانون السياسي وكنز العلوم ، ومرآة الأجيال ، إنه سلوى الحاضر وأمل المستقبل »[2] .

جوانب التشريعات القرآنية :

والتشريعات القرآنية متعددة الجوانب - كما قلنا من قبل - منها :- ما اصطلح على تسميته بالعبادات وهي الطهارة والصلاة والزكاة والحج .

ومنها المعاملات : كالبيوع ، والإجارة ، وهي ما تعرف بالقانون المدني .

ومنها الأحوال الشخصية ، ومنها التشريعات التي تتصل بالعقوبات وهي ما تعرف بالقانون الجنائي ، ومنها ما يعرف بالسير وهي التي تسمى في لغة القانون

---

(١) دراسات إسلامية ، د. محمد عبد الله دراز ، ص ١٨ .

(٢) دراسات إسلامية ، ص ٣١ .

العلاقات الدولية .. إلى غير ذلك من تشريعات .

ولقد كان للقرآن الكريم السبق في تلك التشريعات . والمتأمل في أي جانب من هذه الجوانب وهو يقارن ويوازن بينها وبين شبيهاتها من القوانين ، فسيدرك دون صعوبة أحقية التشريعات القرآنية وجدارتها بتبوء المكانة العليا ، وصدق الله «وبالحق أنزلناه وبالحق نزل »[الاسراء:١٠٥] ومعنى قوله « وبالحق أنزلناه » أي أن القرآن هو حقاً من عند الله « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً» [النساء:٨٢] ومعنى قوله « وبالحق نزل » أي أن كل ما في القرآن من حقائق وتشريعات وأخبار حق لا يتطرق إليه باطل ، وهو في أعلى رتب الحق لا يُجارى في قضاياه ، ولا يدانيه كتاب آخر في أحكامه { وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يدي ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد } [فصلت : ٤٢] .

وخذ أي قاعدة من القواعد التشريعية ، وأي باب من أبواب الفقه القرآني ، لتجد مصداقية أسبقية القرآن وسمو تشريعاته ، ولن نستطيع أن تقف بك على كل ما جاء في هذا الكتاب العظيم ، إنما سنختار لك موضوعات من مجالات متعددة ، نختار نماذج من هذه التشريعات ، ولنبدأ بشيء مما أصطلح عليه بالعبادات .

أولاً : الزكاة :-

العبادات في الإسلام ليست عبادات مجردة من روح الحياة ، بعيدة عن روح الجماعة، ليست قضايا فردية يشبع الإنسان فيها رغبته الروحية فحسب ، إنما هي وسائل إصلاح ، ودعائم خير ، تسمو بها الروح ، وتصلح بها النفس ، وينمو بها الفكر ، ويقوّم الإنسان بعناصره كلها ، ثم هي بعد ذلك تنتظم ما يصلح الفرد وما ينهض بالجماعة على السواء .

إن العبادات في الإسلام لا تركز على جانب واحد ، بل هي تجمع إلى الجانب

الروحي والنفسي ، الجانب الجماعي والاجتماعي والجانب الخلقي ، ولا أدل على ذلك من أن نتدبر هذه الآيات الكريمة ، قال تعالى في شأن الصلاة :{ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر } [العنكبوت :٤٥] ، ويقول في شأن الزكاة { خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها } [التوبة:١٠٣] ويقول في شأن الصوم { كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون } [البقرة :١٨٣]ويقول في شأن الحج { الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج ، فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج } [البقرة : ١٩٧] ويقول « ليشهدوا منافع لهم» [الحج : ٢٨].

والدارس لكل عبادة من هذه العبادات سيدهش لهذه التشريعات الدقيقة إعجاباً وإكباراً ، فالذي يخطيء في شي منها عليه أن يجبر هذا الخطأ ، ولكن بماذا؟ يجبره بما يعود على المجتمع بالخير من تفريج لمكروب ، وإعانه للمهوف ، ومساعدة لبائس ، يقو ل الله في شأن ذبائح الحج { فكلوا منها وأطعموا البائس والفقير } [الحج :٢٨] ومن أخطأ في بعض قضايا الحج ، وكذلك من استفاد من التمتع بين العمرة والحج ، أو جمع بينهما - أي العمرة والحج - وجب عليه أن يجبر هذا بما يعود على المجتمع بالنفع ، قال تعالى { وأتموا الحج والعمرة لله فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي ، ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله ، فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ، ففدية من صيام أو صدقة أو نسك فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى } [البقرة : ١٩٦] .

وهكذا في الصيام { وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين } [البقرة:١٨٤] وهكذا نجد العبادات في الإسلام لم تكن خيراً لصاحبها فحسب ، بل للمجتمع كله ، وسنختار لك واحدة من هذه العبادات لنرى الإعجاز التشريعي فيها ، وليقاس عليها غيرها بعد ذلك ، وهذه العبادة التي نختارها الزكاة .

فمن المعلوم أن الزكاة أحد أركان الإسلام ، وهي واجبة في المال بمقادير

مختلفة ، والمتأمل لهذه المقادير التي بينتها السنة المطهرة ، سيلمس هذا الإعجاز التشريعي ، ولا يقال : إننا نتحدث عن إعجاز القرآن ، فأي شأن للسنة في هذا ؟ ولقد أجبت عن هذا من قبل ، وهي أن السنة ليست أجنبية عن القرآن ، بل هي مبينة ومفصلة له .

والزكاة هي: النماء والطهر والبركة .والناس يعبرون عن الشيء الطيب بأنه زاك ، قال تعالى{فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما} [الكهف : ١٩] ، وقال { خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها } [التوبة:١٠٣] .والزكاة في الشرع إنما هي مال مخصوص ، يؤخذ بشروط مخصوصة ، لأناس مخصوصين .

والناظر للتشريع في شأن الزكاة لا يتردد قيد أنملة ، ولا لمحة بصر ، بأن هذا الدين إنما هو دين الله ، لأن البشر لا يستطيعون أن يصلوا إلى حكمه وأحكامه .

وأول ما يقابلك في هذا التشريع في شأن الزكاة : هذا التوازن ، وتلك الوسطية ، حتى لا يبغي أحد على أحد ، ولا يحقد أحد على أحد ، لا يبغي غني على فقير ، ولا يحقد فقير على غني .

نظر وتأمل :

إن الناظر في مقدار الزكاة الواجبة يجده يتردد بين النسب الآتية : فهو ربع العشر تارة ، ونصف العشر تارة ، والعشر حيناً آخر ؛ على اختلاف في الأشياء التي تُخرج منها الزكاة ، وتقل النسبة عن ربع العشر ؛ كما نجده في زكاة بعض الأموال .

ولكن نسبة الزكاة لا تزيد عن العشر ، اللهم إلا في شيء واحد على قلته وندرته ، وهو الركاز ، والركاز : هو ما دفن من أموال الجاهلية أو غيرهم من غير المسلمين ، فأظهر الله بعض الناس عليه ، وهو ما يُعرف عند الناس بالكنز ، فهذا

يزكى ، ونسبة الزكاة فيه الخمس ؛ لأنه رزق جاء لمسلم من حيث لا يحتسب ، ولكن جميع الأموال التي تدخلها الزكاة تتراوح نسبتها وتتردد بين العشر وربع العشر .

وهذه النسبة روعيت فيها الدقة المتناهية المنبعثة من الحكمة التي لا يعلمها إلا أحكم الحاكمين ، ولنبين بإيجاز بعض ما في هذه الحكمة من روعة وسمو .

١- في الذهب والفضة وما يلتحق بهما من النقود ، وما تستعمل فيه هذه النقود من تجارة على اختلافها ، في هذا كله ربع العشر (٢ر٥ ٪) ، وذلك أن النفس قد جُبلت على حب الذهب والفضة وما يتصل بهما ، وهي شحيحة على ذلك، وصدق الله { وأحضرت الأنفس الشح } [النساء : ١٢٨] ؛ ولذلك لم تكن مبالغة في نسبة الزكاة ، هذا من جهة . ومن جهة ثانية ، فإن الإنسان يبذل جُهداً ، ويلقى جَهداً [1] في تحصيل هذه الأموال ، سواء كانت الطريقة لتحصيلها التجارة ، أم العمل الفكري ، أم العمل اليدوي ؛ لذلك كانت الزكاة ربع العشر ، في أربعين درهماً درهم واحد .

٢- أما نسبة نصف العشر ، فهي في المزروعات والغلة التي تنتجها الأرض، ولكن ليست أي غلة ، إنما في المزروعات التي لا تُسقى بماء السماء ، ولا في أي وسيلة سهلة ؛ كالماء الذي ينزل من قناة دون تعب ، ومشقة ، وتكليف ، وكلفة ، بل تسقى هذه المزروعات بواسطة وسائل يتحمل الإنسان فيها كلفة ومشقة ؛ كالدولاب أو ما يُعرف بالنواعير ، وغيرها من الآلات الكثيرة ، وقد يُشترى هذا الماء بمبلغ من المال ، ومنه الطريقة المعروفة اليوم بالتنقيط ، وهي التي تُستعمل فيها أنابيب معروفة ، فالمزروعات إذا سُقيت بهذه الوسائل ، فنسبة الزكاة فيها نصف العشر .

٣- أما نسبة العشر ، فهي في المزروعات كذلك ، ولكنها هنا المزروعات

---

(١) الجُهد : بالضم : الطاقة . والجَهد : بالفتح : المشقة .

التي سُقيت بماء السماء ، تلك التي لا يجد الإنسان في سقيها مشقة ، ولا يبذل جهداً ، ولا ينفق مالاً ، وإنما سقيها رحمة من الله ، { هو الذي أنزل من السماء ماءً لكم منه شراب ومنه شجرٌ فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون } [النحل : ١٠ ، ١١]

فانظروا -أرشدكم الله- إلى سمو التشريع وحكمته : مزروعات يتحمل صاحبها في سقيها كلفة ، ومزروعات ليست كذلك،تختلف فيها نسبة الزكاة بين العشر ونصفه .

ومن قبل ذلك الأموال التي هي أموال التجارة ، فيها ربع العشر .

كل ذلك عناية لهذا الإنسان ، ورعاية تتحقق فيها مصالح الناس ، حتى تصلح الحياة .

هذه الحكمة الربانية في تحديد نسب الزكاة ، روعيت فيها مصالح المسلمين جميعاً ، أغنياء وفقراء ، وهذا ما يرتفع به هذا الدين فوق كل المبادئ التي عرفتها الإنسانية .

وإن نظرة عجلة إلى الشيوعية والرأسمالية ، تجعلنا ندرك عظمة الإسلام ، وروعة مبادئه ، وسمو تشريعاته ، ونحن نجد اليوم كلتيهما تئن من حاضرها ، وتراجع حساباتها ، وما حملة (غورباتشوف) الإصلاحية كما يقول ، وما حملته على سابقيه ، ابتداء من (ستالين)[1] ، وما تأرجح الاقتصاد الأمريكي الذي نجده في مثل هذه الأيام ، ما ذلك كله إلا دليل صادق على أن هذا الإنسان سيظل ضعيفاً فيما يُشَرِّع لنفسه { ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون } [المائدة: ٥٠]

فالحكمة في تشريع الزكاة هدفت إلى عدم التسلط على الأغنياء ، والنيل منهم ، وعدم محاباة الفقراء ، أو تحميلهم الأذى ، ومع أن الله هو الذي وهب المال

---

(١) كتبنا هذه الفصول قبل انهيار الشيوعية واحتضارها .

لهذا الإنسان ، فإنه سبحانه مع ذلك كله لم يرهقهم فيما كلفهم من نفقة هذا المال .

وهناك آية في كتاب الله تبارك وتعالى ، جديرة بالوقوف أمامها ، وتدبرها وهي قوله سبحانه { إنما الحياة الدنيا لعب ولهوٌ وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم ، إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم . هاأنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل على نفسه والله الغني وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم } [محمد : ٣٦ - ٣٨] .

ولنقف مع قوله سبحانه { ولا يسألكم أموالكم إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم } سبحانك ربنا تعلم ما نخفي وما نعلن ، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء .

يبين الله تبارك وتعالى في الآية الكريمة أن من رحمته ان لا يسأل الناس كثيراً من أموالهم ، ولا يطلب منهم نسبة عالية من هذا المال ، ويبيّن الحكمة من ذلك ، بأنه لو طلب منهم نسبة عالية ، ومبالغ طائلة كثيرة ، لو أن الله تبارك وتعالى شقّ عليهم بطلب الكثير من أموالهم لبخلوا ، وامتنعوا ، وأبوا ، ولو فعلوا ذلك لعمهم العذاب ، وهذا معنى قول الله { إن يسألكموها فيحفكم تبلخوا } أي : إن يسألكموها فيجهدكم ويشق عليكم في طلب الكثير من أموالكم تبخلوا ، ولكنه من رحمته ما سألكم إلا القليل ، وهذا يتفق مع واقع التشريع .

ولقد قلت من قبل : إن النسبة قد تقل عن ربع العشر ، ونمثل لذلك بزكاة الغنم ، فزكاة الغنم لكل أربعين شاة ، أي لا تزكى الغنم إلا إذا كانت أربعين ، فيجب فيها شاة واحدة ، فإذا صارت خمسين أو ستين أو سبعين أو ثمانين ، بل صارت مئة ، فإنه لا يجب فيها إلا شاة واحدة ، وتبقى كذلك إلى أن تبلغ مائة وإحدى وعشرين ، فيصير فيها شاتان ، ولا شك أن النسبة هنا أقل من ربع العشر

بكثير ، وصدق الله : { إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا } .

على أن هناك أمراً آخر يستدعي انتباه الناس ، ويوجههم إلى ما في هذا التشريع من روعة ، وهو أن هذه المواشي التي تجب فيها الزكاة ، يرى أكثر العلماء والأئمة أنها لا تجب فيها الزكاة إلا إذا كانت سائمة ، ومعنى كونها سائمة : أنها ترعى من الكلأ الذي أنبته الله بماء السماء ، وهذا معنى قول الله سبحانه { ومنه شجرٌ فيه تسيمون } [النحل : ١٠] ، فالزكاة إنما تجب في المواشي إذا كانت ترعى الكلأ ، أما إذا كان صاحبها يعلفها ، ويتحمل نفقتها ، فليس فيها زكاة .

تلكم هي روعة الإعجاز التشريعي في الزكاة ، وهذا قليل من كثير مما في الزكاة من أمور تستحق الدراسة .

تلكم كلمة موجزة عن سمو التشريع في هذه الفريضة ، وكذلك هو في كل شيء .

عدالة التطبيق :

إن أي تشريع مهما كان فذاً ، ومهما بلغ من السمو ، لكي يتفيأ الناس ظلاله الظليلة ، ويقطفوا طيب جناه ، فلا بد من أن تتهيأ له عدالة التطبيق كذلك، فكم من مبدأ خير أسيء تطبيقه ، وكم من نظم لم تجد من يحسن العمل بها ، فلم تؤت أكلها ، بل كانت النتائج التي أدتها نتائج عكسية على غير ما يُتوقع ، وعلى العكس من ذلك ، قد نجد مبدأ كثير الثغرات ، متعدد الهفوات والمثالب ، ولكننا نجد من يحاول سد ثغراته ، وتلافي أخطائه وهفواته ، فلا يجد الناس فيه عسراً .

ولماذا نبتعد كثيراً عن أرض الواقع ، هذا الإسلام الذي منَّ الله به على الإنسانية ، وأمر المسلمين أن يقوموا بحقه تطبيقاً وتنفيذاً ، وفيه أعظم المبادئ وأروعها ، فالحرية ، والمساواة ، والتكافل ، والعدالة : هذه المبادئ وغيرها التي تكفل للمجتمع المسلم سمو روح ، وجودة فكر ، وتهذيب نفس ، ومنزلة دونها الشمس .

ولكننا مع ذلك ننظر يمنة ويسرة ، فنجد المسلمين أكثر الناس تخلفاً وانحداراً، وأسفل الأمم منزلة وداراً ، هذا مع الثروة الهائلة ، والإمكانات الطائلة .

وإن مقارنة بين الإسلام وبين غيره من الأنظمة ، كالشيوعية ، أو النظام الرأسمالي ، من حيث الاقتصاد ، والأخلاق ، والفكر ، نجدها كالأقزام أمام هذا الإسلام ، لكننا نجد لها دولاً تحاول أن تصلح تطبيقها ، وهم وإن كانوا في تطبيقهم يخطئون ، لكنهم في الإصلاح لا يبطئون .

والمسلمون في سبات ، أذلهم أصحاب السبت ، فضيعوا العمر ، والعمل ، والمال ، والوقت .

وتلكم مقومات الحياة في منهجها القويم العدالة ، عدالة التطبيق ، لا بد أن تلتقي مع المنهج ، وهذا الذي وجدناه في الزكاة ، فمع سمو المنهج نجد عدالة ورحمة ذوي الشأن وأولي الأمر ، فلم تكن نظرتهم لصاحب المال مشبعة بالحقد ، كما وجدناها عند كثيرين عندما أرادوا أن يطبقوا بعض النظريات المستوردة ، فلم تكن النظرة عندهم لصاحب المال إلا نظرة إذلال ، والذين عاشوا بعض التجارب في تطبيق بعض النظريات يدركون هذا كل الإدراك .

وأكتفي بإيراد مثالين من قاعدة الواقع المطبق ، والتطبيق الواقعي ، تظهر منهما عظمة هذا الدين ، وروعة القائمين على تنفيذه :

١- عن عائشة رضي الله عنها : قالت : « مُرَّ على عمر بن الخطاب بغنم من الصدقة ، فرأى فيها شاة حافلاً ذات ضرع عظيم . فقال عمر : ما هذه الشاة ؟ فقالوا شاة من الصدقة . فقال عمر : ما أعطى هذه أهلها وهم طائعون ، لا تفتنوا الناس ،

لا تأخذوا حرزات المسلمين ، نكبوا عن الطعام [1] .

٢- وعن سليمان بن يسار أن أهل الشام قالوا لأبي عبيدة بن الجراح : خذ من خيلنا ورقيقنا صدقة ، فأبى ، ثم كتب إلى عمر بن الخطاب ، فأبى عمر ، ثم كلموه أيضاً ، فكتب إلى عمر ، فكتب إليه عمر : إن أحبوا فخذها منهم ، وارددها عليهم ، وارزق رقيقهم .

قال مالك : معنى قوله رحمه الله :" وارددها عليهم " ، يقول : على فقرائهم [2] .

جانب آخر :

وهناك جانب آخر يدل على إعجاز هذا التشريع وحكمته ، ووسطية هذا الدين ، وروعة هذا التوازن .

إن نظرة الإسلام للأغنياء على سموها واعتدالها ، وكونها بعيدة عن التشفي والحسد ، لا تتعارض في حال من الأحوال مع نظرة الإسلام للفقراء ، فالفقراء والأغنياء هم جميعاً أبناؤه وبناته ، والمدافعون عنه .

أبي الإسلام لا أبا لي سواه ... إذا افتخروا بقيس أو تميم

بنوه بجهادهم ، حتى يظل صرحاً شامخاً يهابه الأعداء : لذا فتشريعاته لهم سواء .

لذلك وجدنا عناية الإسلام بالفقراء عناية مركزة ، ليس من حيث حاجاتهم المادية فحسب ، بل من حيث المحافظة على كراماتهم ، واستقرار نفوسهم ، واستقلال شخصياتهم ، فالزكاة التي يعطونها ليست مِنَّة يُمَنّ بها عليهم ، وليست طوقاً يطوق أعناقهم ، ويسلبهم أذواقهم ، يهزهم ولا يعزهم ، إنما هي حق لله ، يُعطاه أولئك

---

(١) (حافلاً) : مجتمعاً لبنها : يقال : حفلت الشاة : ترك حلبها حتى اجتمع اللبن في ضرعها، فهي محفلة . (حرزات المسلمين) : خيار أموالهم ، جمع حرزة (نكبوا عن الطعام) : أي ذوات الدر .

(٢) الموطأ ، كتاب الزكاة ، باب : ما جاء في صدقة الرقيق والخيل والعسل (٣٨/٢٣) .

الفقراء ، وهم مرفوعو الرأس ، أعزاء النفوس .

لقد حرم الإسلام المنّ والأذى في صدقة التطوع ، بل جعل ذلك مما يُبطل الصدقات { يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى } [البقرة : ٢٦٤]

فما بالك بالزكاة المفروضة ؟ .

ومن أجل أن لا يحمّل الفقير منّة ، وأن تتجنب نفسه الحسرة والأنّة ، كانت الدولة تجمع هذه الزكاة بواسطة السعاة ، وهؤلاء السعاة يأخذونها من الأغنياء ، ويعطونها للفقراء .

هذا من الناحية النفسية والفكرية ، لا يُشعر الغني بأنه متفضل بالعطاء ، ولا يَشعر الفقير بحرج في الأخذ .

أما من الناحية المادية ، فما أحكم وأروع هذا التشريع ، لقد حرص الإسلام على أن يجنب الفقير ثقل المنّ ، فيُعطى دون أن يكدره شيء .

فأولاً : هناك نظرة إلى أوضاع الفقراء ، فهم ليسوا سواء ، فهناك التاجر والصانع ، وهناك العزيز في قومه الذي أصابته جائحة ، لا بد أن تأخذ بعين الاعتبار هذه الحقيقة ؛ وهي أن الناس يختلفون .

وثانياً : لابد أن يُعطى أولئك كفايتهم ، وأقل ذلك أن يُعطوا كفاية سنة واحدة ، على أن بعض الفقهاء رأوا أن يعطوا ما يكفيهم العمر كله .

وأما ثالثاً : فإن هذا التشريع يعمل على تحويل هذه الفئات كي تصير فئات معطية فلا يكفي أن نعطي أولئك الفقراء ما يسد رمقهم ، ويشبع بطونهم ، بل يجب أن نهيئ لهم ما يناسبهم من وسائل الإنتاج وما يتلاءم مع قدرتهم وأوضاعهم وأحوالهم .

تلكم هي فطرة الإسلام ، وهذه هي تشريعاته ، وأين هذا مما نجده اليوم ؟! وهذه أمريكا تعطي بعض الدول الدائرة في فلكها من القمح والدقيق ما يكفيها أسبوعاً واحداً فحسب ، فإذا انتهى الأسبوع جاءت شحنة أخرى لأسبوع آخر ، وهكذا

ما هي الأبعاد النفسية والفكرية لمثل هذا العمل ؟! .

الله هو المستعان ، ولن يفلح المسلمون إلا إذا عرفوا أعداءهم حق المعرفة .

ومن الخير أن ننقل هنا شيئاً مما قاله الفقهاء رحمهم الله :

قال النووي رحمه الله :

" في قدر المصروف إلى الفقير والمسكين ، قال أصحابنا العراقيون ، وكثير من الخراسانيين : يعطيان ما يخرجهما من الحاجة إلى الغنى ، وهو ما تحصل به الكفاية على الدوام . وهذا هو نص للشافعي رحمه الله واستدل له الأصحاب بحديث قبيصة ابن المخارق رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تحل المسألة إلا لأحد ثلاثة : رجل تحمل حمالة ، فحلت له المسألة حتى يصيبها ، ثم يمسك ، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله ، فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش ، أو قال سداداً من عيش ، ورجل أصابته فاقة ، حتى يقول ثلاثة من ذوي الحجى من قومه : لقد أصابت فلاناً فاقة ، فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش - أو قال : سداداً من عيش ، فما سواهن من المسألة يا قبيصة سحت ، يأكلها صاحبها سحتاً »[1] .

رواه مسلم في " صحيحه " والقوام والسداد بكسر أولهما ، وهما بمعنى .

قال أصحابنا : فأجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم المسألة حتى يصيب ما يسد حاجته ، فدل على ما ذكرناه ، قالوا : وذكر الثلاثة في الشهادة للاستظهار لا للاشتراط .

قال أصحابنا : فإن كان عادته الاحتراف أعطي ما يشتري به حرفته أو آلات حرفته ، قلت قيمة ذلك أم كثرت ، ويكون قدره بحيث يحصل له من ربحه ما يفي

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزكاة ، باب : من لا تحل له المسألة (١٠٤٤/٣٦) .

بكفايته غالباً تقريباً . ويختلف ذلك باختلاف الحرف والبلاد والأزمان والأشخاص .

وقرَّب جماعة من أصحابنا ذلك ، فقالوا : من يبيع البقل يُعطى خمسة دراهم أو عشرة ، ومن حرفته بيع الجوهر يُعطى عشرة آلاف درهم مثلاً إذا لم يتأت له الكفاية بأقل منها ، ومن كان تاجراً أو خبازاً أو عطاراً أو صرافاً أعطي بنسبة ذلك ، ومن كان خياطاً أو نجاراً أو قصاباً أو غيرهم من أهل الصنائع أعطي ما يشتري به الآلات التي تصلح لمثله ، وإن كان من أهل الضياع يُعطى ما يشتري به ضيعة ، أو حصة في ضيعة تكفيه غلتها على الدوام .

قال أصحابنا : فإن لم يكن محترفاً ، ولا يحسن صنعة أصلاً ، ولا تجارة ، ولا شيئاً من أنواع المكاسب ، أعطي كفاية العمر الغالب لأمثاله في بلاده ، ولا يتقدر بكفاية سنة .

قال الرافعي : ومنهم من يُشعر كلامه بأنه يُعطى ما ينفق عينه في مدة حياته ، والصحيح ، بل الصواب ، هو الأول ؛ هذا الذي ذكرناه من إعطائه كفاية عمره هو المذهب الصحيح الذي قطع به العراقيون ، وكثير من الخراسانيين أنه يُعطى كفاية سنة ، ولا يُزاد ؛ لأن الزكاة تتكرر كل سنة ، فيحصل كفايته منها سنة سنة ، وبهذا قطع أبو العباس بن القاص في " المفتاح " والصحيح الأول ، وهو كفاية العمر[1].

وروى الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام بإسناده إلى عُمير بن سلمة الدؤلي أنه خرج مع عمر بن الخطاب - أو أخبر عميراً من كان مع عمر - قال : « بينا عمر نصف النهار قائل في ظل شجرة ، وإذا أعرابية ، فتوسمت الناس ، فجاءته ، فقالت: إني امرأة مسكينة ، ولي بنون ، وإن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كان

---

(١) المجموع (٦/٢٠٢ ، ٢٠٣) .

بعث محمد بن مسلمة ساعياً ، فلم يعطنا ، فلعلك يرحمك الله أن تشفع لنا إليه ، قال : فصاح بيرفأ : أن ادع لي محمد بن مسلمة ، فقالت : إنه أنجح لحاجتي أن تقوم معي إليه فقال : إنه سيفعل إن شاء الله . فجاءه يرفأ ، فقال : أجب . فجاء ، فقال : السلام عليكم يا أمير المؤمنين ، فاستحيت المرأة ، فقال عمر : والله ما آلوا أن أختار خياركم ، كيف أنت قائل إذا سألك الله عز وجل عن هذه ؟ فدمعت عينا محمد ، ثم قال عمر : إن الله بعث إلينا نبيه صلى الله عليه وسلم ، فصدقناه ، واتبعناه ، فعمل بما أمره الله به ، فجعل الصدقة لأهلها من المساكين ، حتى قبضه الله على ذلك ، ثم استخلف الله أبا بكر ، فعمل بسنته حتى قبضه الله ، ثم استخلفني ، فلم آل أن أختار خياركم ، إن بعثتك ، فأد إليها صدقة العام وعام أول، وما أدري لعلي لا أبعثك ، ثم دعا لها بجمل ، فأعطاها دقيقاً ، وزيتاً ، وقال: خذي هذا حتى تلحقينا بخيبر ، فإنا نريدها ، فأتته بخيبر ، فدعا لها بجملين آخرين ، فقال : خذي هذا ، فإن فيه بلاغاً حتى يأتيكم محمد بن مسلمة ، فقد أمرته أن يعطيك حقك للعام وعام أول » (١) .

جانب ثالث :

بعد أن تحدثنا عن جانبين سابقين ، وهما نظرة الإسلام إلى الغني ونظرته إلى الفقير ، وجمال التطبيق لكل من هذين الجانبين ، يجدر بنا أن نتحدث عن جانب ثالث ، دال على إعجاز هذا التشريع وحكمته ، وهذا الجانب ليس نظرة إلى المعطي أو المعطى ، ولا إلى الفقير والغني ، ولكنها في هذا الجانب نظرة إلى المال المزكى .

---

(١) الأموال (ص ٧٨٧) .

هذا المال الذي تجب فيه الزكاة ينبغي أن يكون مالاً نامياً ، سواء كان نامياً بالفعل أم بالقوة ، ومعنى كونه نامياً بالفعل أن يكون مستثمراً في الواقع ، ومعنى كونه نامياً بالقوة أن يكون صالحاً للتنمية ، نوضح ذلك بما يأتي :

الماء يروي الإنسان ، لكنه قد يروي بالفعل أو بالقوة ، فإذا شرب الظمآن حصل له الرواء ، وهذا معنى كونه مروياً بالفعل ، أما وجود الماء في الإبريق ، دون أن يكلف الإنسان نفسه لتناول الإبريق والشرب ، فإن هذا الماء مُروٍ بالقوة .

ومثل الماء المال ، فإذا ملك إنسان ألف دينار أو أكثر من ذلك أو أقل ، واستثمرها في التجارة ، واستغلها في المنفعة الحلال ، فذلك مال نام ، نمّاه صاحبه فعلاً ، أما إذا بقي هذا المال عند صاحبه دون استثمار واستغلال ، فهو نام بالقوة . وهذه عبارة من عبارات المناطقة ، فمعنى المال النامي بالقوة أن يكون صالحاً للتنمية

بعد هذا نقول : إن المال الذي تجب فيه الزكاة هو المال النامي فعلاً ، أو الصالح للنماء ، أما إذا لم يكن المال نامياً ، فلا زكاة فيه ، فالدار المعدة للسكنى ، لا زكاة فيها ؛ لأنها ليست مالاً نامياً ، والفراش الذي تنام عليه لا زكاة عليه ؛ لأنه ليس مالاً نامياً ، والكتب التي تقرأ فيها ، ليس فيها زكاة ؛ لأنها ليست مالاً نامياً كذلك الثوب الذي نلبسه لا زكاة عليه ، والسيارة التي نركبها ، والإناء الذي نأكل فيه ، وهكذا المذياع ، وجهاز الهاتف ، وما يعده المسلمون للدفاع عن أنفسهم .

وبالجملة ؛ فكل مال لم يعدّ للتنمية ، ولا يصلح لها ، ليس فيه زكاة ، ومن هنا ذهب بعضهم إلى أن لا زكاة في حلي المرأة .

تلكم هي روعة الإسلام في تشريع الزكاة ، وعدالة التطبيق ، وإذا كنا نجد اليوم أموراً في الزكاة استحدثت وجدّت ، ولا بد فيها من اجتهاد الفقهاء ، فيجب أن يكون هذا الاجتهاد مبنياً على هاتين : أعني عدالة الإسلام ، وروعة التطبيق .

ثانياً : الرق :

كان الرق قبل نزول القرآن الكريم شرعة مباحة ، وقضية من القضايا المتعارف عليها بين الناس ، وأمراً من الأمور المسلمة في الشرائع والفلسفات والقوانين ، بل قرر أرسطو طاليس - وهو الفيلسوف الذي يعدونه من أعظم ذوي العقول في هذه الدنيا، ويشيدون به وبعبقريته ، وتشدو بذكره الأمم الأوروبية وغيرها - قرر أن " الرق نظام الفطرة ، لأن من الناس ناساً لا يمكن أن يعيشوا إلا أرقاء ، وآخرين لا يكونون إلا أحراراً " . وأين هذا من الإسلام ؟ أين هذا من تقريرات القرآن السامية؟ {إن أكرمكم عند الله أتقاكم } [الحجرات:١٣]، { ولقد كرمنا بني آدم } [الإسراء:٧٠] إلى غير ذلك من الآيات ، فالقرآن الكريم قرر أن الناس سواء ، خلقهم الله من نفس واحدة .

ويبين النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآيات الكريمة ، بإشارات كثيرة في السنة النبوية ، فالخلق عيال االه ، أحبهم الى الله انفعهم لعياله ، " والناس سواسية كلهم لآدم وآدم من تراب " لا ينبغي أن يبغي أحد على أحد ، وهذا ما فهمه عمر من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فقال : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً " وأياً كان الخلاف بين الناس فلابد أن يأخذ كل حقه " ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى " [المائدة : ٨] .

والإعجاز التشريعي في قضية الرق بيِّن المعالم . ويكفي لبيان ذلك أن نتصور اتفاق العالم كله بعباقرته ومفكريه ، ومقننيه وفلاسفته ، وأحباره ورهبانه ، نتصور هؤلاء وهم مجمعون على أن الرق من الأمور التي تستلزمها الفطرة ، ويجيء النبي الأمي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ليعلن في هذا العالم ولهذا العالم كله تشريعات جديدة من شأنها أن تعيد لهذا الإنسان حريته ، وأن تقوّم هذا الاعوجاج في حياة الناس [illegible] ، وأن تصوغ هذا الإنسان صياغة جديدة عالية

« المساوىء والمثالب ، وأن يكون الذي أعلنه هذا النبي تشريعاً فيه الدقة والإحكام ليس من شأن أي واحدٍ من الناس أن يقدر على هذه التشريعات ، فكيف إذا كان أمر ؟ لم يبق إلا شيء واحد وهو أن هذا الذي جاء به النبي الكريم صلى الله عليه وسلم " إن هو إلا وحي يوحى " .

ولا ندري لماذا هذه الجعجعة ؟ ، ولماذا هذه الحملة الجائرة التي يريد أصحابها النيل من دين الله ؟ ويعلم الله أنهم قد جاءوا ظلماً وزوراً .

لقد ادعى هؤلاء أن الرق قد نمى في ظل الإسلام ، وتلكم تهمة باطلة ، فما هي قضية الرق ، وما هو موقف القرآن الكريم منها ، وإليكم بيان ذلك ؟

الأرقاء في الزمن القديم كانوا على ثلاثة أنواع :

١- أسارى حرب .

٢- الأحرار الذين كانوا يؤخذون ويسترقون ظلماً فيباعون .

٣- الذين كانوا في الرق أباً عن جداً ، ولا يعرف متى كان آباؤهم قد استرقوا .

فلما جاء الإسلام ، كان المجتمع الإنساني في بلاد العرب وغيرها من أقطار العالم ممتلئاً بالأرقاء من هذه الأنواع الثلاثة تقريباً ، وكان يعتمد النظام الاقتصادي والاجتماعي في سيره أكثر ما كان يعتمد على الخدم والأحرار » (١) .

ويتنزل القرآن على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومشكلة الرق قائمة لا يجد الناس فيها إشكالاً ، ولكن القرآن الكريم الذي أنزله الله لسعادة البشر في الدارين ، كان له الوقفة الحكيمة من هذه القضية ، شأنه في جميع القضايا الإنسانية الخطيرة ، فكيف عالجها ؟

إن حكمة الإسلام في التدرج في الأحكام كان لها أكبر الأثر في وقاية

---

(١) تفسير سورة النور لأبي الأعلى المودودي ، ص ١٨٨ .

المسلمين شروراً كثيرة ، ، فلقد تدرج القرآن الكريم في تحريم الخمر والربا ، وكان كذلك في قضية الرق ، وهذا من أعظم أدلة إعجازه وكونه من عند الله .

لقد بدأ علاج القرآن لقضية الرق مبكراً ، قبل أن تقوم للإسلام دولته ، وهذا خير دليل على عناية القرآن بهذه القضية عناية تامة ، ففي سورة البلد المكية نقرأ قول الله تبارك وتعالى { فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة } [البلد: ١١-١٣] .

ولما منّ الله على المسلمين بالنصر ، وصارت للإسلام دولة ، وجدنا للقرآن الكريم عنايته بهذه القضية ، فما هي تشريعات القرآن في هذا المضمار ؟

كان باب الرق ، بل أبواب الرق مفتحة ، فما أكثر أسبابه ، أما أبواب الحرية فكانت كلها مغلقة ، كان علاج القرآن الكريم لهذه القضية على جبهتين اثنتين :

الأولى : أن يفتح أبواب الحرية ، ولكن تفتيح أبواب الحرية لا يحل المشكلة من أساسها ، فكان لابد من الجبهة الثانية ، وهي تغليق أبواب الرق .

أما تغليق أبواب الرق ، فلقد كان الناس يسترقون لأدنى الأسباب وأتفهها فقد يسترق السارق لسرقته ، والقاتل لقتله ، والمدين لدين عليه ، وقد يسلب بعض الأحرار فيباعون ، فما كان من القرآن الكريم إلا أن شرع لهذه الجرائم ما يناسبها ، فجعل للقاتل جزاءه ، وللسارق عقوبته .

أما فتح أبواب الحرية فكان له مظاهر متعددة ، ومن أولها حث الإسلام الناس على العتق ، كما رأينا في سورة البلد المكية ، ولكن القرآن الكريم لم يكتف بأن رغب في فضل العتق ، بل نجده يفرضه كفارة لكثير من المخالفات التي يصيبها المسلم . قال تعالى { والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا } [المجادلة : ٣] وقال تعالى في كفارة قتل الخطأ { وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأً ، ومن قتل مؤمناً خطأً فتحرير رقبة مؤمنة ودية

مسلمة إلى أهلهَ إلا أن يصدقوا ، فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ، وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليما حكيما } [النساء : ٩٢] فقد ذكرت تحرير الرقبة في هذه الآية ثلاث مرات .

وقال سبحانه في كفارة اليمين { فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة } [المائدة : ٨٩].

وهكذا يفتح القرآن الكريم أبواب الحرية ، وقد يترك الأمر اختياراً للمسلمين وقد يوجبه عليهم ، ولقد استجاب المسلمون لله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فأعتق ألوف الأرقاء في وقت قصير ، ثم صار أولئك بعد ذلك ممن يعول عليهم المجتمع المسلم في كثير من أموره ومتطلباته .

ولم يقف القرآن الكريم عند هذا الحد في علاج مشكلة الرق ، بل خطى خطوات كثيرة في هذا المضمار ، فجعل من أبواب الزكاة الواجبة على المسلم إعطاء الأرقاء جزءاً من مال الزكاة ، ليحرروا به أنفسهم ، وذكرهم في ذلك مع الفقراء والمساكين قال تعالى { إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب } [البقرة:١٧٧] ، بل شرع المكاتبة وهي أن يطلب العبد من سيده عتقه مقابل مبلغ من المال يدفعه له، فأوجب على المسلمين أن يعطوا هذا العبد من مال الزكاة وغيرها ، ليعينوه على حريته ، قال تعالى { والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وأتوهم من مُال الله الذي آتاكم } [النور : ٣٣].

وفي قوله سبحانه { فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً } سمو التشريع ، وتكريم مابعده تكريم لهذا الإنسان ، فهذا الرقيق المكاتب يجب على السيد أن يلبي رغبته إذا علمنا أن له من المهارات والقدرة ما يمكنه أن يكون لبنة صالحة في هذا المجتمع ،

أما إذا كان سيعيش عالة على المجتمع بعد تحريره ، فليبق كلاً على مولاه ، خير من أن يصير عالة على المجتمع .

ولقد كانت إرشادات النبي صلى الله عليه وسلم في تحرير الرقيق إرشادات هادفة وهادئة ، فأوجب عتق الرقبة عند ارتكاب بعض المخالفات ، ورغب فيه في كثير من المواقف ، فعن أبي مسعود البدري رضي الله عنه ، قال : كنت أضرب عبداً لي ، وبينما أنا كذلك سمعت صوتاً يقول : أعلم أبا مسعود لله أقدر عليك منك عليه ، فالتفت فإذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقلت هو حر ، فقال: لو لم تفعل للفحتك النار .

والأحاديث في ذلك كثيرة ، ذلكم موقف القرآن الكريم من الرق ، و نستطيع أن ندرك الإعجاز التشريعي إذا نحن قارنا موقف القرآن بغيره ، وكيف أن هذه التشريعات جاء بها النبي الأمي الذي لم يتل كتاباً من قبل ولم يخطه بيمينه .

ثالثاً : نظام الإرث في الإسلام :

إن نظام الإرث في شريعة الله يعد - بحق - من الإعجاز التشريعي لهذا الكتاب الكريم ، وإن أدنى وقفة متأملة متأنية نقارن فيها بين ما جاء في كتاب الله تبارك وتعالى ، وبين الأنظمة في الأمم الأخرى تطلعنا على سمو التشريعات الإسلامية تلك التي جاء بها من عند الله النبي الأمي سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- .

ولنبدأ أولاً ببعض قواعد التوريث - كما جاء في كتاب الله تبارك وتعالى - أسباب الميراث في الإسلام ثلاثة :

١) القرابة ، وتشكل الأصول كالآباء والأمهات والأجداد ، والجدات ، والفروع من أبناء وبنات ، والعصبات من الإخوة والأخوات على تفصيل في ذلك في كتب الفقه.

٢) النكاح : ويشمل توريث أحد الزوجين من الآخر .

٣) الولاء : ومعناه أن يرث السيد عبده الذي أعتقه ، إذا لم يكن لهذا العبد من يستحق التركة من أصول وفروع والمتدبر لآيات الميراث في القرآن ، وهي آيات ثلاث في سورة النساء ، يجد الدقة والإحكام والموضوعية والعدالة في تقسيم هذه التركة، وإعطاء كل واحد من الورثة ما يتناسب مع حاجته أولاً ، ودرجته من الميت ثانياً هذا عدا ما في هذه الآيات من بيان موجز معجز .

ومن أهم قواعد هذا الميراث في كتاب الله أنه لم يفرق بين الأولاد من حيث الصغر والكبر ، ولم يخص الذكور دون الإناث ، كما لم يخص أحد الزوجين دون الآخر ، ولم يحرم الأصول ، كل ما في الأمر أنه راعى قواعد تتحقق فيها العدالة . ومن الخير أن نتدبر هنا هذه الآيات ، قال تعالى :

« يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ، فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك ، وإن كانت واحدة فلها النصف ، ولأبويه لكل واحد منهما

السدس مما ترك: إن كان له ولد، فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث ، فإن كان له إخوة فلأمه السدس ، من بعد وصية يوصي بها أو دين ، اباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً ، فريضة من الله إن الله كان عليماً حكيماً (١١) ، ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد ، فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين، وإن كان رجل يورث كلالة ، أو إمرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس ، فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضآر ، وصية من الله والله عليم حليم (١٢) تل حدود الله ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ، خالدين فيها وذلك الفوز العظيم (١٣)] النساء [.

فانظروا إلى هذا الإيجاز المعجز ليس إعجازاً تشريعياً فحسب ، بل إعجازاً بيانياً كذلك ، وقبل أن نناقش بعض الشبهات على هذه القواعد ، يجمل بنا أن نذكر قواعد الميراث عند بعض الأمم ، سواء كانت هذه القواعد دينية أم قانونية ، ولنبدأ بالعرب في الجاهلية .

الميراث في الجاهلية :

أسباب الميراث في الجاهلية اثنان : القرابة أولاً ، والحلف والمعاقدة ثانياً ، وليس النكاح سبباً من أسبابه عندهم ، فليس للمرأة في مال زوجها حق .

أما القرابة فإنهم كانوا يورثون الأبناء دون البنات ، والكبار دون الصغار فاذا ترك الميت أولاداً ذكوراً وإناثاً ، فإن الذي يرثه ابنه الأكبر ، وليس لغيره من إخوته وأخواته نصيب ، حتى لو كان هذا الابن بالتبني ، وقد بقي الأمر على ذلك حتى أرسل الله رسوله -صلى الله عليه وسلم- بالهدى ودين الحق ، ودعا الناس ثلاث عشرة سنة في مكة ، وبعد أن هاجر إلى المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة

والسلام بسنين نزل قوله سبحانه [للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً] .

أما السبب الثاني للتوريث عند العرب في جاهليتهم وهو الحلف ، فكان أحدهم إذا تحالف أو تعاقد مع آخر ، فإنه يرث كل منهم الآخر بعد موته ، وإن كان في ذلك حرمان لأولاد كل منهما ، وبقي ذلك كذلك إلى أن نزل قول الله تعالى [وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله] [الأنفال : ٧٥] ونزلت آيات المواريث تبين أنصبة التركة ومستحقيها .

وهكذا نجد أن نظام الإرث عند العرب في الجاهلية كان كله ظلماً وحيفاً وإجحافاً .

نظام التوريث عند اليهود :

رجع الاستاذ الدكتور محمد يوسف موسى - رحمه الله تعالى - في بيان قواعد الإرث عند اليهود إلى مراجعهم المعتبرة عندهم وخلاصة نظام الإرث عندهم يمكن أن نوجزها في هذه القواعد :-

١- أسباب الميراث أربعة : وهي البنوة والابوة ، والاخوة والعمومة ، ومن هنا نرى أن الزوجة ليست من الاسباب وإن كان الزوج يرث زوجته ، على حين أنها لا ترثه إذا توفي قبلها .

٢- إذا توفي الأب كان ميراثه لأبنائه الذكور وحدهم دون شريك ، ويكون للولد البكري مثل حظ اثنين من إخوته الأصغر سناً منه « فهو مميز عنهم بعلة البكورة » ولكن إن إتفق مع إخوته على اقتسام الميراث بالسوية صح الاتفاق .

٣- وإذا ترك الأب المتوفى أولاداً بنين وبنات كانت التركة من حق البنين ... ولكن يكون للبنات حق النفقة على التركة حتى تتزوج الواحدة منهن أو

تبلغ سن البلوغ ، كما يكون للبنت أيضاً على إخوتها الذكور قيمة مهرها من التركة بقدر ما كان يظن أن يعطيها أبوها .

٤- الأم لا ترث في ابنها ولا في بنتها ، وإن ماتت هي يكون ميراثها لابنها إن كان لها ابن ، وإلا كان الميراث لابنتها ، فإن لم يكن لها ولد ، ولا بنت فميراثها يكون لأبيها إن كان ، وإلا فلأبي أبيها إن كان موجوداً ، وإلا فلجد أبيها .

٥- إذا توفي الابن وليس له ابن ولا بنت ، كان الميراث لأبيه ، إن كان موجوداً وإلا فلإخوته – أي إخوة المتوفى – الذكور ، وإلا فلأخوته الأناث .

٦- للرجل حق فيما تكتسبه زوجته من كدها ، وفيما تجده لقية ، وفي ثمرة مالها ، وإذا توفيت ورثها ، وإن كل ما تملكه الزوجه يؤول بوفاتها ميراثاً شرعياً إلى زوجها وحده لا يشاركه فيه أقاربها ولا أولادها سواء كانوا منه أم من رجل آخر .

٧- أما الزوجة فلا ميراث لها من تركة زوجها إذا توفي قبلها ، حتى إذا اشترطت أن ترثه وكان له ورثة بطل الشرط ، ولو حصل قبل الزواج ، ولكن للزوجة الأرملة الحق في أن تعيش من تركة زوجها المتوفى ولو كان قد أوصى بغير ذلك[1]

نظام الإرث عند الرومان :

أسباب الميراث عند الرومان اثنان القرابة وولاء العتاقة ، ولم يجعلوا النكاح سببا من أسباب الميراث ، لأنه لا توارث بين الزوجين عندهم ، ذلك أنه يلاحظ في نظام التوريث عن الرومان مبدآن اثنان :-

أ- إستبقاء الثروة في العائلات وحفظها من التفتت .

ب- المحافظة على كيان هذه العائلات وعلى سلطة أرباب الأسر .

---

(١) التركة والميراث في الاسلام ، د. محمد يوسف موسى ، ص ٤١ .

وتطبيقاً للمبدأ الأول ورثوا أولاد الظهور دون أولاد البطون ، أي ورثوا أولاد الأبناء ولم يورثوا أولاد البنات ، كما منعوا التوارث بين الأم وأولادها ، فالأم لا ترث من أولادها وذلك لأنها لو ورثت شيئاً لآل إلى أسرتها هي ، وكذلك الأولاد لا يرثون أمهم ، فإذا كان للأم ما ورثته من أبيها فإنه يؤول بعد موتها إلى إخوتها وأخواتها وليس لأولادها منه شيء .

ونلاحظ أن توريث الأولاد عند الرومان لايقتصر على ما ثبت بالنسب عندهم بل يشمل أولاد الزنا أو ما كان نتيجة التبني .

مما تقدم ندرك أن مناط الميراث عند العرب قبل الاسلام كان « الرجولة والقوة» فكانوا لا يجعلون من الميراث حظا للنساء ولا الأولاد الصغار ، ولا يرث الرجل إذا مات من أبنائه إلا من أطاق القتال ، ولهذا كانوا يعطون الميراث للأكبر فالأكبر ، ولما نزلت آيات الفرائض قال بعضهم للرسول -صلى الله عليه وسلم- : يا رسول الله : أنعطي الجارية نصف ما ترك أبوها وليست تركب الفرس ولا تقاتل القوم ، ونعطي الصبي الميراث وليس يغني شيئاً .

وكذلك كان الأمر قريباً من هذا لدى اليهود ، فقد كانت البنت لا نصيب لها من تركة ابيها - بل كلها يكون لأخيها ، كما كانت المرأة بصفة عامة بنتاً أو أما أو أختاً للمتوفى لاترث شيئاً إذا كان للمتوفى ابن أو قريب آخر من الذكور كالأخ والعم ، وكذلك لا يرث أحد من الإخوة والأخوات ، بل الميراث كله يكون لأبناء المتوفى الذكور ، وللأكبر سناً منهم حظ الاثنين ممن دونه سناً ، وإلا فللأب إذا كان موجوداً ، أما الزوجة فكل ما تتركه يكون من حظ زوجها دون أولادها وأقاربها على حين أنها لا ترث زوجها في شيء ...

وواضح من هذا وذاك مبلغ ظلم جنس النساء بصفة عامة ، وكذلك مبلغ ظلم الأصول عند وجود أحد من الفروع لدى اليهود ، مع هضم حقوق الزوجة كلها في

كلا النظامين ... وإنما جعل المال - وما يزال هكذا في كل زمن - لدفع حاجات المحتاجين ، ولقضاء ذوي الحقوق حقوقهم ، ولا أحق بالراحة والعناية من الضعيفين : الصغير الذي لا يستطيع الكسب ، والمرأة التي لا تستطيع بطبيعتها مزاحمة الرجل في ميدان الحياة وكسب المال - ولذلك تقضي العدالة ألا يحرم هذان الصنفان حظه من الميراث وهكذا فعل الإسلام بتشريعه الإلهي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولا عجب فهو تشريع العليم الحكيم .

ومن ثم جعل الاسلام لكل من أولاد الميت حظاً من الميراث ذكوراً أو إناثاً ولكل من أبويه نصيباً مفروضاً كذلك ، لا فرق بين الأب والأم حتى مع وجود أبناء للمتوفى على خلاف القانون الروماني ، كما جعل للإخوة ذكوراً وإناثاً نصيباً من ميراث أخيهم في الحالات التي تقتضي العدالة والحكمة أن يكون لهم فيها نصيب .

ولم يكن من العدل في شيء أن يتميز الابن البكر بأخذ حظ اثنين من إخوته الأصغر سناً منه كما هو الأمر عند اليهود ، ولهذا سوّى الإسلام في الأنصبة بينهم جميعاً ، ولم يكن من العدل أيضاً أن تتساوى البنت مع أخيها في الميراث من أبيها كما هو الأمر في القانون الروماني والقوانين الحديثة الوضعية التي أخذت عنه، ومن أجل هذا جعل الإسلام للذكر مثل حظ الانثيين .

والزوج والزوجة يتساويان في كل شؤون الحياة ، ويسند كل منهما رفيقه متاعبه ، فهي له رفيق وعون في السراء والضراء ، فليس عدلاً إذاً أن يحرم النظام اليهودي الزوجة من نصيب في التركة التي خلفها زوجها وأسهمت هي في تكوينها ، على حين يجعل الزوج يرثها في كل ما تتركه من مال ، ولذلك جعل القرآن الحكيم لها نصيباً معيناً في تركة زوجها .

وقد كان العرب يتوارثون بالحلف والمعاقدة ، وقد رأينا أن الرجل كان يعقد مع الرجل - ليس بينهما نسب أو قرابة - حلفاً على التناصر ، فإذا مات أحدهما

ورثه الآخر ، ويحرم ابنه وأخوه من الميراث اذا كان لا يطيق القتال ، ولا يحوز الغنيمة، فكان طبيعياً وعدلاً أن لا يقر الاسلام هذا سبباً للميراث ، فإن الاسلام وحده جعل المسلمين جميعاً إخوة وربط بينهم برباط وثيق ، فلا حاجة لأحلاف بها يتناصرون ويتوارثون ، إذ يكفيهم الدين ورابطة النسب والقرابة .

هذا وقد كان العرب والرومان أيضاً يجعلون للولد المتبنى الحق في الميراث كالولد الطبيعي ، فقد قرر القانون الروماني صراحة أن الولد من الزنا كالولد الثابت النسب من زواج شرعي صحيح ، وهذا وذاك لم يرضه الاسلام كما هو معروف .

إن الاسلام نفى التبني نفياً لا لبس فيه ولا غموض ، كما عمل على محو كل أثر من آثاره يوهم أن الابن بالتبني كالابن من النسب من أية ناحية من النواحي فالقرآن يقول في سورة الاحزاب { وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم } [الأحزاب : ٤ ، ٥] .

وهذا هو الحكم العدل ، إذ به ينتسب كل إلى الأب الذي نسله إن كان معروفاً أبوه ، وإلا فحسب مثل هذا الولد أن يكون أخاً لكل مسلم وأن يجد منه العون والنصرة بحكم الإسلام ، وهذه الأخوة العامة التي تؤلف بين قلوب المسلمين جميعاً ، والله جل ذكره يقول في بعض آيات الكتاب الحكيم « إنما المؤمنون إخوة » (١).

شبهات حول نظام الإرث في الإسلام :

وبعد هذا العرض نجد أن ما أثير حول نظام الإرث الذي قرره القرآن الكريم والسنة المطهرة من شبهات ليس إلا ظلماً لا يقوم على أساس من منطق سوي وفكر مستقيم ، وهو يتنافى مع الواقع الذي تتوخى فيه العدالة ، وهذه الشبهات تتلخص

---

(١) التركه الميراث في الاسلام . د. محمد يوسف موسى ، ص ٦٥ .

في اثنتين :-

أولاهما : أن الاسلام جعل نصيب الأنثى أقل من نصيب الذكر .

والثانية : أن الاسلام ورث الأصول على حساب الفروع .

ونحن نعلم أن الشبهة الأولى لا ينبغي أن يقام لها وزن ، فإن أكثر النظم كما رأينا من قبل تحرم المرأة حرماناً تاماً ، وهذا تفريط مناف للعدالة ، والقليل من هذه النظم جعلت الرجل والمرأة سواء ، ولكنها مع ذلك كان فيها كثير من الثغرات ، وذلك إفراط ، ومن العدالة أن تجنب الإفراط والتفريط .

ونحن نعلم أن القرآن الكريم حينما جعل للذكر مثل حظ الأنثيين لم يرد من ذلك إلا إنصاف الرجل والمرأة على السواء ، فالمرأة تجب نفقتها على زوجها أو أخيها أو إبنها ، وجعل لها حقاً وهو المهر الذي يدفعه الزوج ، وهكذا يقدم الرجل المهر لأمرأته ، وتجب عليه نفقتها ، وكذلك إن كان أباً أو أخاً أو إبناً ، أفمن النصفة أن يقال بعد ذلك إن إعطاء المرأة أقل من الرجل فيه ظلم وحيف ، سبحانك هذا بهتان عظيم .

أما الشبهة الثانية وهي توريث الأصول مع الفروع فهي كسابقتها بعيدة عن الحق والإنصاف ، صحيح إن الفروع يستقبلون الحياة ، وإن الأصول يستدبرونها - والآجال لا يعلمها إلا الله - لكن ، هل من العدل والانسانية والشفافية أن يحرم الآباء وهم أحنى على الميت من غيرهم ، وأن يكونوا عالة ، ما نظن ذلك يتفق مع الفطرة ،على أن التشريع القرآني جعل نصيب هؤلاء الأصول أقل من نصيب الفروع

إننا بعد المقارنة بين ما جاء في القرآن الكريم من أحكام المواريث ، وبين ما عرفناه عند اليهود وفي القانون الروماني وغيرهما ، لا يسعنا إلا أن نقرر جازمين بأن ذلك النظام وهذه التشريعات لدليل صدق وشاهد حق على إعجاز القرآن التشريعي .

إن هذه الجزئيات الدقيقة في هذا النظام ، وهذا التقسيم المحكم ، لم نجده في أعظم القوانين التي مرت على إصلاحها قرون طويلة من الزمن ، كانت محلاً للتهذيب والتشذيب والإصلاح ، وسدّ الثغرات ، كما لم نجده في ديانات أصلحت فيه هذه القوانين بفعل الأحبار والمجتهدين ، فإذا عرفنا أن هذه التشريعات جاء بها نبي أمي –صلى الله عليه وسلم– لم يزاول القراءة والكتابة ، ولم تسبق له معرفة بما كان عند الأمم من قواعد قانونية وتشريعية ؛ أدركنا عظمة هذا الكتاب وإعجازه التشريعي وتشريعه المعجز ، وصدق الله { ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يذكرون قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون } [الزمر :٢٧ ، ٢٨].

رابعاً الطلاق :-

كان موقف الناس من الطلاق موقفاً متناقضاً ، فمنهم الذي يبيحه ويفتح الباب فيه على مصراعيه ، من غير أن يكون له قواعد وضوابط ، وفي هذا من المساويء والسلبيات ما لا يحصى ، ومنهم من تشدد فيه وجعله أمراً ممنوعاً محرماً مهما كان في ذلك من شقاء وضنك وضيق يعيشه الزوجان وفي ذلك من الشر العضال ، والنتائج السيئة ، والخروج من حصن الفضيلة ، وغير ذلك من السلبيات ما لا يحصى كذلك ، فما هو موقف الإسلام من هذه القضية الخطيرة ؟

لم يتورع بعض الناس من خصوم هذا الدين مستشرقين أو مستغربين من أن يرموا الإسلام بسهام الحقد ، وهم يعدون الطلاق من مساويء الاسلام ، وهم يزعمون أن فيه ظلماً للمرأة ، وهو استبداد من الرجل ، ولا نتعجل الرد عليهم ، ولنضع بين يدي القارئ بعض قواعد التشريع في هذه القضية :

أولاً : الطلاق في الاسلام بدون سبب صحيح حرام لما فيه من قطع الزوجية ، التي هي من النعم العظمى ، ولما فيه من ضياع الأولاد ، أما إذا وجد التباغض والتقاطع، ولم يمكن الصلح بينهما ، وغلب على الظن عدم إقامة حدود الله في

الزوجية فالدواء الأخير هو الفراق فيكون حينئذ مباحاً .

ثانياً : جعل الشارع أمر الطلاق بيد الرجل ، لأنه أحرص على بقاء الزوجية، وذلك لما أنفق في سبيله من المال ، يصعب عليه أن ينفق مثله كلما أراد أن يتزوج هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فإنه أشد صبراً فلا يسارع إلى الطلاق ، ومن هنا ندرك السبب الذي من أجله لم يجعل الاسلام الطلاق بيد المرأة ، لأن الطلاق لم يكلفها من جهة ، ولأنها ذات عاطفة جموحة من ناحية ثانية .

ومع ذلك فقد جعل لها الشارع حق طلب الفسخ إذا امتنع عن الانفاق ، أو عجز ، أو غاب غيبة متقطعة ، أو كان به علة تمنعه من تأديه وظيفة الزوجية ، كذلك أباح للزوج أن يجعل للمرأة حق التطليق ، ومع كل هذا الاصلاح والمحافظة على حقوق المرأة فقد أوجب الشارع على الزوج إذا طلق أن يدفع مؤخر صداقها إليها ، وأن يقوم بالإنفاق عليها مدة العدة ولو طالت ، وبإسكانها وكسوتها كما طلب منه أن يفرق الطلاق ، وأن يقف عند حد محدود لا يتعداه ، وهو الثلاث خشية أن تكون المرأة ألعوبة في يد الرجل .

ثالثاً : لقد فرق القرآن الكريم بين حالتين : الأولى : المرأة التي طلقها زوجها قبل الدخول بها ، والثانية : المطلقة بعد الدخول ، أما في الحالة الأولى فقد أوجب القرآن الفسخ بين الزوجين ، قال تعالى { يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات - أي عقدتم عليهن - ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميلاً } [الأحزاب : ٤٩] وإنما اتخذ القرآن الكريم هذا القرار الحاسم ، لأن هذه الفترة التي يعيشها الزوجان بعد العقد وقبل الدخول فترة يسودها الحب والمودة والاحترام المتبادل ، فكل واحد من الزوجين يظهر أمام الآخر بمظهر جذاب فيه العطف والحنان ، إن كلاً منهما يود أن يُري صاحبه الصورة المشرقة فإذا لم يستطيعا التفاهم في هذه الفترة الزمنية ، وكان الطلاق ،

فمن الخير أن تنتهي هذه الصلة بينهما ، ليسير كل في طريق ، { وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته وكان الله واسعاً حكيما } [النساء : ١٣٠] .

والتشريع القرآني في منتهى الحكمة ، وغاية السمو ، فالطلاق في هذه الفترة لن يفقد كل من الزوجين فيه شيئاً كثيراً ، فالمرأة لم تفقد حصن البكارة ، والرجل لا يكلف إلا نصف المهر ، إلا إذا تنازلت المرأة عن شيء ، أو طلبت هي الطلاق ، وقد حث القرآن على العفو ، فقال { وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ، وقد فرضتم لهن فريضة ، فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح وأن تعفو أقرب للتقوى ، ولا تنسوا الفضل بينكم ، إن الله بما تعملون بصير } [البقرة : ٢٣٧].

أما إذا كان الطلاق بعد الدخول ، فلقد جعل الإسلام ضوابط كثيرة متعددة ، واحتاط له احتياطات من شأنها أن تقلل من حوادث الطلاق في المجتمع المسلم ، وأذكر أننا كنا نفجأ حينما كنا نسمع بحادثة طلاق ، وما أوسع الشقة بين المجتمعات المسلمة ، والمجتمعات الغربية والشرقية ، التي كان الطلاق فيها محرماً ، وأباحته فيما بعد ، فما هي هذه الضوابط والاحتياطات :-

١) كان من حكمة التشريع أن يكون الطلاق مفرقاً وأن لا يقع دفعة واحدة ، يقول الله سبحانه { الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان } [البقرة:٢٢٩] وهاتان المرتان لا تقعان مرة واحدة ، بل تكون التطليقة الأولى أولاً، وهي طلقة رجعية يجوز للزوج أن يراجع زوجه في أثناء العدة ، وهي ثلاثة قروء أو ثلاثة أشهر ، فإن راجعها ولكنهما لم يستطيعا المسيرة الهنيئة الهادئة وطلقها مرة ثانية فإنه يمكن له أن يراجعها بعد هذه التطليقة كذلك في أثناء العدة ، فإن راجعها ، ولكنهما لم يستطيعا إتمام المسيرة معاً وطلقها مرة ثالثة ، فإنها حينئذ تحرم عليه ولا يجوز له مراجعتها حتى تنكح زوجاً غيره نكاحاً صحيحاً ليس فيه

تحايل ، وفي ذلك خير للزوجين معاً ما دام كل منهما لا يسع صاحبه .

٢) إن هذا الطلاق يجب أن يقع في حالة طهر ، ومعنى هذا أن الزوج لا ينبغي أن يطلق زوجه في حالة الحيض ؛ لأنها حالة يمكن أن يكون فيها نفرة بين الزوجين ، ويجب أن يطلقها في حالة طهر لا وطء فيه ، قال تعالى { يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة } [الطلاق : ١] .

٣) أوجب على المرأة أن تقضي العدة في بيت الزوج ، وحرم على زوجها أن يخرجها من بيته ، وفي هذا محاولة لكي يفكر كل من الزوجين ملياً قبل أن يقرر فصم عرى الزوجية ، فقد يكون وجودها في بيته سبباً لمراجعة نفسه ، وبالتالي الإقلاع عن إنفاذ الطلاق . قال تعالى { واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ،وتلك حدود الله ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً } [الطلاق:١]

٤) وازدياداً في الحيطة طلب القرآن الاشهاد على الطلاق ، قال تعالى {وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ، ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، و من يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره ، قد جعل لكل شيء قدرا} [الطلاق:٢ ، ٣] .

ونلحظ أنه قد كثر في سورة الطلاق – وهي التي تسمى سورة النساء الصغرى تمييزاً لها عن سورة النساء – كثر فيها الحث على التقوى ، وبيان ما أعد الله للمتقين من خير في الدنيا والآخرة ، وذلك كله من أجل تذكير الأزواج بما يجب عليهم ، نقرأ هذه الآيات في السورة الكريمة { ومن يتق الله يجعل له مخرجا} [الطلاق :٢] {ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً } [الطلاق:٤] { ومن يتق

الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً } [الطلاق:٥] { سيجعل الله بعد عسر يسراً } [الطلاق : ٧] فقد حرم الله على الأزواج والأولياء الإضرار بالنساء ، فقال سبحانه {إذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أوسرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا } [البقرة:٢٣١] وهذا خطاب للأزواج ، وقال تعالى { وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن } [البقرة : ٢٣٢] وهذا خطاب للأولياء.

ذلكم هو تشريع الطلاق في كتاب الله تبارك وتعالى ، وهناك تفصيلات كثيرة في السنة المطهرة ، فقولوا لي بربكم : أي تشريع من تشريعات البشر ، يمكن أن يصل سمواً وعدالة إلى هذا التشريع ، إنه والله الإعجاز التشريعي ، والتشريع المعجز ، وصدق الله { إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم } [الإسراء : ٩] .

وأكتفي بهذه الموضوعات التي ذكرتها ، على أن الإعجاز في القرآن الكريم يظهر في كل مجال من مجالات التشريع ، يظهر فيما حرمه القرآن الكريم ، سواء كانت هذه المحرمات في المطاعم والمشارب كالميتة والدم ولحم الخنزير وشرب الخمر أم كانت في مجال الاجتماع كالزنا والقذف ، أم في مجال الاقتصاد كتحريم الربا ، كما يظهر ذلك الإعجاز في المعاملات ، وإن من يتدبر آية الدين وغيرها من الآيات التي نظمت الشؤون المالية ، يجد حقيقة الإعجاز في كل قضية من هذه القضايا ، كذلك من يتأمل الآيات التي نظمت شؤون الجهاد وعلاقة المسلمين بغيرهم ، يجد العدالة المعجزة ، وصدق الله العظيم { أولم يكفهم إنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون } [العنكبوت : ٥١] وصدق الله { ونزلنا عليك القرآن تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة لقوم مسلمين ...} [النحل : ٨٩] .

الفصل الرابع
أخبار الغيب في القرآن الكريم

نذكر في هذا الوجه مبحثين إثنين :

الأول : أخبار القرآن عن الأمم السالفة .

الثاني : أخباره عن أحداث المستقبل .

المبحث الأول : أخبار القرآن عن الأمم السالفة :

قد يقول بعض الناس : لم جعلتم هذا من وجوه الإعجاز مع أن هذه قضايا تاريخية يتناقلها الناس بعضهم عن بعض ؟

ونقول لهؤلاء المتسائلين : إن ما قلتموه حق لا ينازع فيه أحد ، ولكن شتان بين ما ذكرتم وبين أمر هذا القرآن الكريم ، فحوادث التاريخ ليست وقفاً على أحد من الناس دون أحد ، فقد يتناقل أجيال من الناس حادثة معينة ، خبراً له شأن أو قصة عجيبة ، أو حادثة ذات أثر ، ولكن الذي جاء في كتاب الله تبارك وتعالى ليس من هذا القبيل ، فأخبار الأمم في القرآن الكريم جاء بها النبي -صلى الله عليه وسلم- من عند الله ، وهو أمي بإتفاق محبيه ومبغضيه ، وأوليائه وأعدائه ، وأصحابه وخصومه .

لم يقرأ كتب الأولين ، ولم يجلس لمعلم يقص عليهم قصصه { وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تخطه بيمينك ، إذن لارتاب المبطلون ، بل هو آيات بينات في صدور الذين أتوا العلم ، وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون } [العنكبوت :٤٩] .

ثم إن الأخبار التي جاءت في كتاب الله تعالى ، وجاء بها القرآن كان بعضها حديثاً عن أهل الكتاب ، وبعضها عن غيرهم .

أما أخباره عن أهل الكتاب فكان منها مالم يعرفه أهل الكتاب أنفسهم ،

وكان منها ما عرفوه ولكن على غير حقيقته ، فجاء القرآن الكريم ليصحح لهم هذه المعرفة ، ويبين لهم وجه الحق ، ويدلهم على وجه الصواب .

وأما ما كان حديثاً عن غير أهل الكتاب ، فكان بعضه عن العرب الأولين ، وبعضه الآخر عن غيرهم ، وهذا وذاك كان كثير منه جديداً على العرب ، لم يستمعوا إليه إلا من القرآن الكريم ، وكان بعضه الآخر مما كانوا يعرفونه معرفة غير سليمة ، فجاء كتاب الله تبارك وتعالى يجلي لنا الحق في هذه الأخبار كلها ، يقول الله تعالى بعد أن بين قصة نوح عليه الصلاة السلام في سورة هود { تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر إن العاقبة للمتقين } [هود : ٥٩]

ويقول في ختام قصة يوسف عليه الصلاة والسلام { ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون } [يوسف:١٠٢] ويقول بعد الحديث عن نبأ موسى عليه الصلاةو السلام في سورة القصص { وما كنت بجانب الغربي ، إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ، ولكنا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر ، وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ، ولكنا كنا مرسلين ، وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ، ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما آتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون } [القصص : ٤٤] .

ويقول بعد الحديث عن قصة مريم - رضي الله عنها - { ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم بكفل مريم ، وما كنت لديهم إذ يختصمون } [آل عمران :٤٤] .

ويبين لأهل الكتاب كثيراً مما اختلفوا فيه ويصحح لهم كثيراً مما اشتهر بينهم، فيقول سبحانه { إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون} [النمل :٧٦] ، ويقول :{ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم

تخفون من الكتاب ، ويعفو عن كثير ، قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويديهم إلى صراط مستقيم } [المائدة : ١٦] .

فمن قضايا التاريخ التي ذكرها القرآن وصححها إطلاقه على حاكم مصر "الملك" مع أنهم كانوا عرفوا بالفراعنة فيما بعد ، وذلك في قوله سبحانه { وقال الملك ائتوني به } [يوسف : ٥٤] وذلك لأن لقب فرعون جاء بعد يوسف عليه السلام .

وذكره البعير في رحلة اخوة يوسف إلى مصر ، فقال سبحانه { ولمن جاء به حمل بعير } [يوسف :٧٢] مع أن الكتب القديمة ذكرت أن وسيلة النقل كانت الحمر.

والمتأمل في قصص القرآن ، والمتدبر لآياته يدرك أن ما جاء به القرآن الكريم مجملاً تارة ومفصلاً تارة لا يمكن أن يكون إلا من خبر السماء ، فكان حرياً أن يعدّ وجها من وجوه الإعجاز .

على أن ما جاء في القرآن الكريم ، وبخاصة أخبار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، كان من أعظم الأدلة على صدق الوحي ، وصدق النبي –صلى الله عليه وسلم– ؛ لأنه لم يكن فيه ما يشين هذه الصفوة المختارة مما لا يليق بمكانتهم { لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ، ما كان حديثاً يفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون } [يونس : ٣٧].

المبحث الثاني : إخبار القرآن بأمور من غيب المستقبل :

لقد جاء في القرآن الكريم كثير من الآيات تنبيء عن أمور لم تكن قد وقعت، ولقد وقعت كما أخبر القرآن عنها لم يتخلف منها خبر ، من ذلك :

١- قول الله تبارك تعالى { قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد } [آل عمران : ١٢] ولقد كان ما أخبر عنه القرآن الكريم .

٢- ما طمأن الله به رسوله -صلى الله عليه وسلم- من أنه سيعصمه من الناس ، ويمنعه من كل من أراد قتله ، فلقد بذل اليهود والمنافقون ما يستطيعون ، وقاموا بأكثر من محاولة ، ولكن الله حفظ نبيه عليه وآله الصلاة والسلام منهم ، وهذ ما جاء صريحاً في الآية الكريمة { والله يعصمك من الناس } [المائدة :٦٧] .

٣- وعد الله أن يحفظ هذا القرآن الكريم من أن يطرأ عليه أي تغيير ، أو يناله أي تبديل ، فقال سبحانه { أنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون } [الحجر:٩] وكان ما أخبر عنه القرآن الكريم ، وصدق الله { ومن أصدق من الله حديثا } [النساء:٨٧] .

٤- ما أخبر به القرآن الكريم من نصر نبيه -صلى الله عليه وسلم- ، ونصر المؤمنين ، وتمكين دينهم لهم ، واستخلافهم في الأرض ، وتبديل خوفهم أمناً ، فقال سبحانه { وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم } [النور : ٥٥]

وقال سبحانه { إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدينا ويوم يقوم الأشهاد } [غافر :٥١] وقال سبحانه { ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم لمنصورون وإن جندنا لهم الغالبون } [الصافات : ١٧١ ، ١٧٣] .

٥- ما وعد الله به نبيه -صلى الله عليه وسلم- من دخول مكة ، ودخول المسجد الحرام ، فقال سبحانه { إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد } [القصص:٨٥] وقال { لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون ، فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً} [الفتح : ٢٧] .

٦- وعد الله المسلمين مغانم كثيرة من أعدائهم ، فقال سبحانه { لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم

وأثابهم فتحاً قريباً ، ومغانم كثيرة تأخذونها وكان الله عزيزاً حكيم ، وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ، فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيماً ، وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان على كل شيء قديرا } [الفتح : ١٨ ، ٢٠] .

٧- وعد الله للمسلمين أن يهزم عدوهم ، فقال سبحانه في شأن اليهود { لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله ، وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله ، وضربت عليهم المسكنة } [آل عمران :١١١ ، ١١٢] وقال سبحانه { وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ، إن ربك لسريع العقاب ، وإنه لغفور رحيم } [الأعراف : ١٦٧] .

وإننا لنؤمن بهذه الآية إيماناً قوياً ، لا يتزحزح من قلوبنا قيد أنملة ، ولا نتزحزح عنه قيد شعرة ، من أن اليهود سيسامون سوء العذاب ، مهما علا باطلهم، ومهما تمادوا في غيهم ومهما بذلت أمريكا وغيرها لهم ، فيستحق وعد الله { وعد الله لا يخلف الله وعده ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون } [الروم : ٦] .

وقال سبحانه { فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علو تتبيراً }[الإسراء:٧] والمخاطبون هم اليهود ، والذي نختاره ونراه في تفسير هذه الآية الكريمة أن الآخرة في الآية وهي المرة الثانية لإفساد اليهود ، ليست شيئاً غير واقعنا الذي نعيشه الآن ، فهي تتحدث عن اليهود بعد أن كان لهم دولة ، ولم يحدثنا التاريخ عن دولة لليهود في عهد المسلمين إلا هذه ، فلا بد أن تتقوض أركانهم ، ونسوء وجوههم ، وندخل المسجد الأقصى ، ويتبرون شر متبر ، وقال تعالى { فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً ، وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيراً وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس مكث ونزلناه

تنزيلا ، قل آمنوا به أو لا تؤمنوا } [الإسراء : ١٠٤ ، ١٠٧].

٨- ما ذكره القرآن الكريم وهو يحدثنا عن يهود «وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة أينما ثقفوا وأينما وجدوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس » والذي نفهمه من هذه الآية الكريمة أن اليهود لا يستطيعون أن يقفوا على أقدامهم ، وليس بوسعهم أن يحيوا حياة العزة والمنعة ، وأنهم محتاجون دائماً إلى حليف يحميهم ، ونصير يشد على أيديهم .

ونحن نجد أن وعد الله تبارك وتعالى يتحقق ، فهاهم اليهود اليوم يعولون في مسيرتهم وبقاء دولتهم على كثير من قوى البغي ، وفي مقدمتها أمريكا التي تمدهم بكل المقومات المادية من سلاح ومال وغذاء ، وبكل المقومات المعنوية كذلك ، ولا يجهل أحد من الناس موقف أمريكا وغيرها في مجلس الأمن وهيئة الأمم ، هذا كله يندرج تحت قوله سبحانه « وحبل من الناس » .

ولعل سائلاً يسأل هذا (حبل الناس) عرفناه ، فماذا عن حبل الله ؟ ونجيب السائل عن هذا التساؤل بما يبدو لنا من الآية الكريمة ، وهو أن حبل الله تبارك وتعالى ، يكون لهؤلاء اليهود حينما يتنكب المسلمون الصراط ، ويعرضون عن حكم الله وهديه ، فليس حبل الله لليهود دليلاً على حب الله لهم ، بل هو عقوبة للمسلمين وتذكرة لهم ليرتدعوا عن إعراضهم ، وليرجعوا إلى الله ، ولتحيا كلمات الله في نفوسهم ، وليسد شرعه حياتهم كلها . ذلكم هو حبل الله وحبل الناس ، وهو بحق - ويعلم الله - إعجاز في هذه الآية الكريمة أظهر من الشمس في رابعة النهار .

ويتصل بهذا ما أخبر به عن يهود من تسلط الأمم النصرانية عليهم ، وذلك في قوله سبحانه { إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة } [آل عمران: ٥٥] .

والمتدبر للآية الكريمة يجد أنه قد ذكر فيها (الذين كفروا) مرتين ، الأولى (ومطهرك من الذين كفروا) والثانية (وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا) ، والذين كفروا في المرة الأولى هم اليهود يقيناً ، فهم الذين ناصبوه عليه الصلاة والسلام العداء ، وقد نجاه الله منهم ، وإذن (فالذين كفروا) في قوله تعالى (فوق الذين كفروا) هم اليهود كذلك . فالآية الكريمة تبين لنا أن تسلط الأمم النصرانية على اليهود أمر مستمر ، والتاريخ خير شاهد على ذلك ، فما لاقاه اليهود من الأمم النصرانية على مدى التاريخ من الشدة والقسوة والإيذاء والتعذيب والاحتقار لا يجهله أحد ، ولا ينكره اليهود أنفسهم .

وفي هذه الأيام التي يظهر أن لليهود فيها دولة ، لا ينكر أحد هذه الفوقية ، فاليهود لا زالوا في أمسّ الحاجة إلى هذه الأمم والحكومات لبقاء دولتهم ، وإلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً عندما يهيء الله لهذه الأمة من يرفع فيها علم الجهاد ، ليدكوا دولة الباطل { ويدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة } [الإسراء : ٧] {ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً } [الإسراء : ٥١] .

٩- وإذا كان هذا وعداً بهزيمة عدو المسلمين من اليهود ، فلقد وعد الله المؤمنين كذلك أن يهزم عدوهم من مشركي العرب ، فقال سبحانه { ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ، ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً } [الفتح : ٢٢] .

١٠- وعيد الله سبحانه لأهل مكة ومن شايعهم في بدر ما سيلاقونه يوم بدر ، فقال سبحانه {سيهزم الجمع ويولون الدبر } [القمر : ٤٥] وهذه الآيات نزلت في مكة ولذا روي عن سيدنا عمر رضي الله عنه قوله { ما عرفت الجمع الذي تتحدث عنه الآية إلا يوم بدر } .

وقال سبحانه { فذرهم حتى يلاقو يومهم الذي فيه يصعقون ، يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ولا هم ينصرون } [الطور : ٤٥ . ٤٦] والمقصود بهذا يوم بدر .

ومن عجيب أمر القرآن الكريم، أن هاتين الآيتين من سورة الطور جاءتا بعد قوله سبحانه{ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون، قل تربصوا فإني معكم من المتربصين ، أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون ،أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون .. إلى آخر الآيات } [الطور :٢٩.٤٦]

فقد ذكرت (أم) في هذه الآيات خمس عشرة مرة ، وكانت غزوة بدر في السنة الخامسة عشرة من البعثة النبوية ،حيث مكث النبي -صلى الله عليه وسلم- في مكة ثلاث عشرة سنة ،وكانت بدر في السنة الثانية للهجرة ، فهذه خمس عشرة سنة.

١١- ما تحدى الله به اليهود من تمني الموت إن كانوا أولياء الله ، وإن كانت الدار الآخرة خالصة لهم ، فقال { قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء الله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ، ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين } [الجمعة : ٩٤] وكان ما أخبر عنه القرآن الكريم .

١٢- ما أخبر الله به عن أهل مكة في سورة الدخان من أنه سيأخذهم بالسنين ، ويذيقهم لباس الجوع والخوف ، وذلك قوله سبحانه { فارتقب اليوم تأتي السماء الدخان مبين ، يغشى الناس هذا عذاب أليم ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون أني لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون ، إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون ، يوم نبطش البطشة الكبرى أنا منتقمون } [الدخان :١٠.١٦] والبطشة الكبرى هي ما أصابهم يوم بدر ، أما الدخان المبين فيبينه ما جاء في صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود قال :" إنما كان هذا لأن قريشاً لما استعصوا على النبي صلى الله عليه وسلم دعا عليهم بسنين كسني يوسف فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام ، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد ، فأنزل الله تعالى { فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ، يغشى الناس هذا عذاب أليم } قال " فأتي رسول الله صلى

الله عليه وسلم فقيل : يا رسول الله : استسق الله لمضر ، فإنها قد هلكت ، قال : لمضر ؟ إنك لجريء ، فاستسقى فسقوا ، فنزلت { إنكم عائدون فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم حين أصابتهم الرفاهية ، فأنزل الله عز وجل { يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون } قال يعني يوم بدر » [1] .

١٣- ما أخبر الله به عن فارس والروم وذلك في قوله سبحانه { آلم ، غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين } [الروم :١ .٣] ولقد تحقق الخبر القرآني ، وفي المدة التي أخبر عنها القرآن الكريم .

١٤- ما أخبر الله به نبيه -صلى الله عليه وسلم- ، مما سيحدث لأهل مكة بعد إخراج النبي -صلى الله عليه وسلم- منها ، فقال { وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها ، وإذن لا يلبثون خلافك إلا قليلاً } [الاسراء : ٧٦] .

١٥- ما هدد الله به المنافقين ، والذين في قلوبهم مرض من أنهم إن لم ينتهوا عما هم فيه ، فإنهم سيلقون سوء صنيعهم ، وذلك في قوله { لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض ، والمرجفون في المدينة ، لنغرينك بهم ، ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً } [الأحزاب : ٦٠] .

١٦- ما أخبر الله به في هذا القرآن من كشوف في آفاق هذا الكون ، وآفاق النفوس البشرية ، قال سبحانه { سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد } [فصلت : ٥٣] .

١٧- ما أخبر الله به عن مكنونات في هذا الكون ، ذكرت إشارات إليها

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب يغشى الناس هذا عذاب أليم ، رقم ٣١٠ ، رقم الحديث (٤٥٤٤) [١٨٢٣/٤] .

ونبهت عليها بعض آيات القرآن ، وذلك في قوله سبحانه { ولتعلمن نبأه بعد حين } [ص:٨٨] .

١٨- ما فضح الله به المنافقين ، مما كانوا يخفونه في أنفسهم ، فأظهره الله سبحانه وتعالى وأطلع نبيه صلى الله عليه وسلم ، وبينه للمؤمنين ، قال تعالى {يحذر المنافقون أن تنزل عليهم آية تنبئهم بما في قلوبهم ، قل استهزءوا إن الله مخرج ما تحذرون } [التوبة:٦٤] وهذا كثير في كتاب الله تبارك وتعالى ، وقال تعالى { يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا } [التوبة:٧٤] والمتدبر للآيات الكريمة يجد أن الله تبارك وتعالى كان يطلع نبيه عليه وآله الصلاة والسلام على ما يخفيه المنافقون واليهود والذين في قلوبهم مرض.

ونرجو أن يكون ما ذكرناه فيه غنية .

هذه بعض أنباء الغيب في كتاب الله تبارك وتعالى ، ولقد تحقق كل ما أنبأ عنه القرآن { ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه إختلافاً كثيراً } [النساء :٨٢] { وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ، وما أرسلناك إلا بشيراً ونذيراً } [الإسراء : ١٠٥] .

الفصل الخامس

الإعجاز النفسي والإعجار الروحي

لست مولعاً بتكثير وجوه الإعجاز القرآني رغم إيماني بأن كل ما فيه معجز ، ولكن مع ذلك يحتم علينا ويتطلب منا البحث العلمي أن نعرض لبعض القضايا التي ذكرت في كثير من الكتب التي تحدثت عن إعجاز القرآن ومن هذه الأوجه الإعجاز النفسي والإعجاز الروحي ، هل كل واحد منهما مستقل في الإعجاز ؟ أهما وجه واحد أم وجهان لكل منهما مفهومه ومعناه ؟ .. تساؤلان لا بد من البحث عنهما والإجابة عليهما ، ولكن بعد أن نستعرض ما قيل في هذا الموضوع .

ذكر بعض الكاتبين أن الإعجاز النفسي له أكثر من مظهر منها : الحديث عن النفس الإنسانية ، ومنها تأثير القرآن في النفس الإنسانية ، ومنها تمزيق القرآن لحواجز النفس الإنسانية [(١)] ، ويقيننا أن لا شيء من هذه المظاهر يطلق عليه أنه إعجاز نفسي .

أما تمزيق القرآن لحواجز غيب النفس - كما ذكر الشيخ الشعراوي - [(٢)] ، فهذا في الحقيقة ليس إعجازاً نفسياً ، وإنما يدخل في وجه آخر وهو أخبار القرآن الكريم عن الغيوب ، وقد تحدثنا عن هذا قبل قليل .

وأما حديث القرآن الكريم عن النفس الإنسانية ، سواء من حيث طبيعتها المزدوجة لأنها مادة وروح ، أم من حيث استعدادها المزدوج كذلك للخير والشر {ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها } [الشمس : ٧ ، ٨] ويتفرع عن هذا مكابدته في هذه الحياة ،وإغواء الشيطان له ، وتزيين الشهوات ، فليس هذا كذلك

---

(١) البيان في إعجاز القرآن / الخالدي / ص ٣٣٨ .

(٢) المعجزة (١/١٠٨) .

من الإعجاز النفسي في شيء ؛ ذلكم لأن هذا حديث عن النفس الإنسانية فيه تصوير وتحذير ، حث على الخير ، وتنفير من الشر .

إن حديث الأطباء عن جسم الإنسان وما فيه من عجائب ،إنما هو شرح لحقيقة الجسم ، كذلك حديث القرآن الكريم عن النفس هي معلومات يجدها كلا منا في نفسه ، لكن القرآن الكريم يرغب ويرهب ، يبشر وينذر ، يعد ويحذر ، إن ذلك لا يعد إعجازاً نفسياً .

بقي مظهر واحد وهو تأثير القرآن في النفس الإنسانية ، وهذا كذلك لا يسميه العلماء إعجازاً نفسياً ، بل هو إعجاز روحي كما ستعرفونه إن شاء الله .

وإذا لم يكن الإعجاز النفسي شيئاً من هذا كله ، فما هو الإعجاز النفسي -إذن - كما يراه العلماء ؟ .

لعل من المفيد هنا أن نذكر أن الدراسات الأدبية الحديثة تتخذ أكثر من وجهة، ومن هذه الوجهات الوجهة النفسية ، ويعنون بها دراسة النص الأدبي دراسة يحللون من خلالها نفسية الكاتب ، أو التي تحدث عنها الكاتب ، وهذه الوجهة مع إيجابياتها ، لكن لها سلبيات كثيرة ، إذ كاد الناس يغفلون فيها كثير من العناصر الجمالية في النص الأدبي ، وذلك لطغيان الجانب النفسي ، ولعلكم بدأتم تدركون الآن ما يقصده العلماء من الإعجاز النفسي ، فما هو الإعجاز النفسي في كتاب الله، بعد أن أشرنا إلى الوجهة النفسية في الأدب .

الإعجاز النفسي في آي القرآن الكريم ، والقرآن كما نعلم جاء لتربية النوع البشري تربية تامة عامة كاملة شاملة ، أقول الإعجاز النفسي هو ما نلمحه في تلك الآيات وهي تتحدث عن أصناف الناس ومواقفهم ومشاعرهم ، وما يفرحهم وما يحزنهم، ما نجده من بيان لمكنونات النفس وخفاياها ، ودوافعها في آي القرآن الكريم قد يكون ذلك في القضية القرآنية ، وقد يكون ذلك في الحديث عن أعداء

المسلمين ، وقد يكون ذلك في الدنيا وقد يكون في الآخرة كذلك ، فإنك لتقرأ الآية من القرآن الكريم ؛ وإذ بها تصور نفسية أولئك الذين تتحدث عنهم صورة واضحة المعالم ، بينة الإتجاه ، لا تهمل جزئية ، ولا تنسى مشهداً .

وإذا كان العلم اليوم قد تقدم كثيراً في ميدان صور الأشعة ، كما نجد ذلك في الصورة الطبقية وغيرها ، التي تطلعنا على خفايا الجسم في أجهزته المختلفة ، وأجزائه الدقيقة ؛ فإننا نجد الآية من القرآن الكريم ، تطلعنا على مضمرات هذه النفس وخفاياها ، وإنك لتقرأ الآية من كتاب الله وتتدبرها ، فلا تغادرها إلا وأنت أمام صورة محكمة دقيقة لهذه النفس ، وتلك - ويعلم الله - خاصية هذا الكتاب الكريم ، ولا نود أن نفصل القول هنا في هذا الوجه حتى لا يتسع الكتاب ، وقد ذكرناه مفصلاً في كتاب اعجاز القرآن المجيد.

وإنما نود هنا أن نتوسع في ذكر الإعجاز الروحي .

فالإعجاز الروحي هو ذلكم التأثير العظيم لهذا القرآن العظيم على النفوس هيبة وحلاوة ، ورغبة ورهبة ، ولا يعرف كتاب في الدنيا كلها له من الأثر على تاليه ومستمعه ، كما لهذا القرآن ، حتى أولئك الذين لا يدركون معانيه ، ولا يفهمون ألفاظه ، تجدهم يتأثرون بهذا القرآن ، وصدق الله { الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين لا يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد } [الزمر : ٢٣] وصدق الله { الذين آمنوا تطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب } [الرعد : ٢٨] .

ولعل أول من نبه على هذا الوجه في القرآن الكريم الإمام الخطابي رحمه الله يقول رحمه الله .

« قلت في إعجاز القرآن وجهاً آخر ذهب عنه الناس ، فلا يكاد يعرفه إلا

الشاذ من آحادهم ، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس ، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً ، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال ، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه ، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور ، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق ، وتغشاها الخوف والفرق ، تقشعر منه الجلود ، وتنزعج له القلوب يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها ، فكم من عدو للرسول -صلى الله عليه وسلم- من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون إغتياله وقتله ، فسمعوا آيات من القرآن ، فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول ، وأن يركنوا إلى مسالمته ، ويدخلوا في دينه ، وصارت عداوتهم موالاة، وكفرهم إيماناً [(١)] .

وقد علمنا أن الخطابي لم يقتصر على هذا الوجه ، ولكنه ذكره مع وجوه أخرى ، وأهم هذه الوجوه التي ذكرها الخطابي بلاغة القرآن وبيانه ، وقد مر معنا هذا من قبل .

وإذا كان الخطابي – رحمه الله – جعل الوجه الأهم في إعجاز القرآن بلاغته وبيانه ، ولم يهمل الإعجاز الروحي ، فلقد رأينا بعض الكاتبين المحدثين جعل هذا الوجه أهم وجوه الإعجاز ، وكل ما عداه يقصر عنه ، ومن هؤلاء المرحوم محمد فريد وجدي يقول :

« حصر المتكلمون في إعجاز القرآن كل عنايتهم في بيان ذلك الإعجاز من جهة بلاغته فكتبوا في ذلك فصولاً إضافية الذيول ، وبعضهم خصها بالتأليف ، وإننا وإن كنا نعتقد أن القرآن قد بلغ الغاية من هذه الوجهة، إلا أننا نرى أنها

---

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، ص٧٠ .

ليست هي الناحية الوحيدة لإعجازه بل ولا هي أكثر نواحي إعجازه سلطاناً على النفس ، فإن للبلاغة على الشعور الإنساني تسلطاً محدوداً لا يتعدى حدّ الإعجاب بالكلام والإقبال عليه ، ثم يأخذ هذا الإعجاب والإقبال عليه ، في الضعف شيئاً فشيئاً بتكرار سماعه حتى تستأنس به النفس فلا يعود يحدث فيها ما كان يحدثه في مبدأ توارده عليها .

وليس هذا شأن القرآن فإنه قد ثبت أن تكرار تلاوته تزيده تأثيراً ، ولكنه معجز لتسلطه على النفس والمدارك ، فوجب على الناظر في ذلك أن يبحث عن وجه إعجازه في مجال آخر يكفي لتعليل ذلك السلطان البعيد المدى الذي كان ولا يزال للقرآن على عقول الآخذين به .

العلة في نظرنا واضحة لا تحتاج لكثير تأمل وهي أن القرآن روح من أمر الله تعالى « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان » فهو يؤثر بهذا الاعتبار تأثير الروح في الأجساد فيحركها ويتسلط على أهوائها ، وأما تأثير الكلام في الشعور فلا يتعدى سلطانه حدّ إطرابها والحصول على إعجابها....

إن للقرآن فوق البلاغة والعذوبة والحكمة والبيان (روحانية) يدركها من لاحظ له في فهم الكلام وتقدير الحكمة وادراك البلاغة ، ألا ترى إلى الطفل والعامي كيف يعتريهما تهيب عند تلاوته ولو بغير صوت حسن حتى إنهما ليكادان يفرقان بين ما هو قرآن وما ليس بقرآن فيما إذا أراد التالي أن يغشهما ؟.

هذه الروحانية تظهر ظهوراً جلياً عندما تكون آية من آياته جاءت على سبيل الاستشهاد والاقتباس في صفحة كبيرة ، فإنك ترى تلك الآية تتجلى لك من بين السطور وخلال التراكيب كأنها الشمس في رابعة النهار مهما كانت درجة تلك الصفحة من البيان ومنزلتها من جمال الأسلوب وجزالة الألفاظ .

هذه الروحانية تظهر للعارف باللغة وللجاهل بها ، أما ظهورها للعارف فبين لا يحتاج لبيان ، وأما ظهورها للجاهل بها من الأمم الأعجمية فبتأثيرها وتهيجها »[1] .

مناقشة هذا الوجه :-

نحن لا ننكر تأثير القرآن على النفوس ، فتلك قضية بدهية ، ولكن الذي نناقشه هنا ، أن نعد هذا الوجه وجهاً منفصلاً عن بيان القرآن وبلاغته ، وبديع نظمه ، وإذن فنحن ننكر أن نعدّ هذا الوجه الأول من وجوه الإعجاز فوق بلاغته وبيانه ، والذي نراه جديراً بالقبول أن هذا الوجه ناشيء عن بلاغة القرآن ، وعلو شأنه ، وبديع نظمه ، وترتيب حروفه في كلماته ، وكلماته في جمله ، وجمله في آياته ، وآياته في سوره .

ولنا من واقعنا خير دليل على ما نقول ؛ فقد نستمع إلى الشعراء فنتأثر بهم ونعجب بما يقولون ، ولكننا نجد لأحدهم في قصيدته أو أبيات منها ما لا نجده لغيره وقد نستمع إلى الخطباء فيهز أعطافنا ومشاعرنا أحدهم أكثر من الآخرين ، وهكذا ونحن نقرأ لكتّاب القصة والمقالة .

وحينما نبحث عن سبب ذلك كله ، فلن نجد سبباً مقنعاً ، إلا ما وفق إليه أحدهم من حسن الديباجة ، واختيار الألفاظ ، وجرس الكلمات ، واقتناص المعاني، وترتيب الجمل .

وإذا كان ذلك واضحاً في كلام الناس ، فإن كلام الله تبارك وتعالى ، وهو في أعلى طبقات البلاغة حري أن يكون له ذلك الأثر . وصدق الله { كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير } [هود:١] وصدق الله { ولو أن قرآناً سيرت

---

(١) دائرة معرف القرن العشرين (٧/ ٦٧٥) .

به الجبال أو قطعت به الأرض ، أو كلم الموتى بل لله الأمر جميعا} [الرعد : ٣١] [1] .

فالإعجاز الروحي - إذن - إن أردنا أن نعده وجهاً من وجوه الإعجاز فهو ناشيء عن الصبغة البيانية السامية ، والأسلوب الرفيع ، والنظم البديع .

وإذا كان هذا يصدق على الإعجاز الروحي ، فإنه يصدق على الإعجاز النفسي ، إن الإعجاز النفسي ، والإعجاز الروحي كليهما ناشئنان عن الصبغة البيانية للقرآن الكريم التي تتمثل في أصوات حروفه وترتيبها في كلماته ، ونظم هذه الكلمات في جمله .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

---

(١) انظر البيان القرآني / د. محمد رجب البيومي / ص ٢٤٧ .



الفصل السادس

ما يسمى بالإعجاز العددي

ظهر في هذه الأيام أكثر من كتيب يتحدث عن إعجاز القرآن العددي ، وقد رأينا في حديثنا عن وجوه إعجاز القرآن السابقة أنها ذات فوائد كثيرة تتصل بواقع الإنسان ، وواقع الحياة ، فما من وجهٍ من الوجوه السابقة التي تحدثنا عنها إلا وله دلالات تهذب النفس وتسمو بالروح ، وتفجر كثيراً من طاقات العلم ، ورأينا أن كثيراً منها من شأنه أن يسعد الناس ، إن هم نفذوه وطبقوه تطبيقاً عملياً صحيحاً.

وخلاصة القول : أن وجوه إعجاز القرآن السابقة التي تحدثنا عنها كان لكلٍ منها صبغة عملية ، وإشارات وفوائد تكشف عن مضمرات النفس ، ومضمرات الكون ، تجلوها الآيات الكريمة .

ولكن ما يسمى بالإعجاز العددي ، رغم إعجاب كثير من الناس به ، لا تجد له تلكم الفوائد العملية ، وذلكم الأثر الواقعي الذي من شأنه أن يهذب النفس ، ويظهر مضمراتها ، أو يطلعنا على أسرار الكون ، إنه أقرب ما يكون إلى الترف العقلي المجرد ، وإني لأعجب من كثير من الكاتبين الفضلاء الذين أرادوا أن يجعلوا للإعجاز العددي - كما يقولون - أصلاً في تراثنا الإعجازي ، وقرروا أن أئمتنا من الأوائل تحدثوا عن هذا الإعجاز ، واستندوا فيما قرروه إلى ما ذكره الإمام الباقلاني، ومن بعده الزمخشري - رحمهما الله تعالى - .

والمتأمل لكلام هذين الإمامين يجد البون الشاسع بين ما قرره ، وبين ما حمل عليه كلامهما فيما بعد . أما الإمام الباقلاني ، فعند حديثه عن وجوه إعجاز القرآن ذكر وجوهاً ثلاثة : إخبار القرآن بالغيب ، وإخباره عن الأمم السابقة ، مع أمية الرسول -صلى الله عليه وسلم- وبديع نظمه وعلو شأوه في البلاغة ، وقد ذكر لهذا الوجه الأخير معاني عشرة ، التاسع منها أن فواتح السور في القرآن الكريم ذكر

فيها أربعة عشر حرفاً ، وهي « الألف ، والحاء ، والراء ، والسين ، والصاد ، والطاء ، والعين ، والقاف ، والكاف ، واللام ، والميم ، والنون ، والهاء ، والياء ، وقال إن هذه الحروف جمعت صفات الحروف المعروفة عند اللغويين ، وصفات الحروف التي تحدث عنها اللغويون وعلماء التجويد هي سبع عشر صفحة وبعضها صفات لها أضداد وهي عشر ، الجهر وضده الهمس ، والشدة وضدها الرخاوة ، والاستعلاء وضده الاستيفال ، والاطباق وضده الانفتاح ، والإذلاق وضده الإصمات . والتي ليس لها أضداد : القلقلة ، والتفشي ، والتكرار ، والانحراف والصفير ، والاستطالة، واللين ،ولا حاجة بنا لتعريف هذه الصفات ، فهي معلومة لكل الذين درسوا مبادئ التجويد .

فالإمام الباقلاني يقول إن هذه الحروف في فواتح السور لم تهمل فيها أي صفة من الصفات ، فقد ذكر فيها من الحروف المهموسة نصفها ، ومن المجهورة نصفها وهكذا إلى آخر الصفات .

وأما الإمام الزمخشري فعند حديثه عن قوله سبحانه (آلم) في أول سورة البقرة يبين آراء العلماء في هذه الحروف ، ويختار أنها جاءت للتحدي والتنبيه ، ويتحدث تفصيلاً عما تحدث عنه الباقلاني من قبله .

هذان الإمامان - إذن - ذكرا هذه القضية عند حديثهما عن البيان القرآني والبلاغة القرآنية ، ثم لم يتعرضا من قريب أو بعيد لقضية العدد ، أفيجوز بعد ذلك أن نحمل كلامهما فوق ما يحمل ، وأن نفسره بما هو بعيد عن قصدهما ، وإن نقولهما ما لم يقولاه ؟.

ولا أدري لماذا يحاول بعض الناس تكثير وجوه الإعجاز ، ولو كان في ذلك التكلف والتمحل ، والقرآن - ولله منزلهُ الحميد - غني بوجوه الإعجاز الظاهرة الواضحة معالمها ، المتعددة عوالمها ، والنص القرآني ثري معطاء :

فإذا وقف رجل البيان أمام آياته يستجلي صورها التعبيرية وتراكيبها ، وخصائص هذا التركيب ، وجد معانيها تنساب كأنها جدول علب يترقرق ، وألفاظها تتسق كأنما هي نغمات عذبة تتدفق حيوية وجمال إيقاع ، وإذا وقف أمامها عالم الفقه والاجتماع ليستجلي ما فيها من حكم وأحكام ، وجد النظام البديع والقيم الإنسانية الخالدة والأحكام التي لا يصلح النوع الإنساني إلا حينما يعيش في ظلالها ، وإذا وقف أمامها الفيلسوف ورجل العقيدة وعالم الاخلاق والباحث في اسرار الكون ، فإنها تمد هؤلاء جميعاً بقواعد ما يطلبون ، أقصى مما تصل إليه نتائج أبحاثهم القائمة على أساس من البحث العلمي والمنطق السوي ، أما إذا أراد أن يعالجها من يتلمس فيها عوجاً ويتصيد مطعناً ، فإنه يرد خائباً مدحوراً ، ويرجع بخفي حنين ، خاسئاً وهو حسير .

نظرية التسعة عشر :

وبعد فلا بد أن نقف وقفة قصيرة مع أصحاب الإعجاز العددي ، وعلى وجه الخصوص مع ما كتبه الدكتور محمد رشاد خليفة وقد ركز على العدد (تسعة عشر) ، وسنكتفي هنا ببعض الملحوظات .

١- يقول أنها استوقفته فاتحة سورة البقرة (ألم) ، فوجد المفسرين مجمعين على قولهم (الله أعلم بمراده) استوقفته هذه الأحرف أربع سنين ، وهذا افتراء على المفسرين ، والحق أن قلة منهم هم الذين قالوا هذا القول ، أما أكثرهم والمحققون منهم فقد فسروا هذه الأحرف تفسيرات متعددة .

٢- يرى أن أول ما نزل من القرآن الآيات الخمس الأولى من سورة أقرأ ، ثم القلم ، ثم المزمل ، ثم المدثر ، ثم بسم الله الرحمن الرحيم من سورة الفاتحة ، وهذا غير صحيح كذلك ، فإن الأحاديث الصحيحة والسياقات القرآنية تدل على أن الذي نزل بعد آيات العلق الآيات الأولى من سورة المدثر .

٣- يقول إن قوله سبحانه « عليها تسعة عشر » [المدثر : ٣٠] المقصود به « بسم الله الرحمن الرحيم » لأن حروفها تسعة عشر حرفاً ، وهنا مناقشتان اثنتان : الأولى أننا لا نسلم أن عدد أحرف البسملة تسعة عشر حرفاً ، والثانية أنه ليس صحيحاً أن هذه الآية تتحدث عن البسملة ، وإنما تتحدث عن سقر { سأصليه سقر ، وما ادراك ما سقر ، لا تبقي ولا تذر ، لواحة للبشر ، عليها تسعة عشر } [المدثر : ٢٦ - ٣٠] إن القرآن الكريم عربي غير ذي عوج ، وكل محاولة للخروج عن ذلك فهي شطط ولجج ، إن كون الضمير في قوله (عليها) يرجع إلى سقر من الأمور البدهية ، وأي خروج عنه فهو إلحاد في آيات الله ، وصدق الله { إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا } [فصلت : ٤٠] . وإذا كان ما قبل هذه الآية (عليها تسعة عشر) يدل دلالة بينة على ما قلناه ، فإن ما بعدها يدل دلالة بينة كذلك ، وهو قوله { وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ، وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا } [المدثر : ٣١] وأصحاب النار هم الزبانية التسعة عشر ، وعدتهم أي كونهم ذكروا بهذ العدد .

٤- يدعي الكاتب أن هذا العدد مضطرد في الحروف النورانية وهي التي ذكرت في فواتح السور ، وهنا مناقشتان اثنتان كذلك :-

الأولى : من أين هذه التفرقة بين الحروف ، وتقسيمها إلى نورانية وغير نورانية ، إن هذه التفرقة وهذا التقسيم لم يرد في خبر صحيح عن النبي عليه وآله الصلاة والسلام ، ولم يرو كذلك عن الصحابة أو التابعين أو تابعيهم رضي الله عنهم

أما المناقشة الثانية : فما معنى أن يطرد هذا العدد ببعض الحروف دون بعض.

٥- إن من المعلوم بداهة أن القرآن الكريم نزل على سبعة أحرف ، وأن هناك قراءات متواترة لا يفضل بعضها بعضاً ، و نجد في هذه القراءات المتواترة كلمات

ذكرت في بعضها وحذفت من بعضها الآخر ، وكلمات ذكرت على صورة من النطق في قراءة ، وذكر غيرها في أخرى ، فمن القسم الأول « قالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله » [الأعراف : ٤٣] وهناك قراءة متواترة « ما كنا لنهتدي » وقوله وفي الآية نفسها «وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار» [الأعراف : ٤٣] وفي قراءة « تحتها الأنهار » .

ومن القسم الثاني نقرأ قوله سبحانه « إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » [الحجرات : ٦] وفي قراءة « فتثبتوا » ومنه « وانظر إلى العظام كيف ننشزها » [البقرة:٢٥٩] وفي قراءة (ننشرها) وقوله « ولا يخاف عقباها » [الشمس :١٥] وفي قراءة (فلا يخاف) ، ماذا نقول يا ترى في هذه الكلمات التي ذكرت في قراءة تارة وحذفت أخرى أو ذكر بعضها في قراءة وغيرها في أخرى ؟ لا ريب أن نظام العدد سيختل عقده على بعض القراءات ، وهذا كثير في كتاب الله .

٦- إن الفواصل القرآنية جاءت حسب نظام دقيق تتلاءم مع السياق والمعنى، وفيها إعجاز بياني فذّ فلا يجوز أن يقال : إن كلمة رحيم في قوله تعالى « فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم » جاءت ليتم بها العدد المقصود ،والآية التي قبلها ختمت بقوله « والله غفور حليم » فلماذا لم تختم كل من الآيتين بما ختمت به الأخرى ؟ إن ذلك انحراف عن أهداف القرآن البيانية والموضوعية !

٧- إن كلمات القرآن كذلك مثل فواصله جاءت كل كلمة منها لتؤدي رسالتها التي لا تؤديها غيرها ، ووظيفتها التي لا تصلح لها إلا هي ، والقول بأن هذه الكلمات جاءت من أجل أن يتم بها نظام العدد قول يتنافى مع سمو القرآن ورفعته وبيانه ، ولعل أقوى ما استدل به الكاتب الآية الكريمة (وإخوان لوط) في قوله سبحانه « كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط » [ق: ١٢ ، ١٣] قال إنه لم يقل (قوم لوط) حتى يكون حرف القاف في السورة

الكريمة متسقاً مع العدد تسعة عشر ولو قال (وقوم لوط) لكانت هناك قاف زائدة.

إن المتدبر للقرآن الكريم يجد أنه لم يحفل كثيراً بالقضايا الشكلية إلا إذا كان لها دلالة على المعنى ، وهذه عظمة القرآن البيانية ، وقد بينا ذلك في حديثنا عند الإعجاز البياني ، فأن يستبدل القرآن كلمة بأخرى حتى يحافظ على عدد معين لحرف معين قضية غير مسلمة في كتاب الله .

والذي يبدو لي في الآية الكريمة أن هذه الكلمة (إخوان) ذكرت ، ولم تذكر كلمة (قوم) لأمرين اثنين :

الأول يتصل بجرس الكلمة ، وقد علمنا من قبل ما لجرس الكلمات من أثر ، وتحدثنا عن موسيقى اللفظ عند حديثنا عن الرافعي ، وأستاذنا الدكتور محمد عبد الله دراز رحمهما الله ، ونحن نجد للكلمة القرآنية ، سياقة خاصة ، وصوتاً خاصاً « كذبت قبلهم قوم نوح ، وأصحاب الرس وثمود ، وعاد وفرعون وإخوان لوط » وإن هذا الجرس سيتلاشى لو قيل « وعاد وفرعون وقوم لوط » وما أعظم الفرق بين هذه الآية ، وبين ما جاء في سورة (ص) { كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد ، وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب } [ص : ١٢ ، ١٣]

ولنحاول أن نضع كلمة إخوان هنا بدل كلمة قوم ، ولننظر كيف سيتغير الجرس ، ويذهب هذا التغيير بما للآية من إيقاع مؤثر ، وذلك إن قيل «وثمود وإخوان لوط.

الثاني : إن قوم لوط هم الذين أرسل اليهم لوط عليه الصلاة والسلام ، وكذبوه فقلب الله بهم قراهم رأساً على عقب ، وجعل عاليها سافلها ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود ، أما إخوان لوط فيمكن أن يكونوا إخوته ، وأستأنس لهذا التفسير بما جاء في سورة العنكبوت من أن أبانا إبراهيم صلى الله عليه وسلم حينما دعا إلى الله كذبه قومه ، ولم يؤمن به إلا لوط عليه الصلاة والسلام « فآمن له لوط » [آية : ٢٢]. وإن قبلت هذا التفسير فإن الكلمة القرآنية هنا (إخوان)

تكون ذات دلالة واسعة ومفهوم أعم ، ولذلك شواهد كثيرة من كتاب الله .

إن هناك كتباً كثيرة كتبت في الإعجاز العددي ، كما سماها أصحابها ، وبعد اطلاع على هذه الكتب ، ورغم حسن نية كثير من مؤلفيها حيث لم يعرف عن كثير منهم ما عرف عن الدكتور محمد رشاد خليفة من انتماء لنحلة باطلة ، حيث ظهر أنه بهائي ، والبهائية يركزون على هذا العدد (تسعة عشر) .

ولقد ظهر على حقيقته فكان حرباً على الإسلام والمثل والقيم ، ولقد حدثني الأستاذ عمر الصوباني وهو في أمريكا بأن رشاد خليفة كان في آخر أيامه قبل أن يقتل قد كتب بعض الرسائل فكان فيها حرباً على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، واتهمهم جميعاً بأنهم هم الذين يفرقون بين البشر ، وكان لا يطيق أن يسمع أي آية تثني على أي نبي منهم وبخاصة على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مثل قوله {لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ، فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم } براءة :١٢٨ . ١٢٩) كان لا يطيق أن يسمع هذه الآية وأشباهها بل كان ينكر أنها من القرآن .

ذلكم هو الذي خدع المسلمون فيه ، وأذكر أنني حينما كنت في دولة الإمارات في أبي ظبي وجاء هذا الرجل وألقى محاضرة في الإعجاز العددي ، وكانت أول مرة يتحدث عنها للناس ، أعجب الناس فيه أيما إعجاب ، وقد سمعت من كثير من الإخوة المصريين إطراء عليه وعلى أبيه الذي كان شيخاً لإحدى الطرق الصوفية .

والحق أن المسلمين يجب أن يكونوا حذرين يقظين لا تخدعهم الظواهر والمظاهر ، إن هذا المنحرف جاء إلى الناس من الطريق التي يحبون ، وهو ذو نحلة باطلة ، ولقد حذرنا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه الشيخان من أن الشيطان يأتي أحدكم فيقول من خلق كذا من خلق كذا فيقول الله ، حتى إذا

استوثق الشيطان منه قال من خلق الله ، فإذا رأيتم هذا فاستعيذوا بالله من الشيطان ، كذلك كان صاحب الإعجاز العددي .

أما أولئك المؤلفون فلم يعرف عنهم إلا الغيرة على دين الله ، ولكن مع هذا ، وقد اطلعت على كثير من هذه الكتب ، وجدت أنها لا تخلو عن تكلف ، وأن من الخير عدم المغالاة في هذه القضية ، نعم يمكن أن نفيد من ذكر الكلمات في القرآن الكريم قلة وكثرة ، فوائد بيانية موضوعية ، تتصل بواقع الحياة ، كما قالوا : إن الله ذكر في أول سورة البقرة المؤمنين بآيات ثلاث والكافرين بآيتين ، والمنافقين ببضع عشر آية لنحذر النفاق .

وهكذا نوظف قضية كثرة الكلمات وقلتها وظيفة يكون لها في حياتنا أثر طيب ، وأختم هذا البحث بكلمة طيبة للأستاذ نعيم الحمصي يقول :« ترى أيهما أهم وأولى لترغيب غير المسلمين في الإسلام ، أن نعرض عليهم سمو معانيه ، وعظمة تشريعاته ، وصحة مقولاته العلمية التي توافق كلها العلم الحديث ، أم هذا العدد الحرفي الجاف ؟ رأيي أن مناداة الإسلام بالمساواة بين البشر ، وبالحرية والإخاء ، ولفت النظر إلى إدراك عظمة الكون ، أهم جداً من النظام العددي التسعة عشري»[1] .

هذه أهم أوجه الإعجاز التي تحدث عنها الكاتبون . والحقُّ أن الحديث عن إعجاز القرآن الكريم بعيد عن أن يبلغ أحد من الناس غايته ، أو أن يدرك أحدهم نهايته ، إنما تبدو وتظهر منه شذرات ولمحات ، لكل واحد منهم بقدر شاء الله سبحانه وتعالى { أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها } [الرعد : ١٧] .

وتلكم حكمة عظيمة من حكم الله العلي الحكيم ، ليظل هذا القرآن جديداً

---

(١) فكرة إعجاز القرآن ص ٢٩٢ .

على مدى الدهر ينير لهذا الإنسان حياته في طرقها وشعابها ، ووهادها وليلها المدلهم ، كما تنير لهم الشمس ، لكن الشمس تفقد من ضوئها كل يوم ، أما القرآن فإن معانيه تتجدد ، فما أبعد الفرق بين نيّرين أحدهما تنقص جوهره الأيام ، والآخر يزداد مع الأيام تألقاً { وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا }

رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه ، وأدخلني في رحمتك في عبادك الصالحين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه تسليما كثيرا .

الخاتمـــــة

الحمد لله بنعمته تتم الصالحات ، وبفضله يختم كل شيء ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وعليهم جميعاً وعلى آله وصحبه كذلك ، ومن تبعهم بإحسان وآلهم وحوارييهم كذلك ، أما بعد :

فهذا ما يسره الله -فله الحمد والمنة- لنا في هذا الكتاب راجين أن نكون قد وفينا بما وعدنا من جودة في العرض ، ويسر في الأسلوب .

ويعلم الله أننا حاولنا ما استطعنا أن نجنب القارىء الكريم كل وعورة وصعوبة ، فعند عرضنا لأقوال السابقين من أئمتنا رحمهم الله - وقد كان أسلوبهم لعصرهم كما نعلم - حاولنا أن نبسط أسلوبهم ليكون سهل التناول والهضم ، مع دقة وأمانة ، كما حاولنا أن نبتعد بالقارىء الكريم عن كل ما فيه تكلف وعملنا ما استطعنا أن تكون الأمثلة العملية التي ذكرناها مما يمس حياتنا مساً مباشراً ، ولقد تضمن الكتاب كل ما ورد في الخطة الدراسية ، ولا ندّعي أننا بلغنا الموضوع ما يستحقه ، فتلك غاية لا يبلغها إلا الخاصة .

لكننا بذلنا ما اتسع إليه الجهد أو كاد ، وما يمكن أن تبلغه الطاقة أو تكاد ، ونرجو أن يجد القارىء فيه مثقفاً ومدرساً وطالباً بغيته .

ورجاؤنا أن لا يضن علينا القارىء الكريم ، بما يجده من ملحوظات ، فكلنا بشر ، وكلنا نتعلم ، وصدق الله العظيم { وفوق كل ذي علم عليم } ونحن أولى من سيدنا عمر رضي الله عنه بهذا القول « رحم الله امرأ أهدى إليّ عيوب نفسي » .

اللهم اجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا وشفاء صدورنا ، وجلاء أحزاننا وهمومنا ، وسائقنا وقائدنا إليك إلى جناتك جنات النعيم مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

والله نسأل أن ينفع به ويأجر عليه ، وأن يجعله لنا ولوالدينا وأهلنا ذخراً

ونوراً ، والله يجزي سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم خير ما يجزي نبياً عن أمته
وآل سيدنا محمد وصحبه ، اللهم صلى سيدنا محمد وأزواجه ، أمهات المؤمنين
وذرياته وآل بيته كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم ، وبارك
على سيدنا محمد وأزواجه وأمهات المؤمنين وذرياته وآل بيته كما باركت على سيدنا
إبراهيم وآل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد .

المراجـــع

١- إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي ، شركة ومطبعة عيسى البابي الحلبي (١٣٥٨هـ - ١٩٣٩م) .

٢- الإسلام في عصر العلم ، الأستاذ محمد أحمد الغمراوي - إعداد الأستاذ الدكتور أحمد عبد السلام الكرداني ، دار الكتب الحديثة .

٣- الإعجاز البياني للقرآن ومسائل نافع بن الأزرق ، د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطيء) دار المعرفة ، مطبعة المعارف بمصر .

٤- الإعجاز الطبي في القرآن - السيد الجميلي ، مكتبة الهلال - بيروت ، الطبعة الثالثة (١٤٠٣ هـ - ١٩٨٢م) .

٥- إعجاز القرآن لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني ، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف / مصر (١٩٦٣م) .

٦- إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة / د. منير سلطان - منشأة المعارف بالاسكندرية .

٧- إعجاز القرآن في علم طبقات الأرض ، محمد محمود إبراهيم . طبعة مخيمر في مصر (١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م) .

٨- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، مصطفى صادق الرافعي - دار الكتاب العربي بيروت الطبعة التاسعة (١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣م) .

٩- الأموال / أبو عبيد القاسم بن سلامة ، تحقيق خليل محمد هراس ، مكتبة الكليات الأزهرية .

١٠- أنوار المشكاة في أحكام الزكاة / د. فضل حسن عباس / دار الفرقان .

١١- البلاغة تطور وتاريخ / د. شوقي ضيف - الطبعة الثانية - دار المعارف ، مصر .

١٢- بصائر جغرافية / رشيد رشدي العابري . مطبعة التفيض الأهلية - بغداد (١٣٧٠هـ - ١٩٥١م) .

١٣- بلاغة القرآن في آدب الرافعي / د. فتحي عبد القادر فريد .

١٤- البلاغة والتطبيق . د. أحمد مطلوب ، د. حسن البصير / وزارة التعليم العالي والبحث العلمي في العراق - الطبعة الأولى (١٩٨٢م - ١٤٠٢ هـ) .

١٥- البيان في إعجاز القرآن / د. صلاح عبد الفتاح الخالدي ، دار عمار .

١٦- البيان القرآني / محمد رجب البيومي ، مجمع البحوث الإسلامية (١٣٩١هـ- ١٩٧١م) .

١٧- البيان والتبين / لأبي عمر وعثمان بن الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون - دار الجليل .

١٨- بين الطب والإسلام / د. حامد الغوابي - دار الكتب للطباعة والنشر ، القاهرة (١٩٦٧م) .

١٩- تأويل مشكل القرآن / أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة - تحقيق سيد صقر - دار إحياء التراث العربي - عيسى البابي الحلبي .

٢٠- تاريخ آداب العرب / الأستاذ مصطفى صادق الرافعي / الطبعة الثانية (١٣٧٣هـ - ١٩٥٣م) ، مطبعة الاستقامة .

٢١- التركة والميراث في الإسلام / د. محمد يوسف موسى - دار المعرفة ، الطبعة الثانية (١٩٦٧م) .

٢٢- التصوير الفني / سيد قطب - دار الشروق .

٢٣- تفسير جزء عم الإمام محمد عبده .

٢٤- تفسير سورة النور لأبي الأعلى المودوي .

٢٥- تفسير الفخر الرازي ، (التفسير الكبير) الطبعة الأولى - ملتزم الطبع عبد الرحمن محمد - مصر ميدان الأزهر .

٢٦- تفسير القرآن الكريم - الأستاذ محمد شلتوت - دار القلم .

٢٧- تفسير المنار - (تفسير القرآن الحكيم) محمد رشيد رضا - دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت ، الطبعة الثانية .

٢٨- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن / الخطابي الرماني - الجرجاني ، تحقيق د. محمد زغلول سلام ود. محمد خلف الله - دار المعارف بمصر .

٢٩- جامع البيان في تفسير القرآن - الإمام محمد بن جرير الطبري - الطبعة الأولى (١٣٢٤ هـ) .

٣٠- الجمان في تشبيهات القرآن .

٣١- خلق الإنسان بين الطب والإسلام / د. محمد علي البار - الدار السعودية للنشر والتوزيع / الطبعة الثانية (١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م) .

٣٢- دائرة معارف القرن العشرين / محمد فريد وجدي / دار المعرفة - بيروت - الطبعة الثالثة (١٩٧١م) .

٣٣- دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة / موريس بوكاي .

٣٤- دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية / د. محمد عبد الله دراز- دار القلم - الطبعة الثانية (١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤م) .

٣٥- درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله / المنسوب للخطيب الإسكافي - دار الآفاق الجديدة بيروت - الطبعة الثانية (١٩٧٧م).

٣٦- دفاع عن البلاغة / الأستاذ أحمد حسن الزيات / مطبعة النهضة (١٩٦٧م)

٣٧- دلائل الإعجاز / عبد القاهر الجرجاني - تحقيق محمود محمد شاكر - الناشر مكتبة الخانجي القاهرة - مطبعة المدني .

٣٨- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني / أبو الفضل محمود الألوسي - إدارة الطباعة المنيرية ، الطبعة الثانية .

٣٩- صحيح البخاري / الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري - تحقيق د. مصطفى ذيب البغا - دار القلم ، الطبعة الأولى (١٤٠١هـ-١٩٨١م) .

٤٠- صحيح مسلم للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري / تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء التراث العربي .

٤١- الظاهرة القرآنية / مالك بن بني - ترجمه عبد الصبور شاهين - تقديم الأستاذ محمود شاكر ، مكتبة دار العروبة / مطبعة الجهاد ، الطبعة الثانية (١٩٦١م) .

٤٢- الفروق اللغوية / أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري / تحقيق حسام الدين القدسي - طبعة دار الكتب العلمية - بيروت ، (١٤٠١هـ-١٩٨١م).

٤٣- فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة المحمدية حتى عصرنا الحاضر مع نقد وتعليق/ نعيم الحمصي - مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م) .

٤٤- في ظلال القرآن / سيد قطب - الطبعة الخامسة (١٣٨٦ هـ) .

٤٥- القاموس المحيط / للفيروز آبادي / مؤسسة الرسالة .

٤٦- القرآن العظيم وهدايته / د. محمد الصادق عرجون - دار الإتحاد للطباعة ، منشورات مكتبة كليات الأزهر (١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م) .

٤٧- القرآن محاولة لفهم عصري / د. مصطفى محمود - دار الشروق (١٩٧٠م)

٤٨- القرآن وإعجازه العلمي / محمد إسماعيل إبراهيم - دار الفكر العربي للطباعة والنشر .

٤٩- القرآن والعلم / أحمد محمود سليمان - مطبعة دار الشروق / الطبعة الأولى (١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م) .

٥٠- القرآن والعلوم / سعيد ناصر الدهان - مطابع النعمان ، النجف الأشرف - الطبعة الأولى (١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥م) .

٥١- القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته - الدكتور فضل حسن عباس ، دار الفرقان، الطبعة الأولى (١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م) .

٥٢- قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية / د. فضل حسن عباس ، دار البشير (١٩٨٧م) .

٥٣- القول السديد في علم التوحيد / الأستاذ محمود أبو دقيقة .

٥٤- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل / مطبعة دار الاستقامة - القاهرة ، الطبعة الأولى (١٣٦٥هـ ١٩٤٦م) .

٥٥- الكون والإعجاز العلمي للقرآن / د. منصور محمد حسب النبي - دار الفكر العربي (١٤٠١هـ - ١٩٨١م) .

٥٦- لطائف المنان في روائع البيان في دعوى الزيادة في القرآن / الدكتور فضل حسن عباس ، الطبعة الأولى (١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م) دار النور .

٥٧- متشابه القرآن أو أسرار التكرا في القرآن / محمود بن حمزة الكرماني ، تحقيق أحمد عطا ، طبعة دار الاعتصام - الطبعة الثانية (١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م).

٥٨- المثل السائر - ابن الأثير ، طبعة البابي الحلبي (١٩٣٩م) .

٥٩- المجموع شرح المهذب / يحيى الدين بن شرف النووي ، الناشر زكريا علي يوسف ، مطبعة الإمام بمصر .

٦٠- مدخل إلى القرآن الكريم / عرض تاريخي وتحليل مقارن / الدكتور محمد عبد الله دراز / ترجمه محمد عبد العظيم علي - دار القلم (١٤٠٠هـ-١٩٨٠م).

٦١- المسند - الإمام أحمد بن حنبل - المكتب الإسلامي ودار صادر بيروت ، الطبعة الأولى (١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م) .

٦٢- معاني القرآن - زكريا بن يحيى الفراء - عالم الكتب بيروت ، الطبعة الثانية.

٦٣- معترك الأقران في إعجاز القرآن / جلال الدين السيوطي - تحقيق البجاوي دار الفكر العربي .

٦٤- معجزة القرآن / الشيخ محمد متولي الشعراوي - مكتبة دار التراث الإسلامي - القاهرة ، الطبعة الأولى (١٩٨٨م) .

٦٥- المعجزة الكبرى / الشيخ محمد أبو زهرة - دار الفكر العربي للطباعة والنشر (١٣٩٠هـ-١٩٧٠م) .

٦٦- معجم مقاييس اللغة / أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا ، تحقيق عبد السلام هارون - الطبعة الثانية (١٣٨٩هـ-١٩٦٩م) مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي .

٦٧- مع الطب في القرآن الكريم / عبد المجيد ذياب وأحمد قرقوز - مؤسسة علوم القرآن دمشق ، الطبعة الثانية (١٤٠٢هـ-١٩٨٢م) .

٦٨- المغني في أبواب العدل والتوحيد / القاضي عبد الجبار الهمذاني ج١٦ - قوم نصوصه أمين الخولي ، نطبعة دار الكتب ، الطبعة الأولى (١٣٨٠هـ-١٩٦٠م).

٦٩- المفردات في غريب القرآن ، أبو القاسم الحسين المعروف بالراغب الأصفهاني ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر (١٣٨١هـ-١٩٦١م) .

٧٠- الموافقات في أصول الشريعة / لأبي إسحاق الشاطبي - المكتبة التجارية الكبرى ، مطبعة الشرق الأدنى .

٧١- الموطأ - الإمام مالك بن أنس - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه (١٣٧٠هـ - ١٩٥١م) .

٧٢- النبأ العظيم / الدكتور محمد عبد الله دراز - مطبعة السعادة بمصر .

٧٣- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز - تحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي والدكتور محمد بركات أبو علي - دارالفكر - عمان (١٩٨٥م) .

٧٤- المجلات :

- مجلة الثقافة في مصر للأستاذ علي عبد الواحد (١٩٧٣م) .
- مجلة لواء الإسلام ، العدد السابع ، السنة الرابعة .
- مجلة لواء الإسلام ، العدد العاشر ، السنة الثانية . مقال الأستاذ عبد الوهاب حمودة .
- مجلة الوعي الإسلامي ، العدد ١٥ ، (١٩٦٦م) .
- مجلة الوعي الإسلامي ، العدد ٤٤ ، (١٩٦٨م) .
- مجلة المسلمون ، شريعة القرآن دليل على أنه من عند الله ، العدد الأول السنة الأو لى .
- المجلة الثقافية - الجامعة الأردنية مقال بعنوان " الإعجاز البياني لبنت الشاطيء - للدكتور فضل حسن عباس ، العدد السادس (١٩٨٥م) .

٧٥- الأبحاث :

- بحث : الكلمة القرآنية وأثرها في الدراسات اللغوية للدكتور فضل عباس مجلة مركز بحوث السنة والسيرة - قطر ، العدد الرابع (١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م) .
- بحث : رسالة الرماني النكت في إعجاز القرآن (تحليل ونقد) مجلة دراسات ، المجلد السادس عشر ، العدد العاشر (١٩٨٩م) .

- بحث : قضية التكرار في كتاب الله - الدكتور فضل حسن عباس ، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية - الكويت ، السنة الرابعة ، العدد السابع ، شعبان (١٤٠٧هـ - نيسان ١٩٨٧م) .
- بحث : سلامة الحرف من الزيادة الحذف - الدكتور فضل حسن عباس - مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية / الكويت ، السنة الرابعة ، العدد التاسع ، ربيع الآخرة (١٤٠٨هـ- ديسمبر ١٩٨٧م) .

الفهـــرس



صدر للمؤلف :

(أ) من المكتبة القرآنية :

١- القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته .

٢- قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية - رد ونقد - .

٣- لطائف المنان وروائع البيان - في دعوى الزيادة في القرآن - .

(ب) سلسلة بلاغتنا ولغتنا :

٤- البلاغة فنونها وأفنانها - علم المعاني - .

٥- البلاغة فنونها وأفنانها - البيان والبديع - .

٦- بلاغتنا المفترى عليها بين الأصالة والتبعية .

(جـ) سلسلة ليتفقهوا في الدين :

٧- أنوار المشكاة في أحكام الزكاة .

٨- التوضيح في صلاتي التراويح والتسابيح .

٩- البيان والأتحاف في أحكام الصيام والإعتكاف .

(د) سلسلة روضة التائبين :

١٠- خماسيات مختارة .

١١- المنهاج نفحات من الإسراء والمعراج .

كتب قيد الطبع :

١- فقهنا بين التسلط والتوسط .

٢- قضية التكرار في القرآن الكريم .

٣- الكلمة القرآنية وأثرها في الدراسات اللغوية والبيانية .

٤- إعجاز القرآن المجيد - عرض ونقد وتجديد - (ثلاثة مجلدات) .

٥- كشف اللثام عن نحو ابن هشام .

٦- التفسير - خطواته وإتجاهاته - .

٧- المفسرون - مناهجهم ومدارسهم - .



الخطأ والصواب

صفحة	السطر	الخطأ	الصواب
	١	الحمد لله رب العالمين مالك	الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك
	٢	الظالين	الضالين
٥	٤	والأرض ، الحمد	والأرض } ، [الحمد
٥	٧	ويزيد	يزيد
٣٠	١٠	« ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ، ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم	ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم
٣٥	١٧	[العنكبوت : ٥١]	[العنكبوت : ٥٠ ، ٥١]
٣٣	٧	وادعوا من استطعتم	وادعوا شهداءكم
١٠٤	١٠	ولو أننا أنزلنا	ولو أننا نزلنا
١٠٤	١٥	[الحجر : ١٤] { ولو أننا نزلنا	[الحجر : ١٤ . ١٥] ولو نزلنا
١٢٥	١٢	ثم توفى فيه كل	ثم توفى كل
١٣٠	٩	مومنا	مؤمنا
١٧١	٣	وأغرينا	فأغرينا
١٧٤	٦	فإذا أظلم	وإذا أظلم
١٧٩	١	[الآية : ٦١]	[الآية ٤١]
١٨٩	١٢	[ص : ٢٩]	[ص : ٣٩]
١٨٥	٥	النخل	النمل
١٨٧	٦	قالوا لقد	قالوا تالله لقد
١٩٣	١٤	لأصلبنكم	ولأصلبنكم
١٩٧	٩	وأنزل لكم من السماء ماء لكم فيه	هو الذي أنزل من السماء ماء لكم فيه
٢١١	١٥	[النساء : ١٣]	[النساء : ١٣٠]

الصفحة	السطر	الخطــــأ	الصـــ
٢٢٨	١١	لو كان	لو كانوا
٢٣٧	٦	نفاة	تقاة
٢٥٩	الأخير	جعلنا	جعلناه
٢٧٣	١	وأرسل عليكم	وأرسل عليهم
٣٠١	١٢	والفقير	الفقير
٣٠٥	١٥	تبلخوا	تبخلوا
٣١٧	١٥	[البقرة : ١٧٧]	[التوبة : ٦٠]
٣٢٠	٩	تل حدود	ك حدود
٣٢٨	٨	يذكرون	ذكرون
٣٣١	الأخير	لقوم مسلمين	ي مسلم
٣٣٤	٩	[هود : ٥٩]	د : ٤٩]
٣٣٤	١٦	يهتدون } [القصص :٤٤]	ون
٣٣٥	٢	ويديهم	
٣٣٥	١٦	[يونس : ٣٧]	١١]
٣٣٧	١	تأخذونها	
٣٤٠	١٣	اليوم	
٣٤٠	١٤	الدخان	
٣٤٢	الأخير	يد ا	شرا
٣٤٥	١٦	لا يخشون	
٣٤٥	١٨	تطمئن	

74187